التاريخ الخرافي للحضارة المصرية



حكاية الهيروغليفية

رحلة الميلاد والموت والبعث والاستمرار

(معتز فطين زغلول)

سلسلة التاريخ الخرافي للحضارة المصرية

حكاية الهيروغليفية

رحلة الميلاد والموت والبعث والاستمرار

الطبعة الثالثة

الكتاب: حكاية الهيروغليفية

المؤلف: معتز فطين زغلول

تصنيف الكتاب: تاريخ
تصميم الغلاف:AI

تنسيق داخلي:الكاتب

مراجعة لغوية: الكاتب

رقم الإيداع: ٢٠٢٣/٨٦٤٧م

الترقيم الدولي: ٩٧٨٩٧٧٦٨٦٧٧٠٣

اهداء

إلى روح أبي وأمي

إلى زَوجتي وأَبنائي: فَطين ومَحمود ومَلك

الى حفيدتي ليلى

قبل البداية

هذا الكتاب مجاني.

ليس لأن ما فيه لا يساوي شيئاً - بل لأن ما فيه لا يملكه أحد.

التاريخ الذي بين دفّتيه ليس ملكاً لكاتبه. وأفكاره تنتمي إلى كل من فكّر قبله ولم يُنصت إليه. والكلمات التي يحاول استعادتها كانت دائماً في أفواه الناس - لم تكن يوماً في حوزة أحد.

فكان من الأمانة أن يكون الكتاب كذلك: لك. افعل به ما تشاء. أضف عليه. اختلف معه. صحّح ما فيه. أو مرّره لمن يحتاجه - بشرط واحد: أن تبقى أميناً لروحه.

وروحه ببساطة هي: أن الحقيقة لا تُحتكر، وأن الذاكرة لا تموت، وأن حق القراءة لا يمنحه أحد لأحد - بل يُستعاد.

اشكر أحمد كمال باشا (١٨٥١ — ١٩٢٣)

الذي بنى الجسر وحده، بماله، ووقته، وعمره كله.

ومات قبل أن يعبر عليه أحد.

واشكر مهندس سامح مقار

الذي آمن بأن رانكيمة حية قبل أن يثبت أحد أنها لم تمت

كيف دخلنا أرض الخرافة

قبل أن تقرأ هذا الكتاب، تستحق أن تعرف اسم السلسلة التي ينتمي إليها.

اسمها: التاريخ الخرافي.

وهذا العنوان يستوجب وقفة.

حين نقول "الخرافي" لا نعني أن التاريخ المصري خرافة. نعني العكس تماماً. نعني أن ما وصلنا عنه - عبر قرون من التأويل والسياسة والأهواء والترجمات المتسرعة - تراكمت فوقه طبقات من الغبار حتى صار الأصل بعيداً، وصارت الصورة التي في أذهاننا هي ما أُريد منا ان نراها، لا إلى ما كان قائماً بالفعل.

فالخرافة هنا ليست في التاريخ. الخرافة في ما أحاط به.

وبين الأسطورة التي تحمل رمزية، والخرافة التي تُضلّل، والتاريخ الذي يُوثّق - ثمة خيط رفيع يضيع حين لا نُحسن التمييز. الأسطورة تُضيء المعنى. والخرافة تُعتمه. وهذه السلسلة مهمتها الوحيدة: أن تُزيح الغبار لنرى النقش الأصلي بوضوح - لا لتُسقط عن الماضي قدسيته، بل لتُعيد إليه صوته الحقيقي بعد أن تداخلت فيه أصوات لم تكن يوماً جزءاً منه.

هذا الكتاب هو الأول في تلك السلسلة. اخترنا أن نبدأ بالهيروغليفية لأنها القضية الأم - لأن من لا يعرف كيف ماتت لغة أجداده ثم بُعثت ثم استمرت دون أن يعلم، لن يستطيع أن يفهم شيئاً مما سيأتي بعدها.

مقدمة: لماذا هذا الكتاب؟

ثمة لحظة غريبة تمرّ على المصري إذا وقف أمام نقش هيروغليفي - في متحف، أو في معبد، أو على صفحة في كتاب - وينظر إلى تلك الرموز المحفورة أو المرسومة. يشعر بشيء يشبه الفخر. وبشيء آخر يشبه الغربة. فخر لأن هذه الحضارة عظيمة بلا جدال. وغربة لأنه لا يفهم ما تقوله.

وفي تلك اللحظة - لحظة الفخر الممزوج بالغربة - يتساءل أحياناً، ثم يمضي.

هذا الكتاب وُلد من ذلك التساؤل. ليس ليَجيب عن معنى الرموز - فتلك مهمة المعاجم والمتخصصين. بل ليسأل سؤالاً أعمق: لماذا يشعر المصري بالغربة أمام كلام أجداده؟ ما الذي حدث حتى أصبحت هذه المسافة قائمة؟ ومن المسؤول عنها؟

وحين تبحث عن إجابة لهذا السؤال، تجد نفسك في قلب قصة أكبر بكثير مما توقعت - قصة تمتد من معبد فيلة إلى متحف لندن، ومن بيوت الحياة إلى غرف شامبليون الخاصة، ومن قواميس أحمد كمال المنسية إلى كلمات "تاتة" و "إمبو" التي تقولها كل أم مصرية لطفلها كل يوم.

قصة لغة لم تمت. وإن توقفت عن أن تُكتب.

الكتاب في خريطة واحدة

رحلة الميلاد:

كيف وُلدت رانكيمة، وكيف اخترع المصريون نظاماً للكتابة غيّر مسار الإنسانية.

رحلة الموت:

كيف ماتت الهيروغليفية. ليس بضربة واحدة بل بسلسلة من الانقطاعات - الإسكندر، والرومان، ومراسيم ثيودوسيوس، والكهنة الذين احتكروا مفتاحها حتى ضاع. وكيف غيّر التعريب في مصر ما لم يغيّره في فارس. وكيف ارتدت اللغة ثلاثة أثواب بينما غيّرت خطّها أربع مرات.

رحلة البعث:

كيف حاول الإنسان لألف سنة أن يُعيد قراءة الحجر الصامت. وكيف أن العرب اقتربوا من الحل ثم ابتعدوا. وكيف جاء شامبليون في اللحظة المناسبة بالسؤال الصحيح - وكتم ما لم يُرد قوله. وكيف أن الترجمة نفسها لم تكن بريئة.

رحلة الاستمرار:

كيف أن اللغة المصرية لم تمت أصلاً. وأن اثني عشر ألف كلمة في اللهجة المصرية اليومية تحمل جذوراً قديمة. وأن أحمد كمال بنى هذا الجسر وحده - ثم تُرك معجمه مخطوطاً قرناً كاملاً. وما الذي يمكن أن يتغير حين يُنشر.

كلمة في المنهج

هذا الكتاب أدبي في صياغته، لكنه لا يتخيّل ولا يخترع. كل فكرة فيه مستندة إلى مصدر، وكل ادعاء تاريخي قابل للتحقق. اخترنا أن نكتب بلغة القارئ العام لا بلغة المتخصص - لأن القضية التي نطرحها تمسّ كل مصري، لا طائفة الأكاديميين وحدهم.

وحرصنا على شيء واحد طوال الكتاب: ألا نقع في الفخ الذي نتهم به غيرنا. ألا نقرأ التاريخ من خلال ما نريد أن نجد، بل من خلال ما تقوله الأدلة حتى حين تقول ما لا نريد سماعه.

حين ننتقد الاستشراق لاحتكاره تفسير الماضي المصري، لا يعني ذلك أن كل ما قاله خطأ. وحين نقول إن اللغة المصرية القديمة والعربية أختان في أسرة واحدة، لا يعني ذلك أن إحداهما أمّ الأخرى. الأمانة العلمية شرط لا تنازل عنه - حتى حين تكون نتائجها أقل إثارة مما تشتهي النفس.

كلمة أخيرة قبل البداية

في عام ٣٩٤ ميلادية، حفر كاهن مصري اسمه إسمت-آخوم جملة على عمود في معبد فيلة. لم يكن يعلم أنها آخر جملة هيروغليفية في التاريخ.

وفي عام ١٩٢٣، مات عالم مصري اسمه أحمد كمال وترك وراءه معجماً يثبت أن تلك اللغة لم تمت فعلاً. لم يكن يعلم أن معجمه سيبقى مخطوطاً قرناً كاملاً.

وفي هذه اللحظة التي تقرأ فيها هذه الكلمات، ثمة طفل مصري يطلب الماء من أمه بكلمة "إمبو" - وهي نفس الكلمة التي كان يطلبها طفل مصري قديم قبل ثلاثة آلاف سنة. لا يعلم. ولا تعلم أمه. لكن الكلمة تعلم.

اللغة لا تموت حين يصمت الحجر.

تموت حين يتوقف الإنسان عن الاعتراف بها.

وهذا الكتاب ليس أكثر من محاولة للاعتراف.

ابدأ.

معتز فطين زغلول

نزلة السّمان – الهرم – الجيزة

٢٠٢٥

مدخل: مداد الآلهة: حين كان الحرفُ حياة

قبل أن نبدأ رحلتنا في تتبع تاريخ "الخط"، علينا أولاً أن ندرك أن الهيروغليفية لم تكن بالنسبة للمصري القديم مجرد "أداة للتواصل" أو وسيلة لتدوين الضرائب والمحاصيل، بل كانت "ميدو نتر " أي "كلام الإله" او كلمات الرب.

في الوعي المصري القديم، لم تكن الكلمة وصفاً للواقع، بل كانت خلقاً له. حين كان النقاش ينحت صورة "عصفور" أو "زهرة" على جدار المعبد، لم يكن يرسم رمزاً، بل كان يمنح هذا الكائن "وجوداً أبدياً". اللغة هنا هي جسراً سحريا بين عالم "المادة" وعالم "الروح"؛ لذا كان نطق اسم الشخص أو كتابته يعني استمرار حياته في الأبدية، بينما كان محو الاسم أو كشطه يُعد "موتًا ثانيَا" وهو موت نهائي لا قيامة بعده.

لم تكن الكلمة تُقال فقط... بل كانت تُخشى. فما يُنقش يمكن أن يبقى، وما يُكتب قد يتحول إلى قدرٍ لا يمكن التراجع عنه.

هذه القوة الخلاّقة للكلمة كانت ذات وجهين. فكما تمنح الحياة، يمكنها أيضاً أن تحمل الخطر. هذا الوعي يفسر لنا لماذا كانت الحروف لديهم كائنات حية تتنفس وتتحرك. لقد كافحوا للحفاظ على صور الكائنات في خطهم لآلاف السنين، ولكنهم تعاملوا معها بحذر إلهي: كانوا يضعون أحياناً رمز سكين خلف صورة "الأسد" ليأمَنوا شره، أو يقطعون جسم "الحية" في نصوص الأهرام إلى نصفين، لئلا تنهض من على الجدار وتؤذي المتوفى في العالم الآخر.

لم يكونوا يكتبون العالم... بل كانوا يتعاملون معه وهو يُولد تحت أيديهم.

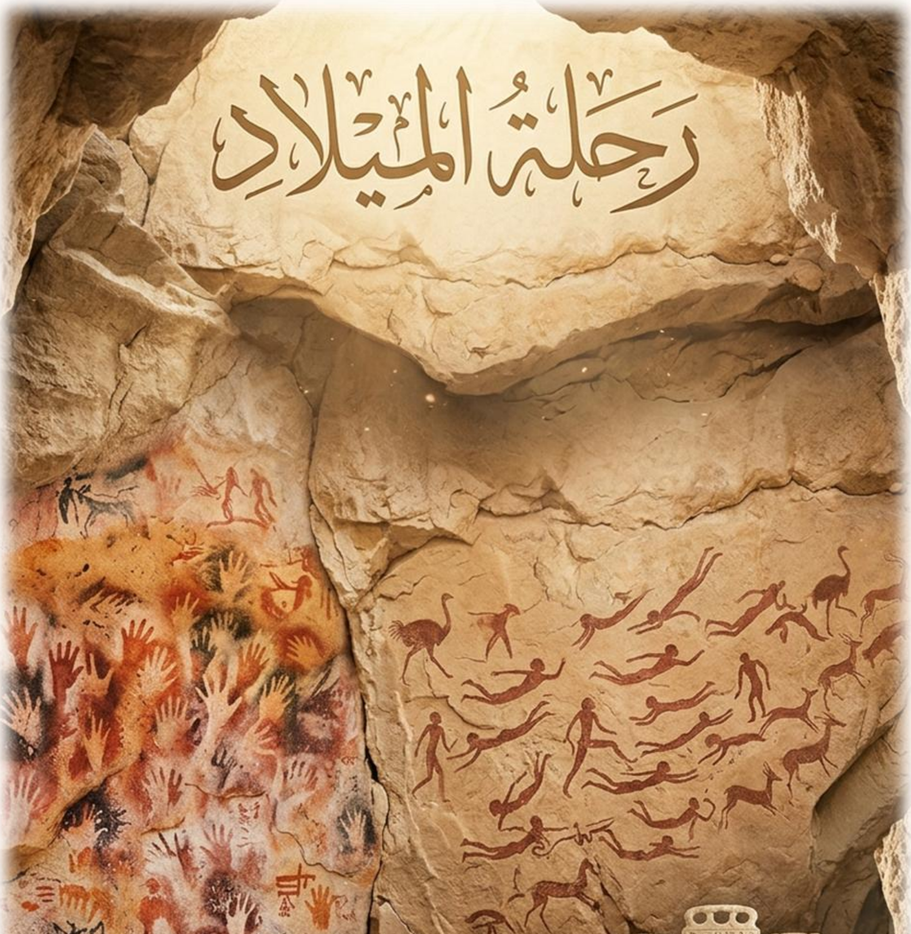
الكلمة كروح: لم تكن الحروف مجرد علامات، بل أرواح تُستدعى، تُمنح الحياة، وتُحجب إن لزم الأمر. إدراك هذه الفلسفة ليس ترفاً فكرياً، بل هو الشرط الأساسي لفهم السر وراء ميلاد هذا الخط المقدس وموته وبعثه. فكيف يمكن أن نفهم "موت" لغة، إذا كنا لا ندرك أولًا أنها كانت "حية" بهذا المعنى؟ فمن رحم هذه النظرة الفريدة للغة، بدأت حكايتنا.

إننا في هذه السلسلة، لا ندرس "بقايا لغة ميتة"، بل نستنطق روحاً حية كانت ترى في الحرف نبضاً، وفي المداد سر الحياة. ومن هنا أيضاً يأتي اختيارنا لعنوان "التاريخ الخرافي":

ليس لأننا ننكر عظمة هذه الحضارة، بل لأننا نريد أن نرى "وعيها" كما كان، قبل أن يُلفّ بغبار التفاسير المتأخرة والسرديات الجاهزة. نريد أن نرى العالم كما رآه المصري القديم... لا كما أُعيد تفسيره بعد أن صمتت لغته. ومن هذا المنطلق الفلسفي، تبدأ رحلتنا الكبرى عبر الزمان والمكان.. رحلة الميلاد. لكنها ليست رحلة في نشأة حروف... بل في نشأة رؤية للعالم.

فلنستمع إلى الحروف وهي تُنشد ميلادها الأول.

رحلة الميلاد



(١)

صرخة الحجر: في البدء كان "المعنى"

قبل أن توجد الكلمات.. كيف نطق الحجر؟

لنمحُ من مخيلتنا -ولو للحظة- كل ما نعرفه عن مصر. صورة الصحراء التي نعرفها اليوم؛ رمالها الذهبية اللامتناهية، وشمسها الحارقة، وحرارتها الخانقة. فالمسرح الذي شهد فجر الوعي المصري كان مختلفاً تماماً، وكأنه كوكبٌ آخر.

تخيّل معي مشهداً من آلاف السنين "من ١٢ ألف سنة الى ٥ الاف سنة تقريبا": لم تكن هناك صحراء قاحلة، بل كانت "مصر الخضراء". أرضٌ تتخللها الأنهار والبحيرات الشاسعة، وتكسوها المروج الوارفة التي تجوبها قطعان الزراف والفيلة في حرية.

في قلب هذه الجنة المفقودة.....

وقف الإنسان لأول مرة أمام العالم... لا ليفهمه فقط، بل ليترك فيه أثراً.



نظر إلى جدار كهف صامت، فوضع يده عليه، ونفخ الصبغة حولها.

لم يكن هذا "فناً" جمالياً فحسب...

بل كان أول تحدٍ للفناء:

"لقد كنا هنا"."

لم تكن اليد علامة حضور فقط... بل محاولة للخلود.

إن "رحلة الميلاد" هذه لا تبدأ بالنقش الأول المنظم، بل بالرغبة الأولى في ترك الأثر. في "كهف السباحين" و"كهف الوحوش" بالجلف الكبير، نلمس جذور هذا الوعي البكر. فالرسوم هناك ليست خيالاً من وحي الأساطير، بل لقطات من حياة كانت يوماً نابضة: رجال يسبحون في بحيرات جفّت، وحيوانات ترعى في مروج ابتلعتها الرمال.

لقد كان الرسم "فعلاً" يسبق "الاسم"، وكان التعبير يسبق التدوين.

كان الإنسان يرى... قبل أن يُسمي.

إن تلك الأيدي المطبوعة على جدران الصخور لم تكن مجرد زينة، بل كانت "صلاة صامتة" سبقت كل الأبجديات. تلك اليد هي أول "أنا" نطق بها الإنسان المصري قبل أن تولد الحروف؛ صرخةٌ مدوية تخترق الزمان لتخبرنا: "نحن هنا، كنا نحب، ونرقص، ونعاند العدم".

في هذه الكهوف بأقصى جنوب الصحراء الغربية، رسم الإنسان أفعاله قبل أن يعرف كيف يكتب أسماءها. رأينا "السباحة" و"الرقص" و"القنص"؛ وكانت الروح تمارس فنونها قبل أن تجد لها لغة.



كان الحجر هو الشاهد الأول...

والإنسان هو من أجبره على الكلام.

قد يشعر القارئ هنا بفجوة... بين يدٍ على جدار كهف، وبين أول حرف منظم. لكن هذه الفجوة ليست صمتًا... بل مخاض.

وهكذا، من تلك اليد المطبوعة على جدار الكهف، إلى أول كلمة نُطقت بخلق العالم... بدأت رحلة طويلة

لا تقلق، فهذه المسافة سنعبرها معًا في الفصل الثاني، حيث نشهد لحظة الولادة الحقيقية للحرف.

آلهة "منف": حين خُلق العالم بالكلمة:

لعل أعمق ما تركه لنا الأجداد في فهم سر الكلمة هو ما يُعرف بـ "لاهوت منف" او "قلب العقيدة المصرية القديمة". تحكي الأسطورة أن الإله "بتاح" لم يخلق الكون بمطرقة أو إزميل، بل خلقه بـ "الكلمة". فكر بقلبه ونطق بلسانه، فكان الوجود.

هنا لا تصبح الكلمة وصفًا... بل فعلًا. إن "بتاح" الذي ينطق فيخرج العالم، هو صدى بعيد لفكرة أعمق: أن الوجود نفسه قد يكون نتيجة "أمر". كما في قوله تعالى:

"إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ" سورة يس، الآية ٨٢.

وهكذا، لم تكن الهيروغليفية لتروي "ما حدث" فقط... بل لتضمن استمرار ما سيبقى.

وحي السماء: حين تُمنح اللغة:

هل اللغة اختراع... أم هبة؟

إن المتأمل في جذور اللغة يكشف عن مفارقة مذهلة بين النموذج المصري القديم الديانات السماوية: فكلاهما ينسب نشأة اللغة إلى فعل إلهي، لا إلى اجتهاد بشري محض.

في مصر القديمة، اعتقد الآباء الأوائل أن الكتابة الأولى "مدو نتر" لم تكن اختراعًا بشريًا، بل منحة إلهية أودعها فيهم المعبود "تحوت"، الذي وهبهم الحكمة والطب والحساب، ووضع لهم رموز الكتابة المقدسة.

هذا اليقين المصري بأن اللغة "وحْيّ" من السماء، نجد له تجليات كبرى في الكتب المقدسة التي تشكل ضمير البشرية:

ففي القرآن الكريم:

"وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا" سورة البقرة، الآية ٣١.

لحظة تأسيسية حيث مُنح الإنسان "سلطة التسمية" والبيان.

وفي الإنجيل يبدأ الاصحاح الأول بـ:

"فِي الْبَدْءِ كَانَ الْكَلِمَةُ، وَالْكَلِمَةُ كَانَ عِنْدَ اللهِ" إنجيل يوحنا، الإصحاح الأول، الآية ١

حيث الكلمة هي جوهر الوجود وعنوان الحق.

وفي التوراة يتردد الصدى:

"وَقَالَ اللهُ: لِيَكُنْ نُورٌ، فَكَانَ نُورٌ" سفر التكوين، الإصحاح الأول، الآية ٣.

حيث النور نفسه -وهو أصل الرؤية- بدأ بـ "نطق" إلهي.

كأن الإنسانية كلها، رغم اختلاف طرقها، اتفقت على شيء واحد: أن الكلمة لم تولد من الأرض... بل نزلت إليها من السماء.

وحتى أسطورة بتاح في منف، التي تقول إنه خلق العالم بالكلمة، ليست إلا صدى بعيدًا لرسالة قديمة، انحرفت مع الزمن، لكنها ما زالت تحمل أثر ذلك اليقين: أن اللغة وحي إلهي، لا مجرد أداة.

"مدو نتر": حين كان القلمُ وسيطًا بين عالمين:

المصريون القدماء لم يستخدموا مصطلح "هيروغليفى" (هذه كلمة يونانية)، بل أطلقوا على كتابتهم اسم "مدو نتر" وتعني حرفياً: "كلام الإله".



كانوا يعتقدون أن المعبود "تحوت" هو الذي اخترع لهم الحساب والطب والحكمة، وهو الذي وضع الكلمات الهيروغليفية. وكانوا يرسمونه على صورة إنسان له رأس الطائر "أبو منجل"، حاملاً لوحة بيده اليسرى وقلمًا بيده اليمنى، وكانوا يحترمونه ويناجونه قائلين: "تعال إلينا يا تحوت يا كاتب الآلهة العظيمة، ما أجمل صنعتك التي تولد القوة والسعادة". وهذا التصور نجده صدى له في القرآن الكريم:

"الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)" سورة العلق، الاية ٤،٥.

لم يكن "تحوت" في نظرهم "مخترعاً" بالمعنى التقني الحديث، بل كان "الوسيط" أو "السكرتير الإلهي" الذي نقل الحكمة من عالم "المطلق" الصامت إلى عالم "المقيد" المكتوب. وقد اعتبر المصريون الكتابة مظهر من مظاهر النشاط الإلهي الخلاق، واعتقدوا في القوة الخالقة للكلمة وتصوروا أن إطلاق الاسم على شيء بمثابة خلق له.

ومن هنا... وُلد الخوف. فالاسم الذي يمنح الوجود... يمكن أن يُسلب. ومحو الاسم لم يكن نسيانًا... بل إعدامًا.

ريشـة ماعت: حين تُوزن الأرواح بالكلمات:

الهيروغليفية لم تكن مجرد كتابة، بل كانت طقسًا مقدسًا. كل رمز فيها يحمل أكثر من معنى: صوت، فكرة، أو حتى فعل. مثلًا، رمز "الريشة" قد يعني حرف "ش"، لكنه أيضًا يرمز إلى العدالة، لأنه يمثل ريشة الإلهة "ماعت".



في قاعة الحساب، يُوزن قلب الميت أمام ريشة "ماعت". إن كان القلب أثقل، فمصيره العدم. وإن كان أخف أو مساوٍ، فله الخلود. وهنا تظهر القوة الأخلاقية للكلمة؛ فالإنسان يُحاسب على ما "نطق" به وما "أضمره" قلبه.

هذا الميزان الدقيق، الذي يزن "خفة الروح" ونقاءها، نجد صداه في القرآن الكريم بلغة أكثر تجريداً وشمولاً:

"فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ" سورة الزلزلة، الآية ٧.

فالعدل لا يُقاس بالأطنان، بل بـ "المثقال" والذرة والريشة؛ بما لا يُرى بالعين المجردة بل يُحس بالضمير الحي.

خاتمة: من "الروح" إلى "الجسد":

وهكذا، نرى أن الهيروغليفية ولدت "مقدسة" لأنها بدأت من "الأعلى"؛ من عالم الوحي والملأ الأعلى الذي تم تحويله الى اساطير، لتنزل إلى "الأسفل" حيث الحجر المصمت. لكن، كيف تحولت هذه "الروح" الفلسفية إلى "جسد" لغوي؟ كيف انتقلنا من "صراخ الأيدي" إلى "صوت الحروف"؟ هذا ما سنكتشفه في رحلتنا التالية، حيث ننتقل من "المعنى" إلى "المبنى".

إضاءة: حين كانت الصحراء خضراء



قد يتساءل القارئ: كيف رسم أجدادنا "سباحين" في قلب الصحراء القاحلة اليوم؟ وكيف رسموا اكفهم على جدران كهف المستكاوي هناك في اقصى الجنوب الغربي للحدود المصرية؟ وكيف كانت مصر "خضراء" بينما نراها الآن بحراً من الرمال؟

الحقيقة هي أننا نعيش في "فصل جاف" من حكاية كوكبنا. فمنذ حوالي ١١،٠٠٠ عام وحتى ٥،٠٠٠ عام قبل الميلاد، مرت الأرض بما يسميه العلماء "فترة الرطوبة الأفريقية". في ذلك الوقت، لم تكن الصحراء الكبرى "صحراء"، بل كانت مساحات "سافانا" شاسعة، مليئة بالبحيرات العذبة، والمراعي الخضراء، والزرافات، والفيلة، والتماسيح.

كانت الأمطار الموسمية تندفع شمالاً لتروي قلب أفريقيا ومصر، مما جعل "الهضبة الصحراوية" مكاناً مثالياً للحياة. هناك، في تلك البراري المفتوحة، وُلدت بذور الشخصية المصرية الأولى؛ هناك صرخ الإنسان بكلماته الأولى "رانكيمة" - أي بلسان المصري القديم، ورسم يده على الحجر.

متى تحول كل شيء؟

بدأت هذه "الجنة" في الاختفاء تدريجياً حوالي عام ٣٥٠٠ قبل الميلاد، حين مالت زاوية محور الأرض قليلاً، فانسحبت الأمطار شمالاً، وبدأ الجفاف يزحف كوحش صامت. جفت

البحيرات، وماتت المراعي، ولم يبقَ أمام الإنسان إلا خيار واحد: النزوح نحو شريان الحياة الوحيد.. النيل.

هذا النزوح هو ما نسميه "الملاذ النيلي". لقد أجبرت الصحراءَ الزاحفةُ البشرَ على التكتل في الوادي الضيق، مما أدى إلى انفجار حضاري ولغوي واجتماعي. الصحراء لم تكن مجرد "مكان" بلغته القاسية... بل كانت "المعلم الصارم" الذي علّم المصريين درساً واحداً: إما أن تتوحدوا حول النيل... أو تندثروا مع العشب. كانت "المحرك" الذي دفع المصريين لبناء دولتهم المركزية والحفاظ على لسانهم الموحد.

لذا، حين تنظر إلى رمال الصحراء اليوم، تذكر أنها ليست "فراغاً"، بل هي "خزانة" تحتفظ تحت رمالها بقصة مصر الخضراء، وقصة الإنسان الذي رفض أن يندثر مع العشب، فاختار أن يخلد صوته في وادي النيل.

(٢)

جسد الكلمة.. حين ارتدت اللغة أثوابها الأربعة

وبعد أن فهمنا "روح" اللغة كفعل خلق إلهي، حان الوقت لنشهد لحظة تجسدها المادي.

لحظة الميلاد في "أبيدوس".. معجزة البطاقات العاجية:

إن قصة الكتابة لا تبدأ بالرمز الأول، بل بالرغبة الأولى في ترك الأثر.

قبل أن يُنقش "كلام الإله" (مدو نتر) على جدران المعابد، وقبل أن تُسجّل بطاقات أبيدوس أسماء الملوك الأوائل، كان الإنسان قد بدأ بالفعل حواره مع الأبدية.

وبعد أن فهمنا "روح" اللغة كفعل خلق إلهي، حان الوقت لنشهد لحظة تجسدها المادي.



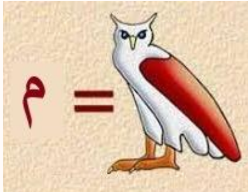
في قلب مقبرة (U-j) بأبيدوس، التي تعود لعصر ما قبل الأسرات حوالي عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد، عُثِرَ على ما يمكن تسميته "الجينوم" الأول للحضارة.

تلك البطاقات العاجية الصغيرة لم تكن مجرد أدوات لتنظيم المخازن أو تسجيل القرابين، بل كانت "نقطة التحول" التي غيرت وجه الأرض. هنا، لم يعد الأثر مجرد صورة... بل بدأ يتحول إلى نظام.

لماذا حدث هذا التطور؟ ولماذا في أبيدوس تحديداً؟

لأنها كانت العاصمة الروحية والسياسية في ذلك الزمن المبكر. ولأن الدولة المصرية الناشئة كانت تحتاج لـ "ذاكرة" لا تنسى. الملك يحتاج لتوثيق ملكيته، والكاهن يحتاج لحفظ طقوسه.

هنا، حدث الانفجار المعرفي: توقفت "البومة" عن كونها طائراً يحلق في السماء، لتصبح صوتاً (م) يسكن في الحلق. لقد فصل المصري القديم في هذه اللحظة بين "العين" و"الأذن"؛ فأصبحنا نرى الصوت ونسمع الصورة.



هنا، فصل الإنسان بين ما يُرى... وما يُسمع. وهنا، وُلدت أخطر فكرة في تاريخ البشرية: أن الرمز يمكن أن يحمل صوتًا.

وهكذا، في صمت تلك المقبرة الملكية، انطلقت أول قُبلة بين المعنى والصوت، ليكون هذا التحول من "صورة دالة" إلى "صوت دال" هو اللبنة الأولى للكتابة الصوتية في التاريخ. هذه البطاقات هي اللحظة التي مُنح فيها الرمز روحاً ناطقة، فتحول من "فن تصويري" إلى "نظام لغوي".

اللغة والخط.. فك الاشتباك الأول.. حين تختلف الملابس عن الجسد:

ولكن قبل أن نتعمق في هذا النظام، يجب أن نزيل الغبار عن الوهم الأكبر؛ فما نسميه "الهيروغليفية" "مدونتر" لم يكن "لغة" المصريين أصلاً، بل كان شيئاً آخر كان الخط، اما اللغة اللسان المنطوق وقواعده فهي (رن كيمة - لسان مصر). فالخط هو الشكل الذي نكتب به هذه اللغة.

هذا التمييز بين "الجوهر" و"الشكل" هو مفتاح فهم كل ما سيأتي. فكما أن الإنسان يبقى هو هو مهما اختلفت ملابسه، كذلك اللغة المصرية ظلت ذاتها رغم تنوع خطوطها.

تخيل أن "رن كيمة" هي الشخص، وأن الخطوط الأربعة هي "الملابس" التي يرتديها هذا الشخص حسب المكان والزمان. والمفاجأة أن المصري القديم لم يكن يفرق بين هذه "الملابس" بالأسماء التي نستخدمها اليوم؛ فأسماء "هيراطيقية" و"ديموطيقية" هي أسماء يونانية أطلقها الغرباء لاحقاً. أما المصريون أنفسهم، فكانوا يطلقون على جميع أشكال الكتابة كلمة "سح" (sḥ) أي "الكتابة" أو "المستند"، وكانوا يرونها وجهاً واحداً يتلون حسب الحاجة: نقشاً على الحجر، أو جراية بالقلم على البردي، أو اختزالاً في الوثائق.

فالهيروغليفية هي "ثوب الزفاف" الملكي والمقدس، بينما الهيراطيقية هي "ملابس العمل" المريحة، والديموطيقية هي "ثياب الشارع" البسيطة، وصولاً إلى القبطية التي كانت "درعاً"

أخيراً يحمي الهوية من التآكل. الشخص واحد (اللغة)، لكن المظهر يتغير (الخط) ليستجيب لضرورات الحياة والزمن المتغير.



ديموطيقي هيراطيقي هيروغليفي

رحلة الخطوط الأربعة: كيف أملت "السرعة" شروطها؟

١. الهيروغليفية: لغة الصور المقدسة:



الكتابة الأولى كانت "مدو نتر"؛ المصري القديم لم يختر حروفًا، بل اختار صوراً من حياته اليومية. لم تكن هذه الكتابة مجرد حروف، بل كانت طقساً مكلفاً يحتاج إلى يد فنان وإزميل نحات ووقت يمتد بامتداد الأبدية. الهيروغليفية كانت تُستخدم في الأمور الرسمية والدينية، بأسلوب فني رائع، لأنها لم تكن مجرد كتابة، بل كانت فناً مقدساً يُخلد على الحجر ليبقى للأبد.

٢. الهيراطيقية: خط اليد السريع:



مع مرور الوقت، احتاج الكهنة والكتبة إلى طريقة أسرع للكتابة على أوراق البردي. لم يكن الإزميل يصلح للورق، فاستبدلوه بـ "القلم" (البوصة) والمداد. هنا ولدت الهيراطيقية؛ وهي "شورت هاند" أو "اختزال الكتابة" أو "خط السرعة" العصر القديم. لقد انحنت الزوايا الحادة للهيروغليفية، وتبسطت الأشكال لتجاري سرعة اليد وهي تدوّن الحكمة والطب والعلوم. لقد كانت "ضرورة الإنجاز" هي المحرك الذي طوّر هذا الخط ليصبح خط العلماء والكتب.

٣. الديموطيقية: خط الشعب:



ثم جاء وقت أراد فيه الجميع أن يكتب: التجار، المحامون، وحتى العشاق. فولد الخط الديموطيقي (الشعبي). هذا الخط هو "لغة النبض اليومي". اختصرت فيه الرموز إلى أقصى حد، حتى لكأن الرسوم "خُليت" من شخوصها وبقي الهيكل فقط؛ لم تعد بومة تُرى، بل أثر لبومة مرّت.

حتى كادت تختفي ملامح الصور الأصلية. لقد انتقلت الكتابة هنا من "المحراب" إلى "السوق"، ومن "هيبة المعبد" إلى "ضجيج الحياة" والمعاملات اليومية.

٤. القبطية: الروح التي استعارت جسداً غريباً:



عندما عصفت رياح التغيير، وظهرت الحاجة لتدوين العقائد الجديدة بوضوح لا يقبل التأويل الصوري، لجأت اللغة المصرية إلى الحروف اليونانية. لم تكن القبطية "خيانة" للماضي، بل كانت "عملية إنقاذ" كبرى. لقد استعارت الروح المصرية (اللسان) استعارت جسداً جديداً (الحروف اليونانية) مع سبعة أحرف من رحم الديموطيقية، تماماً كما يستعير الغريق قارباً أياً كان لونه ليظل حياً"

والقبطية نفسها، التي استمرت كلغة طقسية في الكنيسة المصرية، حافظت على كثير من مفردات "رن كيمة" حتى اليوم

"رن كيمة" الخالدة: شبح يتنفس في حناجرنا:

عبر المصريون عن لغتهم باسم "رن كيمة" أي لسان مصر. ولكن هل مات هذا اللسان فعلاً؟

الحقيقة التي قد تُذهل القارئ: إن هذا اللسان لم يمت، بل تقمص أشكالاً جديدة.

إن المفاجأة الكبرى تكمن في أننا، حين نمزح، أو نغني، أو نهدهد أطفالنا، ما زلنا ننطق بـ "رن كيمة". حين نقول للطفل "مم" (أكل) أو "إمبو" (شرب)، نحن نستدعي جذوراً تعود

لآلاف السنين. حين نقول 'تاتا' لأطفالنا ليخطوا خطوة خطوة أو نصرخ بهم "بخ" لإخافة أحدهم، نحن لا نتحدث "عامية" مشوهة، بل نتنفس لغة الأجداد التي رفضت أن ترحل بتمّامها. حتى كلمات مثل "طوب" (لبنة) و"واحة" هي أصداء لتلك اللغة الخالدة.

اللغة المصرية لم تتبخر، بل "ذابت" في لساننا العربي المعاصر كما يذوب السكر في الشاي؛ لم نعد نراه، لكننا نتذوق حلاوته في كل جملة ننطقها. "لم نعد نرى السكر، لكن كل رشفة تحمل حلاوته؛ ولم نعد نسمع 'رن كيمة'، لكن كل جملة ننطقها تحمل روحها"

بذرة الخوف: حين يصبح الاسم مصيراً:

لكن مع هذه القوة... وُلد القلق. إذا كان الاسم يمنح الوجود... فماذا يحدث إذا مُحي؟

وهنا بدأ الإنسان يفهم: أن الكتابة ليست فقط وسيلة للحفظ... بل أداة للسيطرة. ومن هنا، سيولد لاحقًا طقس "إعدام الاسم" ... حيث يُمحى الإنسان من الوجود بمحو حروفه.

خاتمة: بوابة العبور إلى "بيت الحياة":

وهكذا، ظل هذا اللسان يقاتل من أجل البقاء، متنقلاً من وقار الحجر إلى سيولة البردي، ومن رزانة النقش المقدس إلى رشاقة الخط الشعبي. لقد رأينا كيف ارتدت "رن كيمة" أثوابها الأربعة، وكيف ذابت في كلامنا اليومي لتبقى حية في أنفاسنا حتى اللحظة.

ولكن، هل كانت هذه الخطوط العبقرية لتنبض بالحياة لو تُرِكت صامتة فوق الجدران؟ وهل كان للجسد اللغوي أن يتحرك دون روح تنفخ فيه المعنى؟

إن كل حرف نُقش، وكل بردية وُقعت، كانت وراءها يدٌ لم تعرف الكلل، وعقلٌ صُهر في معامل الحكمة. لذا، قبل أن نودع رحلة الميلاد، علينا أن نقتفي أثر أولئك الذين حملوا الأقلام كأنها صولجانات حكم؛ "سدنة الكلمة" الذين جعلوا من الكتابة ديانة، ومن المداد مقدساً.

من هو الكاتب المصري الذي انحنت له الرؤوس؟ وأين كانت تلك المحاريب السرية التي تُسمى "بيت الحياة" أو "بر-عنخ" حيث تُصنع الأبجدية وتُحفظ أسرار الكون ويُربى الكهنة والكتبة؟ لنترك ضجيج الأسواق، ونسافر عابرين الزمان، لندخل معاً إلى ردهات "بر-عنخ"، لنكتشف من هم الحراس الحقيقيون لبوابة الخلود.

(٣)

سدنة الكلمة.. حرّاس "بيت الحياة" وأمناء الخلود

الكاتب: ظِلُّ "تحوت" على الأرض:

لم تكن الكتابة في مصر القديمة مجرد "مهارة" يُمكن لأي شخص اكتسابها، بل كانت "اصطفاءً" روحياً واجتماعياً. الكاتب (سِش) لم يكن موظفاً يدوّن الأرقام، بل كان يحمل رتبة "سادن الكلمة".



إن وضعية "الكاتب الجالس" التي خلدتها التماثيل المصرية المنتشرة في المتاحف العالمية، ليست مجرد جلسة مريحة، بل هي حالة من "الإنصات الكوني". يتربع الكاتب، يفرِد بردية على حجره، ويمسك بقلمه كأنه يستقبل وحياً. إنه الجسر الذي يربط بين عالم الآلهة الصامت وعالم البشر الناطق، والحارس الأمين للذاكرة.

في "تعاليم خيتي الشهيرة، والتي عُرفت في أدبياتنا الحديثة بـ " (بردية مدح الكتابة) أو "هجاء الحرف"، نجد نصاً يقطر حكمة، حيث ينصح الأب ابنه قائلاً في لهجةٍ شديدة التأثير:

"ليتك تحب الكتابة أكثر من حبك لأمك، ليتني أستطيع أن أريك جمالها".

لماذا؟ لأن الكاتب هو الوحيد الذي نجا من تقلبات الزمن. فبينما تنهار القصور وتندثر قبور الملوك، تبقى "الكتب" هي الأضرحة الحقيقية التي تحمل أسماء أصحابها للأبد. الكاتب المصري كان يؤمن أن "الحبر أبقى من الحجر"، وأن القلم هو المشرط الذي يفتت صخر النسيان ويحفر الاسم في جدار الأبدية.

ولم يكن كل الكتبة كهنة، لكن الكاتب في مصر القديمة كان يحمل هالة من القداسة قريبة من هالة الكاهن، لأنه يحمل 'أسرار الكلمة' التي تمنح الخلود.

المدرسة "عت-سبا": مشقة الولادة المعرفية:

الكتابة ولدت من رحم المعاناة والصبر. ففي المدارس الملحقة بالمعابد، والتي عُرفت باسم "عت-سبا" (مكان العلم أو مدرسة التعليم)، كان الصبية يبدؤون رحلة شاقة لترويض الحروف والرموز.



في سن يقترب من الثامنة أو العاشرة، كان الطفل المصري من أبناء النخبة يُقاد إلى أبواب المدرسة، لا إلى الحقول. هناك، في ظل المعابد، حيث الكهنة يعلّمون ويشرفون، يبدأ رحلة مختلفة عن أقرانه أبناء الفلاحين والحرفيين الذين حملوا أدوات الزراعة والصناعة منذ الصغر.

المدرسة لم تكن مفتوحة للجميع؛ إنها امتياز أبناء المسؤولين والكهنة والكتّاب. على ألواح خشبية صغيرة يتعلم الصغار رسم العلامات الأولى، ثم ينتقلون إلى أوراق البردي حين يشتد عودهم. يتدرّبون على الحساب والكتابة، ويطلّون على أسرار الفلك والطب، ويلقَّنون دروسًا في الأخلاق والانضباط، وكأنهم يُصاغون ليكونوا امتدادًا لآبائهم.

ابن الكاتب يصبح كاتبًا، وابن المسؤول يصبح مسؤولًا، وكأن التعليم لم يكن طريقًا لتغيير المصير، بل وسيلة لإعادة إنتاج المجتمع كما هو. أما أبناء الفقراء، فقد ظلوا بعيدين عن هذا العالم، يشاركون آباءهم في كدح الأرض وصناعة اليد، دون أن يعرفوا أسرار الحروف المقدسة.

لم يكن تعلّم الهيروغليفية نزهة عقلية، بل كان "انضباطاً" يقترب من قدسية الجندية. كان التلميذ يتعلم أن "أذن الصبي في ظهره"، إشارةً إلى أن المعرفة تأتي بالسمع والطاعة والتدريب المتواصل الذي قد يستلزم التأديب أحياناً. كان عليه أن يحفظ آلاف العلامات، ويميز بين صوت البومة وصوت الموجة، ويدرك متى يكون الصقر "حرفاً" ومتى يكون "إلهاً".

هذا التعب لم يكن عبثاً، بل كان "عبوراً"؛ فمن يجتاز هذه المدرسة، يخرج منها سيداً لمصيره، معفياً من العمل اليدوي الشاق، ليصبح "عقلاً" للأمة، ولساناً يعبر عن إرادة الملك والآلهة.

بيت الحياة "بر-عنخ": القلب النابض والأسرار المحرمة:

إذا كانت المعابد هي أجساد الآلهة على الأرض، فإن "بر-عنخ" (بيت الحياة) كان هو "الروح" التي تحرك هذا الجسد.



لم يكن "بيت الحياة" مجرد مكتبة لنسخ البرديات، بل كان "ناسا" العصر القديم؛ مركزاً للأبحاث، وجامعةً للعلوم، ومعملاً سرياً للحكمة. هنا، كان الكهنة والعلماء يراقبون النجوم لضبط التقويم، ويدرسون الأعشاب لعلاج الأجساد، ويصيغون التعاويذ التي تضمن عبور الروح إلى الآخرة. وقد كشفت نصوص معبد إدفو عن قوائم طويلة للكتب المقدسة التي كانت تُحفظ في هذا المكان، لتؤكد دوره كحصن للمعرفة.

في هذا المكان، كان يُعاد إنتاج "الحياة" في كل مرة يُكتب فيها نص جديد. "بيت الحياة" هو الذي حفظ لمصر هويتها عبر آلاف السنين؛ فمهما تغير الملوك أو غزا الأعداء، كان هذا

البيت يظل الحصن الذي يحرس "الذاكرة المصرية" من التبدد. إنه المكان الذي تُصنع فيه "القداسة" قبل أن تُنقش على جدران المعابد في إدفو ودندرة وغيرها.

حين تحول الحرف إلى "لغز".. لغة الكهنة السرية:

في العصور المتأخرة، حين بدأت الضغوط الخارجية تزداد على مصر، لجأ الكهنة إلى نوع من "التشفير" المقدس.

لم تعد الهيروغليفية مجرد كتابة، بل تحولت إلى "لغز سحري". في معابد مثل "إدفو" و "إسنا"، نجد نصوصاً كُتبت بطريقة لا يفهمها إلا الراسخون في العلم من الكهنة المتخصصين. لقد جعل الكهنة من اللغة "درعاً" يحمي الأسرار من الغرباء.

أصبحت الحروف أيقونات قادرة على استدعاء القوى الخفية؛ فالحرف لم يعد يصوّر الشيء فحسب، بل صار "هو" الشيء ذاته. لذا، كان الكاتب أحياناً يرسم الثعبان أو الأسد ناقصاً أو مطعوناً بسكين، حتى لا يؤذي المتوفى في قبره وتنهش روحه. الكلمة هنا هي "الطاقة" التي تحرك الكون، والكهنة هم المهندسون الذين يتحكمون في هذه الطاقة عبر أقلامهم ورسوماتهم.

"الرن".. حين يكون الاسمُ هو الروح:

ختام رحلة الميلاد يتجلى في فلسفة المصري القديم، لم يكن الاسم مجرد علامة للتعريف، بل كان جوهر الكيان، روحًا ثانية تسكن الإنسان. فالإنسان يتكوّن من عناصر متعددة: الجسد، والروح، والظل، و "الكا" و"البا"، لكن "الرن" ـ الاسم ـ هو المفتاح الذي يضمن له البقاء في الآخرة. لكن 'الرن' - الاسم - كان المفتاح الذي يضمن له البقاء في الآخرة.

بدون اسم، لا وجود. ومن هنا، كانت الكتابة أسمى من مجرد تسجيل أو ذكرى؛ إنها فعل خلاص، "صك غفران" وتذكرة عبور إلى الأبدية. حين ينقش الكاتب اسم شخص على جدار مقبرته، فإنه يمنحه حياة ثانية، حياة تتجدد كلما نطق أحدهم بذلك الاسم، فتعود الروح لتأكل وتشرب وتتنفس من جديد.

لهذا، كان محو الاسم أخطر من الموت نفسه؛ إنه إعدام أبدي، محو للروح من سجل الكون. أما تخليد الاسم فهو ضمانة أن يظل الإنسان حاضرًا في ذاكرة العالم، وأن يظل صوته يتردد في أفق الأبدية.

الكلمة هنا ليست مجرد صوت، بل طاقة تحفظ الوجود، والاسم هو البذرة التي تنبت منها الحياة الثانية. هكذا، يصبح "الرن" أكثر من حروف؛ إنه الروح التي لا تموت ما دام هناك من ينطق بها..

الخوف من الاسم: عقوبة النسيان.. حين تتحول الكتابة إلى سلاح:

وهنا، لم تعد الكتابة بريئة. لم تعد مجرد وسيلة تخليد... بل أصبحت أداة حكم.

ومن هنا، نفهم الرعب المصري من "محو الاسم"؛ فإسقاط اسم ملك من القوائم الملكية، أو كشط اسم شخص من لوحة جنائزية، كان يعني "قتله مرتين" وإبادته من الوجود تماماً. الكتابة إذن هي "واهبة الخلود"، والكاتب هو القاضي الذي يقرر من سيعيش للأبد ومن سيطويه النسيان إلى الأبد.

ولعل التاريخ يحكي لنا قصصاً تقشعر لها الأبدان عن هذا "الإعدام المعنوي". تأمل ما حدث للملكة "حتشبسوت"؛ تلك المرأة القوية التي حكمت مصر كملك لا يُشق له غبار. بعد رحيلها، صدرت الأوامر لجيش من الكتبة والمثالين بالهجوم على ذكراها. في معبدها بالدير البحري وفي الكرنك، تتبعوا اسمها "خرطوشاً بخرطوش"، ووجهها "ملامح بملامح"، وكشطوها من فوق الحجر. لم يكن هذا انتقاماً سياسياً فحسب، بل كان محاولة لحرمان روحها من "العودة"؛ فإذا ضاع الاسم والملامح، تاهت الروح في ظلمات العدم ولم تجد طريقها.

ولم يكن "أخناتون" -الملك المارق- بأوفر حظاً؛ فقد ذهب الكتبةُ في عهد "سيتي الأول" إلى أبعد من الكشط، فقاموا بـ "نفيِه" من الزمان تماماً. في "قائمة ملوك أبيدوس"، ستجد أن القلم قد قفز فوق عهده وكأنه ثقب أسود في التاريخ لا وجود له. لم يُذكر اسمه، ولم يُعترف بوجوده، فصار "المسخ" الذي أراد الكتبة دفن سِرّه تحت رمال النسيان.

لكن حتشبسوت واخناتون لم يكونا وحدهما. فالتاريخ المصري يروي قصصًا أخرى عن هذا الرعب من النسيان. الملكة سوبك نفرو، أول امرأة جلست على عرش مصر كفرعون، أهملت أسماؤها عمدًا في بعض القوائم الملكية، وكأن حضورها السياسي والديني أريد له

أن يُمحى. والملك سيتي الثاني، في صراع على العرش، تعرضت نقوشه للتشويه والإزالة، ليَطمس أثره من بعض المواقع. أما توت عنخ آمون، فقد حُذف اسمه من قوائم الملوك الرسمية في عهد خلفائه، عقاباً على ارتباطه بإصلاحات أخناتون الدينية، قبل أن يُعاد الاعتبار له لاحقًا. وكأنه لم يكن. ولكن... ما لا يعرفه أولئك الكتبة أن النسيان نفسه سينَسى، وأن التاريخ سينَصف من ظُلموا، وأن الأسماء المحذوفة ستعود لتُنطق من جديد."

حتى الأعداء لم يسلموا؛ ففي النصوص الجنائزية، كان الكهنة يتعمدون محو أو تشويه أسماء خصوم الملك، لضمان موتهم الأبدي في العالم الآخر.

إن اليد التي كانت تمحو، هي نفس اليد التي كانت تمنح الخلود. الكاتب هنا ليس مجرد "ناقل"، بل هو "حارس بوابة السماء". هو من يقرر من يستحق أن يحمله الحجر إلى الأبد، ومن يجب أن يُسحق تحت وطأة الصمت.

لكن... مهما بلغت عبقرية هؤلاء الكتبة، ومهما أوغلوا في فنون "الإعدام المعنوي"، فإنهم كانوا يجهلون حقيقة مُرعبة: أن التاريخ لا يُخدع، وأن النسيان نفسه يُنسى.

إن الذين حاولوا محو "حتشبسوت" لم يدركوا أن الأثر الذي يُمحى من الحجر قد يبقى محفوراً في طبقات الأرض، وأن القبر الذي يخفيه قد يُكتشف بعد آلاف السنين. أما "أخناتون" الذي قفزوا فوق عهده، فها نحن اليوم ندرس فترة حكمه أكثر من أي عصر آخر.

هل كانت عقيدتهم خاطئة؟ أم كانوا هم أنفسهم ضحايا وهمهم؟ المصري القديم آمن أن "الاسم هو الروح"، وآمن أن "الحبر أبقى من الحجر". لكنه لم يدرك أن الحفريات أقوى من الحبر، وأن التربة تحفظ ما ينحته الناس.

وهكذا، تنتهي "رحلة الميلاد" بمفارقة عظيمة: الكتابة التي خُلقت لتهزم الموت، هُزمت هي نفسها... لا بالموت، بل بالحياة المستمرة التي ترفض أن تنسى."

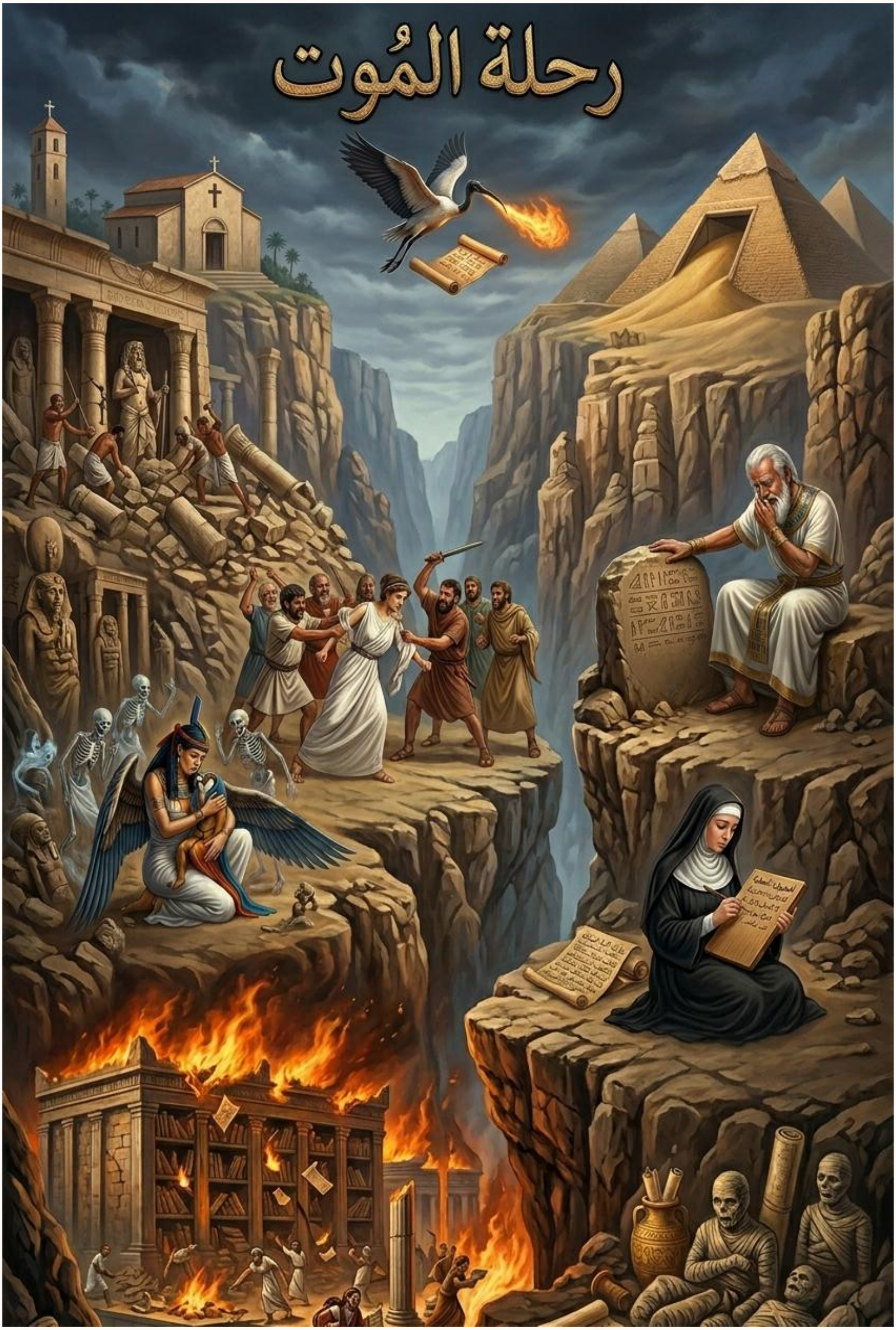
خاتمة الرحلة الأولى: اكتمال الميلاد:

بهذا، تكتمل رحلة الميلاد. لقد رأينا كيف بدأت "الهيروغليفية" صرخةً في كهف، ثم أصبحت "كلاماً للإله"، ثم تحولت إلى "جسد لغوي" معقد، حتى استقرت في "بيوت الحياة" كمؤسسة تحرس عقل مصر.

لقد ولد اللسان المصري قوياً، مقدساً، ومحصناً بجيش من الكتبة والكهنة. ولكن، دوام الحال من المحال؛ فكل ميلاد يحمل في طياته بذور نهايته، والهيروغليفية لم تكن استثناءً. فكيف صمت هذا اللسان العظيم؟ وكيف أُغلقت "بيوت الحياة"؟ وكيف تاه المفتاح لقرون طويلة حتى ظن العالم أن "كلام الإله" قد مات للأبد ولن يبعث؟

استعدوا.. فنحن الآن على أعتاب "رحلة الموت"؛ رحلة الصمت الطويل وضياع السر، حيث ينام الحرف وينام معه العالم... ويصمت الحجر بعد أن نطق آلاف السنين.

رحلة الموت



(٤)

موت مدو نتر... نهاية النقش المقدس

حين يصمت الحجر:

ثمة لحظات في التاريخ لا يسمعها أحد حين تقع. لا صوت انهيار، ولا صرخة وداع، ولا جنازة تليق بالرحيل. تمرّ كما يمرّ النفَس الأخير لشيخٍ ينام ولا يستيقظ - بهدوء مُرعب، وبلا شهود.

في الرابع والعشرين من أغسطس عام ٣٩٤ ميلادية، كان كاهن مصري يُدعى إسمت-آخوم يحفر في الحجر. كانت يداه تعرفان ما تفعلان؛ يدا رجل تعلّم من أبيه، وتعلّم أبوه من جدّه، في سلسلة معرفة تمتد إلى ما قبل أن يُبنى الكولوسيوم الروماني، وقبل أن تُصاغ أولى أبيات الإلياذة، وقبل أن تؤسّس أثينا نفسها. كان يحفر على أحد أعمدة معبد فيلة، في أقصى جنوب مصر، حيث النيل يبدو أكثر هدوءاً وأعمق سراً.

كان كاهنًا مصريًا، يحفر في الحجر كآلاف الكهنة قبله، لم يكن يعلم - ولا يمكن لأحد أن يعلم في تلك اللحظة - أنه يحفر الجملة الأخيرة.

آخر جملة هيروغليفية معروفة في التاريخ.

بعدها، صمت الحجر المصري عن خطه الذي نُقِشَ به أكثر من ثلاثة آلاف وخمسمائة عام.

يقول النقش، بعد أن أُعيد فكّ رموزه بعد قرون طويلة من الصمت: إن الكاهن إسمت-آخوم نقشه في عيد ميلاد الإله وزير، وأنه يتمنى أن يبقى هذا النقش إلى الأبد.

يا للمفارقة القاسية. رجل يحفر رغبته في الخلود، وهو يقف - دون أن يدري - على حافة انقراض. كاهن يريد أن يُخلّد اسمه إلى الأبد، وبقلمه هو يُسدل الستار على خط حضارة بأكملها.

والأغرب من ذلك أن نقشه نجا فعلاً. ليس لأن أحداً حرص عليه، بل لأن أحداً لم يهتم بمحوه. بقي الحجر صامداً، لكن اللغة التي نُقش بها تلاشت كالدخان، وظل الرمز المقدس مرسوماً على الجدران كرجل يمشي في شوارع مدينة لا أحد فيها يراه.



والمفارقة الاعجب ان الحجر نفسه كان يشهد جنازة وولادة في آن واحد؛ خطٌ يلفظ أنفاسه الأخيرة، وخطٌ آخر يفتح عينيه للمرة الأولى. بجوار الكلمات التي حفرها إسمت-آخوم بالهيروغليفية، ظهرت نقوش قبطية متواضعة، كأنها همس جديد يتسلل إلى جدارٍ أنهكته القرون. هناك، على سطح واحد، اجتمع موت وبعث: لغة الآلهة القديمة تنطفئ، ولغة الإيمان الجديد تشتعل. المفارقة قاسية وعميقة؛ رجل يكتب آخر جملة بلغةِ عاشت آلاف السنين، بينما بجواره تُخط أولى صلوات لغة ستبقى حيّة. بدا المشهد كأنه عبور بين عالمين، حيث الرمز المقدس يمشي وحيدًا في مدينة بلا شهود، فيما الخط الوليد يعلن بداية زمن آخر.

قبل الصمت: كيف تتحول لغة إلى طلسم؟

المشكلة لم تكن يوماً في الكتابة. المشكلة كانت دائماً في القراءة.

كتب المصريون القدماء بغزارة لا تُصدَّق؛ على جدران المعابد والمقابر، على الأعمدة والمسلات، على البردي والفخار والكتان. كتبوا أسماء ملوكهم، ومراسيم قضاتهم، وأسرار كهنتهم، وقصائد عاشقيهم. كتبوا وصفة للخبز، وطريقة لحساب مساحة الحقل، وتعويذة لتجنّب عضة الأفعى. كتبوا وصية الأب لابنه، ورسالة الجندي لأمه من أرض المعركة.

لكن كل هذا الكلام صار صامتاً، لا لأنه لم يُكتب، بل لأن الخط الذي كُتب به مات قبل أن يأتي من يقرأه. وحين ماتت الخط تعثرت اللغة، لم يصمت فقط النصّ، بل صمتت الذاكرة كلها، وتحوّل كل ذلك الصخب الحضاري الهائل إلى طلاسم لا تُقرأ، يقف أمامها الإنسان حائراً، فيملأ الفراغ بما يريد أن يرى.

وهنا بالضبط تبدأ القصة الحقيقية.

لأن ما حدث بعد صمت مدونتر لم يكن مجرد نسيان هادئ. بل كان شيئاً أشد غرابة وأعمق دلالة: كانت حضارة أخرى تنظر إلى تلك الرموز الصامتة، وتبدأ في اختراع تفسيرات

لها. وهذه التفسيرات لم تكن تُخبرنا شيئاً عن مصر، بل كانت تُخبرنا كل شيء عن الغرب الأوروبي نفسه - عن خوفه، وحلمه، وشغفه، وضياعه.

الفراغ الذي وُلد فيه الوهم: المحرك الهرمسي





حين يعجز العقل عن القراءة، يبدأ في التأويل.

وحين يبدأ في التأويل، فإنه لا يرى ما أمامه، بل يرى ما بداخله.

هذا ما حدث تماماً مع الهيروغليفية في أوروبا. فقد تحوّلت من نظام كتابة دقيق له قواعد صوتية ونحوية، إلى لغز بصري كبير تُسقط عليه كل أمة ما تشاء. لم تعد النقوش المصرية تُقرأ، بل صارت تُرى، وما يُرى يتشكّل وفق عيون من ينظر.

والذي شكّل تلك العيون الأوروبية كان فكرة مبهرة وعميقة الجذور، تُعرف بـ " الهرمسية".

مع أفول العصور الوسطى وبزوغ فجر عصر النهضة، انتشر في أوروبا هوسٌ روحي عجيب: البحث عن "اللاهوت الأزلي"، عقيدة راسخة مفادها أن الله قد أودع في فجر التاريخ حكمةً سرية واحدة، أصلاً مشتركاً استقى منه أفلاطون وموسى والفلاسفة جميعاً. حكمة أقدم من الأديان، وأعمق من الفلسفة، مدفونة في مكان ما في شقوق الزمن الأول.

وأين كان ذلك الفجر؟ في مصر.

ومن كان حكيمها الأول؟ "هرمس الهرامسة"، ذلك الاسم اليوناني للإله المصري "تحوت"، إله الكتابة والمعرفة والسحر.

في منتصف القرن الخامس عشر، وصلت إلى فلورنسا مجموعة من النصوص الغامضة تُعرف بـ " المتن الهرمسي" - مجموعة نصوص فلسفية-دينية منسوبة لهرمس. استقبلها مفكرو عصر النهضة كما يستقبل المؤمن الجائع منذ سنين وجبته الأولى. آمنوا بأنهم يُمسكون بأيديهم أقدم فلسفة عرفتها البشرية، الصوت الأصلي لله قبل أن تشوّهه الأديان المتأخرة وتُقيّده المذاهب.

لاحقاً، بعد قرون، اكتشف الباحثون أن هذه النصوص كُتبت في مصر الرومانية، بعد المسيح بقرون. لم تكن أقدم الحكمة، بل كانت واحدة من أحدثها. لكن ذلك الاكتشاف جاء متأخراً، بعد أن كانت الهرمسية قد زرعت بذرتها في أعماق الخيال الأوروبي.

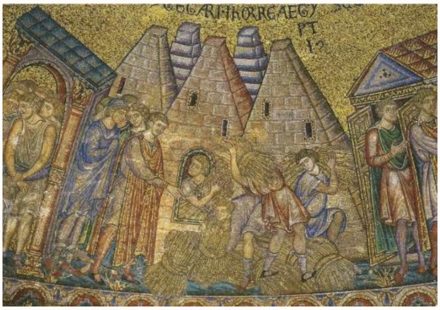
وكانت تلك البذرة تحمل استنتاجاً واحداً لا مفر منه: إذا كانت مصر مصدر هذه الحكمة السرية، فلا بد أن الهيروغليفية هي اللغة التي كُتبت بها تلك الأسرار. لم تعد الهيروغليفية في الخيال الأوروبي أبجديةً تُسجّل بها ضرائب أو أسماء ملوك، بل صارت "رموزاً كونية" لا صوتية، كل علامة منها تخفي سراً فلسفياً عن الخلق والروح والكون.

بهذا، لم يكتشف الغرب مصر الحقيقية. بل اخترع مصر أخرى ليملأ بها فراغاً في روحه.

ثلاثة فلاتر رأى من خلالها الغرب مصر:

الإنسان لا يرى العالم كما هو. يراه كما هو مُعَدٌّ أن يراه - عبر عدسات ثقافته، وهواجسه، وأحلامه. وحين نظر الغرب الأوروبي إلى مصر خلال قرون الصمت الطويلة، نظر إليها عبر ثلاثة فلاتر كبرى شكّلت تلك الصورة الخيالية التي نعرفها حتى وقت قريب.

الفلتر الأول: الأهرامات كصوامع يوسف:



في خريف عام ٢٠١٥، وقف السياسي الأمريكي بن كارسون أمام كاميرات التلفزيون ليَعلن بثقة شخص يتحدث عن حقيقة راسخة: الأهرامات المصرية لم تُبنَ لتكون مقابر، بل كانت صوامع حبوب أقامها النبي يوسف استعداداً لسنوات المجاعة السبع.

استقبل العالمُ التصريحَ بموجة من السخرية. لكن ما أغفله الساخرون أن كارسون لم يخترع هذه الفكرة من عنده. كان يرث، دون أن يعلم، تراثاً وهمياً عمره خمسة عشر قرناً.

في القرن الخامس الميلادي، حين كانت الهيروغليفية قد صمتت لقرن كامل، وكان الأوروبيون يتطلعون إلى مصر من بعيد بلا مفتاح للفهم، ظهر مخطوط يُصوّر الأهرامات ببوّاباتٍ في قممها تُصبّ منها الحبوب، ونسبها إلى صوامع يوسف في القصة التوراتية. الصورة انتقلت إلى فسيفساء كاتدرائية القديس مرقس في البندقية في القرن الثالث عشر، فصارت

الأهرامات - في عيون من يدخل ذلك المعبد المهيب - حقيقةً دينية مُجسّدة في الحجارة الملوّنة.

الكاتب الروماني يوليوس هونوريوس وصفها "مخازن يوسف"، والمؤرخ جريجوري التوري رسم صورتها في مخيلته ولم يرها قط: "مبانٍ حجرية عريضة عند القاعدة وضيقة عند القمة". والرحّالة جون ماندفيل في القرن الرابع عشر أكد باطمئنان أن "كل الناس هناك يقولون إنها مخازن يوسف". حتى في العالم الإسلامي، نقل الإدريسي القصة عن مصادر مسيحية، ووجدت طريقها إلى كتب لا تُحصى.

كان على من يريد كسر هذه الأسطورة أن يقف أمام الأهرامات بعينين مفتوحتين. وهذا ما فعله رجل الدين الكاثوليكي برنهارد فون برايدنباخ عام ١٤٨٤، حين كتب ببساطة شديدة: رأيت الأهرامات، ورأيت أنها ليست مجوّفة من الداخل. لا توجد صوامع حبوب. ثم جاء البروفيسور جون جريفز عام ١٦٤٦ ليقول ما هو أوضح: الأهرامات كتلة حجرية صلبة، لا تصلح لتخزين شيء.

لكن الحقيقة لن تُقنع من لم يُرِد الاقتناع. ففي عام ١٨٩٥، نشرت السيدة جين فان جيلدر كتاباً يُحيي النظرية من جديد "لدعم حقيقة الكتاب المقدس". وفي عام ٢٠١٥، كررها بن كارسون أمام الكاميرات.

الأسطورة لا تموت. تنام فقط، وتنتظر من يوقظها.

ما الذي يُخبرنا به هذا؟ أن الأهرامات لم تكن يوماً مجرد أبنية. كانت شاشة عرض عملاقة يُسقط عليها كل عصر قلقه الديني وحاجته للتأكيد. السؤال لم يكن أبداً "ماذا قصد بانوها؟" بل كان دائماً "كيف يمكن أن أجعلها تقول ما أريده أن يقال؟"

الفلتر الثاني: المومياوات كإكسير للحياة:



هذه القصة أشد غرابة، وأكثر إثارة للدهشة - ليس لما فيها من عجب، بل لما تكشفه عن العقل البشري حين يشتدّ به اليأس.

تخيّل أنك تعيش في أوروبا في القرن الثالث عشر. جسدك يؤلمك، والطبيب عاجز، والعلم شحيح. ثم يصلك خبر: ثمة دواء عجيب من

أرض مصر، فيه شفاء لما تشكو منه. هذا الدواء كان يُعرف بـودرة " المومياء".

كيف نشأت هذه الفكرة المُدهشة القائلة بأن مسحوق الجثث المصرية القديمة دواء؟ القصة تبدأ بمعدن حقيقي: البيتومين، نوع من الأسفلت الطبيعي يتشكّل في بقاع قليلة من الأرض. عرف الإغريق والأطباء العرب خصائصه العلاجية، وأشادوا به لعلاج الجروح والكسور وقرحة المعدة. ومع الحروب الصليبية، نقل الجنود الأوروبيون هذه المعرفة معهم إلى بلادهم.

المشكلة أن البيتومين نادر. فبدأ الناس يبحثون عن بدائل.

وعُرف أن المصريين القدماء استخدموا البيتومين في تحنيط موتاهم. فوُلدت الفكرة: ربما يمكن استخراجه من الجثث القديمة!

ثم أخطأ مترجمون في فهم النصوص العربية، فظنّوا أن كلمة مومياء لا تعني مادةً معدنية علاجية، بل تعني الجثة المحنطة ذاتها. واكتملت الدائرة: صارت الجثث المصرية القديمة دواءَ.

انطلقت تجارة ضخمة دامت من القرن الثاني عشر حتى القرن الثامن عشر. الأطباء وصفوا مسحوق المومياء لعلاج الجروح والكدمات والسقوط والصرع والسعال والهستيريا. فرانسيس بيكون، ذلك العقل العلمي الكبير، صرّح بأن "للمومياء قوة كبيرة في إيقاف النزيف". وروبرت بويل، "أبو الكيمياء الحديثة"، أكد أنها "من أنفع الأدوية" لعلاج السقوط والكدمات. وكان الملك الفرنسي فرانسوا الأول يحمل معه في كل مكان كيساً يحتوي على مزيج من المومياء والراوند المطحون، خشية ألا يجده حين يحتاج إليه.

حين شحّ المعروض من المومياوات الحقيقية، لجأ التجار إلى جثث حديثة. وحين اكتُشف الاحتيال، لم يتوقف الطلب، بل استمر الطلب والاحتيال معاً.

والأعجب من ذلك كله أن الفنانين في القرن السابع عشر اكتشفوا أن مسحوق المومياء، حين يُمزج بالزيت، يُعطي لوناً بنياً دافئاً جميلاً. فأضافوه إلى ألوانهم، وسمّوه "بني المومياء". وهكذا انتهت بعض الجثث المصرية القديمة - التي ماتت في زمن فرعوني بعيد، وحُنِّطت وفق طقوس إلهية عريقة، وأودعت القبور لتنتظر البعث - لا في متحف يُعرضها باحترام، بل ممزوجةً في أصباغ لوحات أوروبية معلّقة على جدران القصور والكنائس.

ما تكشفه هذه القصة أكثر مما يبدو على سطحها. فالمومياء لم تُعامل كأثر إنساني أو رمز ديني، بل كـ " مورد طبيعي" يُستنزف. الجثة البشرية - التي كرّس صاحبها حياته لصون جسده من أجل البعث - تحوّلت إلى مادة خام في خدمة حاجات سوق أجنبي. الحضارة اختُزلت في منتج. والرمز صار أداةً لم تكن أبداً جزءاً من السردية التي أنتجته.

والامر يتعدى الاستخفاف بقدسية الموتى، لأنه كارثة ثقافية بكل المقاييس. فكل مومياء كانت تحمل في جسدها المحنّط أسرارًا عن الطب القديم، وأصول البشر، وطقوس الحضارة. حين طُحنت في الأسواق أو صُبغت بها اللوحات، ضاعت معها صفحات كاملة من كتاب التاريخ الإنساني. لم يكن الأمر مجرد عدم تقدير، بل كان استنزافًا لذاكرة حضارة، وإعداماً لمصادر معرفة كان يمكن أن تغيّر فهمنا للعالم القديم.

الفلتر الثالث: إيزيس والهوس المصري:



لكن أشد هذه الفلاتر تأثيراً وأطولها عمراً لم يكن أسطورة صوامع يوسف، ولا تجارة المومياوات. كان شيئاً أكثر لطفاً في صورته، وأعمق في تأثيره: الهوس بإيزيس.

انتشرت عبادة الإلهة المصرية إيزيس في كل أرجاء الإمبراطورية الرومانية كما ينتشر الماء في التربة الجافة؛ بطيئاً، وعميقاً، وبلا عودة. في بومبي، التي حفظها الرماد البركاني كلقطة مجمدة من الزمن، نجد في بيوت المواطنين العاديين تماثيل لإيزيس كانت جزءاً من عبادة منزلية خاصة. لم تكن العبادة المصرية طقساً حكومياً رسمياً فحسب، بل اخترقت الحياة اليومية للناس العاديين، وتربّعت في أركان بيوتهم.

والأمر يصل إلى ما هو أبعد وأغرب. فثمة من يرى أن اسم "باريس" نفسه قد يكون مشتقاً من العبارة اللاتينية "quasi par Isis"، أي "كأنها إيزيس"، في إشارة إلى معبد إيزيس الذي ربما كان يقف حيث تقوم كاتدرائية نوتردام اليوم. والحفريات الأثرية تحت ساحة الكاتدرائية كشفت بالفعل عن بقايا مذبح روماني مخصص لإيزيس. هل يعني هذا أن المسيحية الأوروبية بنت كنائسها فوق معابد المصرية القديمة؟ يبدو أن الأمر كذلك، في أكثر من موضع.

سمّى المؤرخ جان مابويون هذه الظاهرة بـ " الإيجبتومانيا" - الهوس المصري الذي اخترق المخيلة الأوروبية وأعاد تشكيل هويات مدنها ورموزها دون أن يدري أحد.

ذروة الوهم: الهراء المبهر:

كل هذا التأويل كان يحتاج إلى "دليل علمي" يمنحه شرعيته. ووجده في نص يوناني غامض من القرن الرابع أو الخامس الميلادي، يُنسب إلى كاتب يُدعى "هور أبوللون"، يصف فيه كيفية قراءة الرموز الهيروغليفية.

كتب هور أبوللون أن الهيروغليفية ليست أصواتاً، بل صوراً فلسفية: "يرسمون الأوزة ليرمزوا إلى الابن، لأن الأوزة تحب صغارها بجنون". كل رمز يعني فكرة كونية، لا صوتاً لغوياً. وهذا بالضبط ما أراد الهرمسيون سماعه؛ كان هور أبوللون يؤكد لهم أن الهيروغليفية "فلسفة مرسومة" لا كتابة عادية.

وفي القرن السابع عشر، بلغ هذا الوهم ذروته المطلقة في شخص مبهر بكل المقاييس: الكاهن اليسوعي الألماني أثناسيوس كيرشر، أحد أعظم عقول عصره وأكثرها موسوعية. كان هذا الرجل يتقن اثنتي عشرة لغة، وكتب في الفيزياء والطب والموسيقى والفلك والجيولوجيا. لو أن شخصاً كان قادراً على فكّ رموز الهيروغليفية في ذلك العصر، فهو كيرشر.

لكنه لم يفعل.

في كتابه الضخم "أوديب المصري"، لم يحاول كيرشر ترجمة اللغة. حاول استخراج الحكمة منها. كان مؤمناً بكل صدق أن كل رمز هيروغليفي يخفي حكمة فلسفية كاملة، وأن مهمته هي استخلاص تلك الحكمة لا فكّ أصواتها.

جملة بسيطة تُعرف الآن بأنها مجرد اسم ملك - "أبريس" - ترجمها كيرشر إلى فقرة فلسفية عميقة تتحدث عن "تدفق الرطوبة الإلهية من السماء وفيضانها على الأرض المادية لتخصيبها بالقوى الإلهية الكامنة فيها".

كان هراءً. لكنه كان هراءً مبهراً.

وبسبب سلطة كيرشر الهائلة، وثقة الأكاديميات الأوروبية به، أصبحت ترجماته "الحقيقة الرسمية" لأكثر من قرن. وأغلق الباب تماماً أمام أي محاولة لدراسة الهيروغليفية كنظام صوتي. من يجرؤ على مخالفة العقل الأكبر في أوروبا؟

الصوت الذي لم يُسمَع



وفي حين كان "الهراء المبهر" لكيرشر يهيمن على المخيلة الأوروبية، كان يحدث في مكان آخر من العالم شيء مختلف تماماً.

في القرن التاسع والعاشر الميلادي، جلس عالم مسلم يُدعى أبو بكر بن وحشية النبطي أمام النقوش المصرية القديمة، ولم يرَ فيها سحراً ولا أسراراً كونية. رأى فيها لغة. في كتابه "شوق المستهام في معرفة رموز الأقلام"، قدّم أول جدول مقارن معروف للرموز الهيروغليفية، وتعرّف بشكل صحيح على أن بعض هذه الرموز تمثّل أصواتاً لا صوراً فلسفية. أدرك - قبل شامبليون بتسعة قرون - الطابع الصوتي للهيروغليفية.

قبله، كان هناك الصوفي المصري ذو النون المصري في القرن التاسع، الذي قضى حياته في أخميم، أحد مراكز الكهنوت القديم، ويُعتقد أنه كان قادراً على قراءة بعض الرموز مباشرة. لم ينظر إليها كسحر، بل كعلم ضائع.

ولم تكن مصادفة أن المؤرخين المسلمين - كالمسعودي والإدريسي - وصفوا الآثار المصرية بدقة لافتة، لكنهم لم يُحاولوا قط التحوّل بتلك الدقة إلى مشروع لفك الشفرة. كانوا يرون في الآثار "عبرة للمعتبرين"، آياتٍ تُذكّر بزوال الأمم. مصر القرآنية هي أرض فرعون الطاغية وموسى النبي ويوسف الصديق ومريم العذراء ووليدها وإبراهيم وسارة ومن قبلهم جميعا ادريس عليهم جميعا السلام، لا أرض حكمة سحرية تنتظر من يكشف أسرارها.

وهكذا يطفو على السطح أحد أكثر مفارقات التاريخ ألماً: كان لدى الشرق المنهج الصحيح - النظرة الصوتية التجريبية للهيروغليفية - لكنه أنتج نتائج ممزقة لم تصل إلى أحد. وكان لدى الغرب المنهج الخاطئ - الرؤية الرمزية الهرمسية - لكنه أنتج نظاماً مبهراً موحّداً هيمن على العالم لقرون.

الصوت الذي كان يملك الحقيقة بقي صامتاً في المخطوطات، ولم يصل إلى أوروبا إلا بعد قرون.

والصوت الذي يملأ المجال بالوهم ملأ الكتب والأكاديميات والمحاضرات والمتاحف.

خاتمة: الطلسم الذي ينتظر:

بحلول مطلع القرن التاسع عشر، كانت الهيروغليفية قد دُفنت تحت طبقات متراكمة من سوء الفهم. لم تكن صامتة فحسب - بل كان عليها غطاء من الضجيج الخاطئ أشد إحكاماً من الصمت.

الأهرامات تحكي قصة النبي يوسف. المومياوات كانت مواد طبية ثم ألوان فنية. الرموز فلسفة كونية اخترعها هرمس. وكيرشر قال لنا ما تعنيه تلك الرموز، وصدّقه الجميع.

وفي مصر نفسها، كانت الحجارة صامتة، والمعابد مهجورة، والكهنة رفاتاً في القبور. لم يبقَ من يعرف كيف تُقرأ تلك النقوش التي حفرها إسمت-آخوم في ذلك الصيف البعيد.

وفي مصر ايضا، لم يكن الصمت فراغًا. كان هناك من يعرف أن هذه العلامات هي لغة الآباء، لكنه لم يعد يجرؤ على قراءتها، أو لم يعد يملك مفاتيحها. المسيحيون المصريون حملوا في ألسنتهم آخر خيط من اللغة القديمة، لكنهم تركوا الرموز على الجدران كأطلال ديانة مضت. وهكذا، كان الصمت نفسه شهادة: شهادة على قطيعة مقصودة، وعلى ذاكرة جزئية تنتظر أن تُستعاد بعد قرون، يعيدنا ذلك الى اخر نص كتبه إسمت-آخوم وبجواره ايقونة الصليب وكأنه حاجز بين ماض وثني وحاضر مؤمن.

الرمز المقدس كان ينتظر. لا كلغة، بل كلغز. لا كتاريخ، بل كأسطورة. ولم يكن ينتظر بطلاً يفكّ أسراره الفلسفية الكونية، بل كان ينتظر - ويا لسذاجة الحقيقة أمام الأسطورة - شاباً فرنسياً فضولياً سيقرأ يوماً حجراً أسود من ثلاث لغات، ويدرك أن الأمر كله لم يكن سراً إلهياً.

كان مجرد كلام.

كلام بشر عاديين، يتحدثون عن حياتهم، وملوكهم، وآلهتهم، وأحلامهم.

كلام كان يستحق أن يُسمع من قرون.

في الفصل التالي، ننزل إلى أعماق تلك القرون: نتتبع كيف ضُرب الكهنة في معاشهم قبل أن يُضربوا في عقيدتهم، وكيف أسقط مرسوم إمبراطوري واحد آخر قلعة كانت تحمي آخر من يفهم اللغة المقدسة.

(٥)

الصمت المؤسسي - كيف أُسكتت لغة الآلهة:

القتل البطيء:

اللغات لا تموت بالرصاصة.

تموت بالتجويع. تُحرم أولاً من الأرض التي تنبت فيها، ثم من الهواء الذي تتنفس به، ثم من الماء الذي يمدّها بالحياة. ثم يأتي يوم لا يجد أحد فيه من يتكلمها، لا لأن أحداً منعهم، بل لأن لا أحد بقي يعرف كيف.

موت الهيروغليفية لم يبدأ عام ٣٩٤ ميلادية، حين نقش إسمت-آخوم جملته الأخيرة. بدأ قبل ذلك بسبعة قرون على الأقل، حين وطئت أقدام الإسكندر الأكبر أرض مصر عام ٣٣٢ قبل الميلاد. بدأ لا بمرسوم إمبراطوري، ولا بسيف، بل بشيء أكثر صمتاً وأشد تأثيراً: بتحويل مصر من عالَم يفكر بلغته إلى عالَم يُدار بلغة أخرى.

وحين تفقد اللغة الإدارة، تفقد مستقبلها. وحين تفقد مستقبلها، يبقى منها فقط ماضيها. وحين يبقى فقط ماضيها، تتحوّل من كلام حيّ إلى نقش منسيّ.

هذا الفصل يتتبع تلك الرحلة البطيئة من الحياة إلى النقش.

أولاً: حين وصل الإسكندر - اللغة تفقد عرشها:

في عام ٣٣٢ قبل الميلاد، دخل الإسكندر الأكبر مصر محرراً لا غازياً - هكذا على الأقل قدّم نفسه، وهكذا تقبّله المصريون الذين كانوا يرزحون تحت الحكم الفارسي. سجد أمام آمون في واحة سيوه، وتوّج ملكاً في منف، وأعلن احترامه للديانة المصرية وكهنتها.

كان يبدو في الظاهر فاتحاً متعاطفاً. لكن ما جاء معه كان أشد تأثيراً من أي جيش: جاء بلغة.

اليونانية أصبحت منذ تلك اللحظة لغة الإدارة. لغة العقود والمراسيم والمحاكم والتجارة الكبرى. ومن يريد أن يتعامل مع السلطة - أياً كانت تلك السلطة - عليه أن يتعلم تلك اللغة أو يجد من يترجم عنه.

هذا لم يقتل الهيروغليفية دفعة واحدة. لكنه فعل شيئاً أشد خطورة: جعلها غير ضرورية لكل من يريد أن ينجح في الحياة العملية.

واللغة التي لا يحتاجها طموح الناس، ولا يمنحها قوتهم ومالهم ومستقبلهم، تبدأ ببطء في الانكماش نحو أطراف الحياة. أولاً تنسحب من الشوارع، ثم من المكاتب، ثم من البيوت. وتبقى أخيراً في أماكن لا تخضع لمنطق الطموح: في المعابد، وعلى قبور الموتى، وفي نصوص الطقوس التي يحفظها القلائل.

الإسكندرية: مدينة بوجه أجنبي



المدينة التي حملت اسم الإسكندر كانت أوضح تجسيد لهذا التحوّل.

من يقدم إليها غريباً ويتجول في شوارعها خلال القرنين الثاني والثالث قبل الميلاد، كان يظن نفسه في مدينة يونانية راقية تقع على شاطئ بحر دافئ. الكلام في الأسواق يوناني، الملابس يونانية، المباني على الطراز اليوناني، المعابد الكبرى تُبنى على نمط المعابد اليونانية. حتى المعبودات - حين تتسلل عزة ووزير إلى قلوب اليونانيين - تلبس أثواباً يونانية وتحمل أسماءً مألوفة.

يرصد الباحث نفتالي لويس هذه المفارقة بوضوح: اليونانيون الذين استوطنوا مصر احتفلوا بالأعياد المصرية، لكنهم أعطوا آلهتها أسماء آلهتهم. إيزيس صارت ديميتر وهيرا، ووزير أصبح أبوللو وبلوتو، وحتحور تحولت إلى أفروديت. احتفظوا بالطقس وغيّروا الاسم. واستوطنوا الأرض وظلوا غرباء في الروح.

رغم أن بعض اليونانيين عاشوا في مصر ستة قرون كاملة، ظلوا يحتفلون بأعيادهم، ويكتبون بلغتهم، وينتسبون إلى يونانهم الأم. أحد مستوطني البهنسا تبرع بمبلغ كبير لإقامة احتفالات للشبيبة على النمط اليوناني. وفي عام ٢٦٨ ميلادية وُجدت قائمة باحتفالات تضمنت أشعاراً ورقصاتٍ يونانية تحت رعاية الإلهين هيراكليس وديونيسيوس - في مصر، بعد ستة قرون من الإقامة فيها.

لم يكن استيطاناً بالمعنى الحقيقي. كان سكناً مع الاحتفاظ بجواز سفر الروح.

وبينما كانت الإسكندرية تُومئ باليونانية، كان الفلاح المصري في ريفه الواسع يعيش حياة أخرى تماماً. كانت مصر في الواقع بلدين يتقاسمان أرضاً واحدة: مدن بعينها بوجوه أجنبية تتمركز فيها الثروة والتجارة والسلطة، وريف يعيش بلغته وعاداته وآلهته، بعيداً عن أعين المؤرخين الذين لا يسجّلون عادةً إلا ما يحدث في المدن.

هذا الانقسام لم يكن بريئاً. كان جرحاً عميقاً في هوية حضارة اعتادت أن تكون واحدة.

كليوباترا: آخر محاولة للتقارب



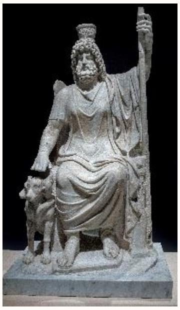
حتى البطالمة أنفسهم، الذين حكموا مصر باسم ملوك مصر القديمة، لم يتحدثوا بلسان أهلها. كانت اليونانية هي لغة البلاط والإدارة والتجارة، وظل الملوك البطالمة أوفياء لها، وكأنهم يعيشون في مصر بأجسادهم بينما أرواحهم مقيمة في اليونان. كليوباترا السابعة، آخرهم وأكثرهم دهاءً، حاولت أن تكسر هذا الحاجز؛ تعلمت بعضًا من المصرية لتكسب ود الكهنة والشعب، وأظهرت احترامًا للديانة القديمة، لكنها لم تستطع أن تجعل لغة المصريين لغة السلطة.

بقيت اليونانية هي لسان الحكم، وبقيت المصرية تنكمش في المعابد والمدن. وهكذا، حتى حين جلست ملكة على العرش تحمل اسمًا مصرياً قديماً، كان صوتها في الحقيقة يونانياً، يذكّر بأن القطيعة بين لغة الشعب ولغة السلطة قد اكتملت.

المسخ المقدس: حين اخترعوا إلهاً مشتركاً

أدرك بطليموس الأول، حين استقل بحكم مصر عام ٣٠٦ قبل الميلاد، أن أمامه معضلة حقيقية: كيف يجمع شعبين بينهما هوّة دينية عميقة؟ المصريون متمسكون بآلهتهم التي تحمل رؤوس الحيوانات وترتبط بالنيل والزرع والموت والبعث. واليونانيون يحملون آلهتهم الأنيقة ذات الملامح البشرية الكاملة التي تسكن أوليمبس وتتشاجر وتتحابّ كالبشر.

الحل الذي ابتكره بطليموس كان جريئاً وذكياً ومثيراً للجدل في آنٍ واحد: اختراع إله مشترك.



في منف، كان المصريون يعبدون إلهاً يُدعى "أوزيرابيس"، دمجاً بين وزير والثور المقدس أبيس. أخذ بطليموس هذا الإله وأعاد تشكيله: منحه ملامح يونانية بشرية، وسمّاه "سيرابيس"، وبنى له معبداً ضخماً في الإسكندرية عُرف بالسيرابيوم. ثم أعلن أن سيرابيس هو الإله الجامع بين المصريين واليونانيين.

كانت الفكرة أن كل طرف سيرى في سيرابيس ما يريد رؤيته: المصري سيرى أوزيرابيس القديم في ثوب جديد، واليوناني سيرى ديونيسيوس أو زيوس في بيئة مصرية مثيرة.

لكن المفارقة أن التجربة نجحت - ولم تنجح في آنٍ واحد. نجحت في اليونان أكثر مما نجحت في مصر نفسها. انتشرت عبادة سيرابيس في أرجاء العالم الهيلنستي، ووصلت حتى روما وإيطاليا. لكن في مصر، ظل معظم المصريين متمسكين برموزهم القديمة وأربابهم المعروفين منذ الأزل. المعابد اليونانية لم تنتشر خارج المدن التي يحتكرها اليونانيون.

وصف العلامة ويل ديورانت ذلك بدقة في موسوعته الضخمة: "حاول بطليموس أن يوحّد الدينين بقوله إن سيرابيس وزيوس إله واحد. لكن الغلبة في الإسكندرية، بآخر الأمر، لم تكن لهذه الصيغة المصطنعة وإنما كانت للنزعة الصوفية".

المصطنع لا يصمد طويلاً، حتى حين يُصنعه ملك.

كسر شوكة الكهنة: السلطة تضرب من لا سلاح له

ثمة طريقة قديمة لإسكات الخصوم لا تحتاج إلى سجون أو مقاصل. تحتاج فقط إلى محاسب.

الكهنة المصريون كانوا يملكون، عبر قرون طويلة من الحكم المصري القديم والبطلمي، ما يجعل سلطتهم الدينية ذات معنى عملي: الأراضي. كانت المعابد تمتلك أراضي واسعة تُدرّ دخلاً ثابتاً، يُموّل الطقوس ويدفع رواتب الكهنة ويبني المعابد ويُحافظ على المنظومة بأكملها. السلطة الدينية لم تكن أبداً مجرد كلمات مقدسة في فضاء مجرّد. كانت مدعومة بحقول قمح وحدائق نخيل ومخازن حبوب.

أدرك الإمبراطور قسطنطين - أو أدرك مستشاروه - أن الطريقة الأذكى للسيطرة على هؤلاء الكهنة ليست مواجهتهم. إنما تجفيف منابعهم.

أصدر أمره إلى واليه يقال انه "بترونيوس" بالاستيلاء على الجانب الأكبر من أراضي المعابد ونقلها إلى ملكية الدولة. ولم يُسمح للكهنة إلا بزراعة جزء صغير يكفي لسدّ حاجة المعبد الأساسية - لا أكثر. وأسندت شؤون الإشراف على حسابات المعابد إلى موظف مالي كبير تابع للإمبراطورية.

دعنا نفكّر في ما يعنيه هذا عملياً: الكاهن الذي كان يملك سلطة روحية مدعومة باستقلال مالي، أصبح فجأة موظفاً يتلقى راتبه من خزينة العدو. الكاهن الذي كان يُحاسَب أمام آلهته، أصبح يُرسل تقارير سنوية إلى الوالي الروماني تتضمن قائمة بأسماء كهنته وممتلكاته وحساباته.

هذه ليست حرية. هذا اختراق للحصن من الداخل.

كل كاهن يحتاج إلى موافقة الإمبراطورية ليستمر في عمله، هو كاهن تحوّل من حارس المعبد إلى حارس على راتب. ومن يدفع للحارس يملك الباب.

الهيروغليفية لم تُمنع في تلك المرحلة. لكن الذين يكتبونها أصبحوا مدينين بوجودهم لمن لا يفهمها ولا يريد أن يفهمها.

السر المقفل: حين صار الرمز امتيازاً لا لغة

لكن الكهنة لم يكونوا ضحايا سلبيين تماماً. كان لهم دور في موت لغتهم، وإن كان ذلك الدور نابعاً من الخوف لا من الشر.

كتب هيرودوت - الرحّالة اليوناني الذي زار مصر في القرن الخامس قبل الميلاد - ملاحظة بسيطة ستصبح مفتاحاً لفهم كل ما جرى لاحقاً: "المصريون يستعملون نوعين من الكتابة، أحدهما يُدعى الكتابة المقدسة ويختص بها الكهنة، والثاني يُدعى الكتابة العامية وهي لغة الشعب".

هذه الجملة القصيرة تحمل في طيّاتها بذرة الكارثة اللغوية القادمة.

الهيروغليفية لم تكن أبداً لغة الشارع. لم يتعلمها الفلاح ليكتب رسالة لأخيه، ولم يتدرب عليها التاجر ليوثّق صفقاته. كانت من البداية محاطة بهالة من الخصوصية والقداسة، تُتعلم في المعابد، وتُنقل من كاهن كبير إلى صغير، في سلسلة أستاذية مغلقة لا تمر بالسوق ولا بالمدرسة العامة.

لكن في القرون الأخيرة من عمر الهيروغليفية، تحوّل هذا الاحتكار من ظاهرة طبيعية إلى سياسة مقصودة. الكهنة أرادوا أن يُبقوا اللغة لأنفسهم، فأضافوا إليها تعقيداً فوق تعقيد. في العصر الهلنستي المتأخر، أصبحت الهيروغليفية في نصوص المعابد أشد غموضاً مما كانت عليه في عصور الاسرات المصرية. حتى إن من يعرف الهيروغليفية القديمة كان يجد صعوبة في فهم كتابات ذلك العصر.

يقول دكتور سليم حسن في موسوعته عن مصر القديمة إن الكهنة في تلك المرحلة "أخذوا يعبّرون عن صلواتهم وشعائرهم برموز تختلف في كثير من الأحيان عن تلك التي كان يستعملها المصريون القدامى، لدرجة أن الذي يعرف اللغة المصرية القديمة جداً لا يفهم منها إلا القليل."

كانوا يُعقّدون لغتهم كمن يُعقّد قفل بابه كلما شعر بالخطر. كلما اقتربت السلطة الأجنبية، كلما ازداد القفل إحكاماً. لكن الثمن كان فادحاً: اللغة التي تُصنع لتُحجب لا يمكنها أن تعيش. اللغة تعيش بالتداول، وتموت بالاحتكار.

كتب المفكر الفرنسي البارون دومينيك دينون عن هذه الظاهرة بلغة لا تخلو من قسوة، لكنها تلمس جوهراً حقيقياً: "كما علّقت الكنيسة أسرارها في لغة ميتة لتبقى قبضتها على أذهان الناس العاديين، فقد أخفى كهنة مصر القديمة أسرارهم الخفية في رموز الهيروغليفية العويصة."

حين صار الرمز أداةً للسلطة لا أداةً للتواصل، بدأ يحمل في نفسه بذرة فنائه. اللغة التي لا تتكلمها العامة تصبح مع الوقت شيفرة لا لغة. والشيفرة تموت بموت من يحتفظ بمفتاحها.

الذاكرة التي لم تُكتب

ثمة سؤال لا يُطرح كثيراً لكنه الأكثر إيلاماً: لماذا لم يترك الكهنة شرحاً؟

لماذا لم يكتب أحدٌ منهم كتاباً يشرح قواعد الهيروغليفية، قاموساً يربط بين الرمز والصوت، دليلاً يُمكّن من يجيء بعده من فهم ما نُقش على هذه الجدران؟

يقول عالم المصريات جيمس بيتر ألن إن الهيروغليفية لم تكن تُعلَّم للعامة أبداً، "بل كانت حكراً على الكتبة والكهنة، الذين كانوا يتلقون تدريبهم داخل المعابد، دون أن يُترك أي دليل منهجي يمكن أن يُستخدم لاحقاً لفهم اللغة."

الكهنة كانوا يتعلمون من بعضهم، وجهاً لوجه، في دهاليز المعبد وأروقة "بيت الحياة" - تلك المؤسسة المصرية العريقة التي كانت تجمع بين المكتبة والمدرسة والمستشفى الروحي. المعرفة كانت شفهية في جوهرها، وإن كُتبت أحياناً على بردي محفوظ في أسرار المعبد.

حين أُغلقت المعابد، لم تتبخّر المعرفة فجأة. لكن السلسلة انقطعت. الكاهن الكبير مات دون أن يجد تلميذاً يُكمل المسيرة. والنصوص المكتوبة التي بقيت ظلت بلا مفتاح لفهمها، كرسائل بلغة لا يعرفها أحد.

لماذا لم يكتب أحدهم - ولو في خوف - كلمة واحدة تفسر ما يفعل؟ لماذا لم يخون الكاهن الأخير سره ليمنحنا مفتاحاً؟

وهكذا، فإن الهيروغليفية لم تُمنع بل نُسيت. واللغة لا تموت حين تُحظر، بل حين يُقطع الحبل السري الذي يربطها بالأجيال القادمة. وقطع ذلك الحبل لم يكن دائماً قرار عدو؛ كان أحياناً قرار الكهنة أنفسهم، حين آثروا الاحتكار على الانتشار، والسرّية على الاستمرار.

حجر رشيد: صورة الانقسام

لا شيء يُجسّد هذا الانقسام اللغوي المأساوي أكثر من حجر رشيد.

في عام ١٩٦ قبل الميلاد، صدر مرسوم ملكي بطلمي مدوّن بثلاث لغات على حجر واحد: الهيروغليفية في الأعلى، والديموطيقية في الوسط، واليونانية في الأسفل.

التفاصيل التقنية لهذا الحجر ستفتح يوماً باب فكّ شفرة الهيروغليفية. لكن ما يعنينا الآن شيء آخر: الترتيب.

لماذا الهيروغليفية في الأعلى؟ وهي اللغة التي فقدت وظيفتها الإدارية منذ قرون؟

يُعلّق المؤرخ ريتشارد باركينسون على ذلك بقوله: "وضع الهيروغليفية في أعلى حجر رشيد لم يكن اعتباطياً، بل كان تعبيراً عن مكانة اللغة المقدسة حتى في لحظة أفولها."

كان الكاتب المصري الذي صاغ هذا الحجر يُؤدي فعلاً مقاوماً صامتاً: يقول بالترتيب ما لا يستطيع أن يقوله بالكلمات. لغتي أولاً، ولغة الشعب ثانياً، ولغة المحتل ثالثاً وأخيراً - وإن كانت هي اللغة القانونية الرسمية.

لكن هذا الاعتزاز الصامت لم يكن يُغيّر شيئاً في الواقع. فاليونانية كانت في الأسفل من الحجر لكنها كانت في قمة السلطة. والهيروغليفية كانت في الأعلى من الحجر لكنها كانت في الحضيض من الوظيفة.

ومصر كانت تتألف - كما يصف دكتور سليم حسن – "من شعبين منفصلين الواحد منهما عن الآخر من حيث الثقافة والدين والحياة الاجتماعية والتقاليد وحتى اللغة." الإغريقي لا يتعلم المصرية لأنه السيد ولا حاجة له بها. والمصري يتمسك بلغته الديموطيقية لكنه لا يملك السلطة.

وهكذا صنع الانفصال اللغوي جداراً لا مرئياً بين شعبين يتقاسمان التراب وينفصلان في كل شيء آخر.

الديموطيقية: الأخت التي بقيت

في هذا الانقسام كانت الديموطيقية تلعب دوراً مختلفاً.

لم تكن الهيروغليفية الوحيدة التي تكتب بها مصر. كان هناك قبلها الخط الهيراطيقي - تبسيط كهنوتي للهيروغليفية استُخدم على البردي - ثم تطورت منه الديموطيقية، لغة الشعب والإدارة اليومية. الديموطيقية كانت أكثر مرونة وأسرع كتابةً وأقرب إلى نبض الحياة اليومية.

الديموطيقية كتب بها الفلاح عقد إيجار حقله، والتاجر فاتورة بضاعته، والزوج وثيقة طلاق زوجته. كانت لغة الحياة العملية، بينما بقيت الهيروغليفية لغة الآلهة والملوك والأبدية.

لكن حتى الديموطيقية، رغم استخدامها الواسع، كانت تُحاصَر. فمع الفتح الإسلامي في القرن السابع الميلادي ومرسوم عبد الملك بن مروان بتعريب الدواوين عام ٧٠٥ ميلادية،

أصبحت العربية هي لغة الإدارة الجديدة. تراجعت اليونانية التي كانت قد أزاحت الديموطيقية، وبدأت العربية تملأ الفراغ.

كانت هذه الخطوط الثلاثة تعبر عن لغة واحدة هي "رن كيمة"، لكنها استُخدمت في مجالات مختلفة: الهيروغليفية للنقوش المقدسة، والهيراطيقية للبرديات الدينية، والديموطيقية للحياة اليومية.

اكتملت بذلك ثلاث طبقات من الإحلال الخطي للإدارة: اليونانية أولاً، ثم اللاتينية التي تحوّلت إلى يونانية بيزنطية، ثم العربية. في كل مرة كانت مصر تفقد خط الإدارة وتكتسب خطاً جديداً، بينما ظلت اللغة المصرية حية في الشارع والبيت - أولاً ديموطيقية، ثم قبطية، ثم عربية مصرية. حتى صارت الهيروغليفية مدفونة تحت ثلاثة أغطية من الصمت المتراكم.

ما بقي في الحجر

ومع ذلك، لم يكن الصمت مطلقاً.

بقيت الحجارة تحمل النقوش. كل جدران المعابد المنتشرة من الإسكندرية إلى أسوان، كل المسلات الشاهقة، كل نصوص المقابر في وادي الملوك - كلها ظلت تحمل كلاماً لا يعرف أحد كيف يقرأه.

وبقيت الذاكرة الشعبية تحمل شيئاً غامضاً. أسماء المواقع المصرية ظلت في معظمها مصرية. بعض الطقوس والأعياد احتفظت بأشكال قديمة وإن غيّرت أسماءها. الكنيسة القبطية احتفظت ببعض الرموز القديمة، كرمز العنخ ☥ الذي تحوّل ببساطة إلى صليب - كأن الحجر نفسه رفض أن ينسى ما كان يعنيه.

وكانت الذاكرة العلمية الممزقة تحيا هنا وهناك. في القرن التاسع الميلادي، جلس ابن وحشية النبطي أمام النقوش وأدرك - بعقل علمي نادر في زمنه - أن تلك الرموز أصوات لا صور فلسفية. لكن عمله بقي استثناءً معزولاً لم يُتابَع.

في أطراف القرى والمدن، استمر بعض الوثنيين في ممارسة طقوسهم السرية حتى القرن السابع الميلادي، كما تُخبرنا بعض الروايات. وفي معابد تحوّلت إلى أديرة - كمعبد دير

الحجر في واحة الداخلة، ومعبد دير المدينة - احتفظ الحجر بنقوشه الفرعونية بجوار إضافات مسيحية، كأن المبنى نفسه يرفض الاختيار ويصرّ على حمل الذاكرتين معاً.

خلاصة: الجثة التي لم تُدفن

الهيروغليفية في نهاية هذا الفصل ليست ميتة تماماً، لكنها لم تعد حية.

هي تلك الحالة الغريبة التي تقع بين الحياة والموت: جسد بلا روح، نقش بلا صوت، ذاكرة بدون من يحملها. اللغة أفرغت من وظيفتها حين صارت اليونانية هي لغة السلطة. ثم حُوصر حراسها حين جُرِّدَ الكهنة من استقلالهم الاقتصادي. ثم تعقّدت على يد هؤلاء الكهنة أنفسهم حين آثروا السرية على الانتشار. ثم نُسيت حين لم تُكتب قواعدها لمن يأتي بعد.

وكل هذا حدث قبل أن يصدر ثيودوسيوس مرسومه القاضي بإغلاق المعابد. قبل أن يقف الجندي الجريء على درجات السيرابيوم ببلطته. قبل أن تُحرق المكتبات.

الضربة الأخيرة لم تكن أشد الضربات. كانت فقط الأخيرة.

وللضربات الأخيرة طعم مختلف.

الفصل التالي يأخذنا إلى تلك الضربة الأخيرة: مرسوم ثيودوسيوس، سقوط السيرابيوم، ومشهد هيباتيا على أرصفة الإسكندرية - اللحظة التي انطفأ فيها الضوء الأخير.

(٦)

أنشودة الأحزان الوثنية - الضربة القاضية

حين تُعلن الدولة الحرب على الذاكرة:

ثمة فرق بين أن تموت لغة وأن تُقتل.

الموت يأتي بهدوء، كما اوردنا في الفصلين الماضيين: تتراجع اللغة أولاً من الشوارع، ثم من المكاتب، ثم من البيوت، حتى تنكمش في أطراف المعابد كشمعة تحترق من طرفيها في آنٍ واحد. هذا ما فعله قرنان من الهيمنة اليونانية ثم الرومانية بالهيروغليفية.

لكن القتل مختلف. القتل يحتاج إلى قرار. يحتاج إلى إنسان يُمسك قلماً ويوقّع، أو يمسك بلطةً ويضرب.

في نهايات القرن الرابع الميلادي، جاء القرار.

وجاء معه كل ما يلزمه: المراسيم الرسمية، والجنود المسلحون، والرهبان المتحمسون، والحشود الغاضبة، والفلاسفة الهاربون في الليل، والآلهة تُسحب في الطرقات وتُحرق وسط صيحات المنتصرين.

كان مشهداً يستحق أن يُدوّن. وقد دُوِّن. ليس كما نريد أن نتذكره، بل كما حدث فعلاً.

ثيودوسيوس: الرجل الذي أغلق الأبواب

لم يكن ثيودوسيوس الأول إمبراطوراً قاسياً بالمعنى المألوف. لم يكن نيرون آخر يسعد بالدم. كان رجلاً يؤمن بما يفعل - وهذا في الغالب أشد خطورة من الطاغية الذي يعرف أنه يظلم. سياسات ثيودوسيوس لم تكن انفجاراً مفاجئاً، بل ذروة مسار بدأ منذ قسطنطين الأول.

حين تولى الإمبراطورية، كانت المسيحية قد أصبحت ديانة الإمبراطورية الرسمية منذ عقود. لكن ثيودوسيوس رأى أن الرسمية وحدها لا تكفي. الوثنية ما زالت تتنفس في المعابد، والكهنة ما زالوا يضرمون البخور أمام الأرباب، والفلاسفة ما زالوا يتجمعون حول التماثيل ويستلهمون أفكارهم من آلهة قديمة. كانت الجمرة لا تزال حية تحت الرماد.

في ديسمبر عام ٣٨١، أصدر مرسومه الأول: تحريم الطقوس الوثنية الخاصة بالتنبؤ، وتجريم ارتياد المعابد لاستلهام وحي الأرباب.

كان صوت المرسوم يحمل طعم التحذير الأخير: "تقتضي إرادتنا ومشيئتنا أن لا يعبد أحد من رعايانا، حاكماً أو مواطناً، صنماً لا حياة فيه بذبح ضحية بريئة. وتقديم الذبائح والتكهن بالغيب عن طريق أحشاء الضحية يُعدّ خيانة عظمى ضد الدولة، ولا تكفير عنها إلا بموت المذنب."

خيانة عظمى. ليس مجرد خطأ ديني. جريمة دولة.

ثم جاء عام ٣٩١، والمرسوم الثاني، الأشد. في الرابع والعشرين من فبراير صدر الأمر بإغلاق جميع المعابد في كافة أرجاء الإمبراطورية. وفي الثامن من نوفمبر ٣٩٢ جاء الثالث: تدمير عدد من أشهر المعابد الوثنية، ومنع إحراق البخور أمام الأرباب في المعابد أو في البيوت، ولعن العرافة والتنجيم، وغرامات مالية باهظة على كل من يتردد على مكان مقدس قديم. بل وصل الأمر إلى مصادرة الأملاك الخاصة التي تجري فيها مثل تلك الطقوس.

أطلق أحد المؤرخين على هذا المرسوم الأخير اسماً لن تنساه حين تقرأه: "أنشودة الأحزان الوثنية."

مصر الأسوأ: ثيوفيلوس وحملته

إذا كانت أوضاع الوثنيين سيئة في سائر أرجاء الإمبراطورية، فإنها كانت في مصر أسوأ. وكان السبب في ذلك رجلاً واحداً.

ثيوفيلوس، أسقف الإسكندرية.

وُصف بأنه "صوت الحكمة ومكمن الشجاعة" من قِبل مؤيديه. لكن العيون الأخرى رأت فيه شيئاً مختلفاً. كتب عنه المؤرخ إدوارد جيبون بتحفّظ لا يخفي ازدراءه: "العدو اللدود للسلام والفضيلة، ذلك الجريء الشرير ذو الأيادي الملطخة بالدماء والذهب على التوالي." وهو وصف يعكس رؤية نقدية متأخرة، لا يخلو من تحيزات عصره

أراد ثيوفيلوس تحويل معبد الإله ديونيسيوس في الإسكندرية إلى كنيسة. ثيودوسيوس لم يأذن صراحةً، لكنه لم يرفض. وهذا الصمت الإمبراطوري كان كافياً في عرف ثيوفيلوس.

بدأ بالسخرية: ألقى إلى عرض الطريق كل ما يخص أسرار الشعائر الديونيسية - تلك الرموز المقدسة التي كان الوثنيون يؤدّون أمامها طقوسهم بخشوع - وعرضها للاستهزاء العلني. كان يعرف أن الإهانة تجرح أعمق من الحظر.

ولم يستطع الوثنيون - وخاصة فلاسفتهم - أن يكظموا غيظهم. اندفعوا في غضبهم واحتلوا مبنى السيرابيوم، تلك القلعة الوثنية الكبرى، يقودهم الفيلسوف أوليمبيوس. وراحوا من هذه القلعة يردون هجمات المسيحيين.

كان المشهد يُنذر بالأسوأ. ولم تطل الانتظار.

سقوط السيرابيوم: موت الإله

السيرابيوم لم يكن مجرد معبد. كان قلب الإسكندرية الوثنية النابض، مقرّ عبادة سيرابيس ذلك الإله الجامع الذي ابتكره بطليموس الأول ليوحّد قلبَي مصر واليونان في صدر واحد. وكانت فيه، إلى جانب قاعات العبادة، مكتبة ضخمة هي فرع من فروع مكتبة الإسكندرية الكبرى.

حين تدخّلت الحامية الرومانية لصالح ثيوفيلوس، وهرب الوثنيون مبعثرين في مدن مصر، جاءت الأوامر الإمبراطورية: تحطيم جميع المعابد الوثنية في المدينة. صُهرت التماثيل في غلايات ضخمة. صودرت الأدوات الطقسية كالأواني المقدسة لمصلحة كنيسة الإسكندرية.

واحتفظ ثيوفيلوس بتمثال واحد فقط لأحد الأرباب - تمثال سيرابيس نفسه - ليَقيمه في أحد الميادين، لا تكريماً بل "ازدراءَ وسخريةً" بالعبادات الوثنية. كان يريد أن يقول للجميع: انظروا كيف وقف إلهكم عاجزاً.

أما التمثال الكبير لسيرابيس داخل المعبد - ذلك التمثال الهائل المصنوع من ألواح معادن متعددة ملتحمة، الذي كان يلمس بجانبيه جدران المحراب، والذي كان الشائع أن من تجرأت يده على المساس بجلاله فإن "السماوات والأرض ستعود إلى حالة فوضاها الأصلية" - فقد واجه مصيراً مختلفاً.

يروي إدوارد جيبون المشهد بتفاصيل تجعله حاضراً أمامك كأنك تراه: "جندي جريء ألهبه الحماس، مسلح ببلطة القتال وايمانه الجديد، ارتقى السلم صاعداً إلى التمثال. وحتى

الجمهور المسيحي نفسه توقع في شيء من القلق ما سوف يحدث نتيجة للصراع. صوّب الجندي ضربة قوية إلى خد سيرابيس، فوقع الخد إلى الأرض. غير أن الرعد ظل صامتاً ولم يضرب الأرض بصواعقه. وظلت السماوات والأرض تسير في نظامها وهدوئها المعتاد."

ثم أطاح بالصنم الضخم. وجُرّت أطراف سيرابيس في طرقات الإسكندرية بصورة مهينة. ثم أحرق تمثاله في مدرج المدينة وسط صيحات الجماهير.

لا اعلم لماذا تبادر الى ذهني مشهد مماثل عندما تم فتح مكة وقام المسلمون بتحطيم الاصنام التي كانت تربض فوق الكعبة وحولها.

تأمّل هذا المشهد قليلاً.

إله كان يحمل في يده اليمنى رأس كلب ورأس أسد ورأس ذئب، رمزاً للزمن بأجزائه الثلاثة. إله اخترعه بطليموس بعقله السياسي ليجمع شعبين. إله انتشرت عبادته من الإسكندرية إلى روما إلى أقاصي الإمبراطورية. إله يُعبد منذ ثلاثة قرون.

في لحظة واحدة: بلطة، خد يسقط، جمهور ينتظر بقلق. ثم صمت السماء. ثم الضحكات.

حين لا يرعد الرعد، لا يحتاج الناس إلى مرسوم ليتركوا إلههم. يتركونه من تلقاء أنفسهم.

هكذا لا تموت الآلهة بالمراسيم، بل بتحوّل الإيمان نفسه في قلوب الناس. تموت حين يكتشف الناس أنها لا تدافع عن نفسها.

المكتبة: الحريق الذي لم يحدث مرة واحدة

ولأن الحريق أكثر إغراءً من الحقيقة في الخيال الجمعي، نحتاج هنا أن نتوقف.

لأن ما حدث لمكتبة الإسكندرية لم يكن ليلة واحدة، وجلاداً واحداً، وحريقاً واحداً. كان شيئاً أكثر تعقيداً وأشد مرارة: كان موتاً بألف جرح.

كانت مكتبة الإسكندرية أعجوبة العالم القديم. حين أمر بطليموس الأول ببنائها عام ٢٨٨ قبل الميلاد، أراد أن يجمع فيها كل ما كتبته البشرية. كان يطلب من كل البلدان أن ترسل له أعمال مؤلفيها. وكانت البواخر التي ترسو في ميناء الإسكندرية تُفتَّش، فتُنتزع كتبها لتُنسخ، وتُعاد النسخة للسفينة ويحتفظ الأصل للمكتبة. وصلت مقتنياتها في ذروتها إلى ما

يتراوح بين أربعمائة وتسعمائة ألف "إضمامة" - لفافة بردي - تعادل بحساب اليوم عشرات الآلاف من الكتب بمفهومنا الحديث.

كانت الإنسانية قد كتبت كل ما تعرفه، وأودعته في ذلك المبنى على شاطئ الإسكندرية.

ثم بدأت الخسائر. واحدةً تلو الأخرى، كأسنان تتساقط من فم شيخ.

الخسارة الأولى جاءت عام ٤٧ قبل الميلاد على يد يوليوس قيصر، حين أحرق أسطول الإسكندرية فامتدت النيران إلى الملحق القريب من الميناء. لم تكن المكتبة كلها، بل جزء منها. لكنه كان جرحاً لم يلتئم تماماً.

الخسارة الثانية جاءت مع أوريليانوس عام ٢٧٣ ميلادية، حين دمّر المدينة واستهدف معها قسم المكتبة الكائن في حي البروكيون.



الخسارة الثالثة - وهي التي أريد هنا التوقف عندها - جاءت مع ثيوفيلوس نفسه، حين هدم السيرابيوم وما يُرجّح أنه كان يضم بقايا من تراث المكتبة عام ٣٩١ ميلادية. ويرويها القس أوروز - في كتابه "ضد الوثنيين" عام ٤١٧ - بكلمات لافتة: "عند مروري بالإسكندرية رأيت دواليب الكتب التي أفرغها رجالنا من محتوياتها."

لا يقول أحرقت. يقول أفرغت. الكتب سُرقت أو أتلفت أو تفرقت. والدواليب الخاوية بقيت شاهدةً على ما كان.

وهناك بردية من القرن الخامس تصور الأسقف ثيوفيلوس وهو يقف أعلى معبد السيرابيوم ومكتبة الإسكندرية يزعم البعض انه الذي أحرقها! والصورة تمثله وهو ممسك بنسخة من الكتاب المقدس، ويقف منتصراَ على ما دمره، ويُرى الإله سيرابيس داخل المعبد. ويوجد هذا الرسم على هامش حولية مسيحية كتبت في الإسكندرية في القرن الخامس الميلادي.

لكن الأمانة العلمية تلزمنا ان نقول: نعم ثيوفيلوس شارك في حادثة هدم معبد السيرابيوم بالإسكندرية عام ٣٩١م، وهذه الحادثة مُدوّنة بواسطة مؤرِّخين مسيحيين معاصرين/قريبين من هذه الفترة مثل سقراط السكولاستيكوس.

نعم هناك ثمة رسومات هامشية في مخطوطات تعود تقريباً إلى القرنين الخامس/السادس تُصوِّر ثيوفيلوس واقفًا فوق واجهة معبد السيرابيوم ممسكًا بالإنجيل، ويُرى تمثال سيرابيس داخل المعبد لكنها رسوم رمزية/تعبيرية لا توثِّق بالضرورة حدثًا حرفيّا واحدًا أو إحراق "المكتبة الكبيرة".

فكثيرٌ من الباحثين الحديثين ومنهم (مصطفى العبّادي وغيره) يفرِّقون صراحة بين "المكتبة الكبرى" (التي تدهورت على مدى قرون) و"مكتبة الفرع" المرتبطة بالسيرابيوم. لا يوجد دليل قاطع من المصادر المعاصرة يُثبت أن مكتبة الإسكندرية الكبرى دُمّرت دفعةً واحدة بحريقٍ واحدٍ سنة ٣٩١م على يد ثيوفيلوس.

كما ان إدعاء أن صورة أو "بردية القرن الخامس" دليلٌ قاطع على أن ثيوفيلوس أحرق المكتبة الكبرى هو تبسيطٌ مخلّ ومبالغة في قراءة نصٍّ بصري؛ الدليل البصري يُعبِّر عادة عن «انتصار المسيحية على الوثنية» لا عن تقريرٍ تقني لتفاصيل تحول أرشيفيّ أو مؤسسي.

خرافة الخليفة عمر

وهنا لا بد أن نتوقف أمام الرواية الأشهر والأكثر تداولاً، التي تقول إن الخليفة عمر بن الخطاب هو من أمر بحرق مكتبة الإسكندرية حين فتح العرب مصر عام ٦٤٢ ميلادية، بحجة أن ما يوافق القرآن فالقرآن يغني عنه، وما يخالفه لا حاجة إليه.

القصة مبهجة في بساطتها وتناسقها الدرامي. وهذا تحديداً ما يجعلها مشبوهة.

الحقيقة التي توصل إليها المؤرخون بعد بحث مضنٍ هي أن هذه القصة لا تظهر في أي مصدر تاريخي قبل مطلع القرن الثالث عشر الميلادي، أي بعد الحادثة المزعومة بأكثر من خمسة قرون ونصف. أول من أوردها كان المؤرخ الإسلامي عبد اللطيف البغدادي الذي زار مصر عام ١٢٠٠ ميلادية، وذكرها دون سند ودون أصل، مكتفياً بصيغة "يُقال". ثم نقلها ابن القفطي في القرن الثالث عشر، ثم ابن العبري من بعده.

ما الذي يجعل القصة مستحيلة تاريخياً؟

أولاً: يوحنا النحوي، الشخصية المحورية في القصة الذي يُزعم أنه توسّل إلى عمرو بن العاص للإبقاء على المكتبة، توفي عام ٥٤٠ ميلادية - قبل الفتح العربي بأكثر من مئة عام.

ثانياً: لم يشر إلى هذا الحادث المزعوم أيّ من المؤرخين المسيحيين الذين عاصروا الفتح الإسلامي، ولا من جاء بعدهم بعقود. ويوحنا النقيوسي - المؤرخ المسيحي الذي كان شاهد عيان على الفتح، والذي لم يكن يتحرج قط من توجيه النقد للمسلمين - لم يذكر عن المكتبة حرفاً واحداً.

ثالثاً: المكتبة بحسب كل الأدلة كانت قد اختفت قبل الفتح العربي بما لا يقل عن قرنين ونصف.

وقد فنّد هذه الخرافة أكبر مؤرخي الغرب وليس المسلمين فقط. كتب غوستاف لوبون، المؤرخ الفرنسي الكبير، بوضوح لا لبس فيه: " أما إحراق مكتبة الإسكندرية المنسوب إلى العرب فخرافة لا أساس لها. لم يرتكب العرب مثل هذا الفعل، المخالف لعاداتهم. لقد كان المسيحيون قد أتلفوا كتب الوثنيين في الإسكندرية قبل الفتح العربي بزمن طويل، فلم يبقَ شيء ليَحرق."

لكن لماذا نشأت القصة أصلاً بأقلام بعض المؤرخين المسلمين؟ يقدّم بول كازانوفا تفسيراً تحليليًا: الأساطير لا تولد من فراغ، بل لتخدم حاجة معاصرة. حين أراد صلاح الدين الأيوبي في القرن الثاني عشر أن يتخلص من تراث الدولة الفاطمية الذي اعتبره منحرفًا عقائدياً، احتاج بعض الكُتّاب إلى سابقة تاريخية تُضفي شرعية على فعل "إبادة الكتب". فكان من السهل أن تُنسب القصة إلى عمر بن الخطاب، أعدل الخلفاء في الوجدان الإسلامي، لتبدو وكأنها فعل تأسيسي له جذور في صدر الإسلام.

غير أن الأمانة العلمية تلزمنا أن نقول: لا يوجد دليل قاطع على أن صلاح الدين نفسه أحرق كتب الفاطميين. بعض الروايات تشير إلى أن وزيره قام بتوزيع هذه الكتب أو بيعها، وهناك من يرى أنها نُقلت إلى مدارس ومساجد. أما رواية "الحرق" فهي شائعة في بعض المصادر المتأخرة، لكنها لا تستند إلى شهادة معاصرة مباشرة.

وهكذا، يصبح من الأرجح أن القصة لم تُكتب لتوثيق حدث تاريخي، بل لتبرير ممارسة سياسية أو دينية لاحقة، ولتُضفي على فعل معاصر هالة من الشرعية التاريخية. الأسطورة هنا ليست خطأً بريئًا، بل أداة سياسية: تُستخدم لتفسير ضياع التراث، وتُحمّل الماضي مسؤولية ما فعله الحاضر.

وإن كان لي أخيراً أن أستشهد بمقولة حق كتبها مؤرخنا اسكندر صيفي في كتابه "المنارة التاريخية في مصر الوثنية والمسيحية"، حيث يختم حديثه عن مكتبة الإسكندرية بملاحظة دقيقة:

أوروسيوس نفسه -المؤرخ المسيحي الذي زار الإسكندرية بعد ذلك- لم يجد للكتب أثراً سوى "الخزانات الخاوية".

ثم يُضيف موقفاً أخلاقياً واضحاً:

كل اضطهاد ديني هو ممقوت أكان من وثنيين أم مسيحيين. ويُلاحظ أن الذين اضطهدهم الأسقف كانوا من علماء ذاك الزمان حنفاء، وأحدهم أولمبيوس... كان رجلاً وديعًا حليمًا عاقلاً.

ويُميز بين الاضطهادين:

الوثني كان عن سياسة واقتصاد فقط. أما المسيحي فكان عن غلو بدين أساسه الرحمة والوداعة.

هذا التمييز -بين الدين والممارسة، بين الرسالة والغلو- هو ما يجعل المقولة ذات قيمة. ليست دفاعاً عن الوثنية، بل إدانة للاضطهاد باسم أي دين.

هيباتيا: حين يُقتل الصوت الأخير



لكن أشد مشاهد هذا المرحلة إيلاماً، وأكثرها دلالة على ما كان يحدث حقاً، ليس حريقاً ولا هدم تمثال...

إنه امرأة...

هيباتيا بنت ثيون الإسكندري. رائدة في علم الفلك والرياضيات والفلسفة. نشأت في بيئة علمية بحتة وسط العلماء والمراجع والمؤلفات، بنت آخر رؤساء مكتبة الإسكندرية. تدثّرت بالعلم ولم تعتنق ديناً سواه.

كانت تُعلّم في الإسكندرية بعد أن خبت المكتبة وتفرّق علماؤها. وكان حولها تلاميذ من كل التوجهات، بينهم مسيحيون. ومنهم حاكم المدينة أوريستوس الذي كان في صراع سياسي

مع الأسقف كيرلس الأول على السلطة في المدينة. فأصبحت هيباتيا في عيون كيرلس ما هي عليه في الحقيقة: عقلاً حراً يجمع حوله الناس بلا قيد الولاء الكنسي. وكان هذا - في سياق صراع سياسي وديني معقّد - كافياً لتحويلها إلى هدف.

اتهمها بالزندقة والإلحاد. ووصفها للحشود بأنها العائق بين أوريستوس وبين المصالحة مع الكنيسة.

في عام ٤١٥ ميلادية، قبضت عليها جماعة من أبناء الكنيسة في شوارع الإسكندرية. جرّدوها من ملابسها. سحلوها. سُلخ لحمها عن عظامها باستخدام أصداف البحر. ثم أُحرق ما تبقى من أشلائها.

لا يحتاج هذا المشهد إلى تعليق بلاغي. يحتاج فقط إلى صمت يليق بثقله.



لكن ثمة شيء يجب أن يُقال: هيباتيا لم تكتب بالهيروغليفية وربما كانت تجهلها، لكن حين قُتلت هيباتيا، لم تُقتل وحدها. قُتل معها آخر صوت كان يجمع بين العلم القديم والحياة الحاضرة. كانت تمثّل - في جسد واحد - كل ما تبقّى من الجسر بين الحضارة الهيروغليفية الرمزية ومستقبل لم يأتِ بعد.

كتب أحد المؤرخين القدامى عنها: "لم تكن وثنية بالمعنى الديني. كانت فيلسوفة. والفلسفة لا دين لها غير العقل." وهذا بالضبط ما جعلها خطيرة، وما جعل قتلها ضرورياً في عيون من أراد عالماً لا مكان فيه للأسئلة المفتوحة.

بعد موتها، غادر كثير من العلماء الإسكندرية إلى الأبد. المدينة التي كانت قبل قرون مركز ثقل الفكر الإنساني، أصبحت مكاناً يهرب منه من يريد أن يفكر.

الكاهن الأخير: صورة في الحجر



في مكان ما من معبد فيلة، في أقصى الجنوب المصري، حيث النيل أكثر هدوءاً من أي مكان آخر، كان ثمة كاهن.

لا نعرف اسمه. لا نعرف سنّه. لا نعرف ما الذي كان يفكر فيه حين وقف أمام جدران معبده لآخر مرة. لكننا نستطيع أن نتخيّله.

رجل حليق الرأس والذقن والشارب، يرتدي ثياباً بيضاء ناصعة. يقف أمام نقوش تحكي قصصاً تعلّمها عن أبيه، وتعلّمها أبوه عن جدّه، في سلسلة تمتد إلى ما لا يُحصى من الأجيال. يعرف أصوات تلك الرموز، ويعرف معانيها، ويعرف طريقة النطق الصحيحة لتلك التعاويذ التي تُقرأ أمام الأموات.

كان يحمل في رأسه - وربما في بعض لفائف البردي - مفتاح لغة كاملة. مفتاح ثلاثة آلاف سنة ويزيد من الكتابة.

وكان يعلم، على الأرجح، أنه لن يجد من يعطيه ذلك المفتاح.

أين يذهب كاهن لا معبد له ولا تلاميذ ولا مستقبل؟ لا نعلم. بعضهم تحوّل إلى رهبنة مسيحية، وبعضهم انزوى في القرى البعيدة. وبعضهم ربما يذكّرنا بتلك النبوءة الحزينة المنسوبة إلى نص هرمسي قديم:

> "سيأتي زمان يبدو فيه أن المصريين عبدوا الآلهة بتقوى وحماس دون جدوى. ذلك لأن الإله سيعود من الأرض إلى السماء. يا مصر، يا مصر، إنه لن يبقى من عقائدك غير قصص وروايات لن تصدقها الأجيال المقبلة، ولن تبقى غير كلمات على الحجر تحكي أعمال تقواك."

كلمات على الحجر. كأن من كتب تلك النبوءة رأى ما سيحدث.

حين يتنفس الحجر: المعابد التي أبت أن تُنسى

لكن النهاية لم تكن مطلقة تماماً. والتاريخ نادراً ما يكون مطلقاً.

في معبد دير الحجر بواحة الداخلة، وجد المسيحيون الأوائل المبنى أمامهم فلم يهدموه. أقاموا بداخله بازيليكا مسيحية متكاملة من القرن السادس، وبنوا خلفها مساكن للرهبان من الطوب اللبن. لكن المعبد نفسه لم يُشوّه من الداخل ولم يُخرّب.

وفي معبد دير المدينة، تحوّلت قاعاته إلى حجرات رهبانية، لكن النقوش القديمة ظلت في مكانها، تحت الأسقف نفسها التي تظللها الآن صلوات مختلفة.

وفي معبد فيلة نفسه - معبد إسمت-آخوم الأخير - وجد الرهبان المسيحيون القادمون إليه ما فعله سابقوهم: حفروا في الحجر صلباناً جديدة بجوار نقوش قديمة. أضافوا دون أن يمحوا كل شيء. كأن الحجر كان أكثر تسامحاً من البشر.

الفيلسوف الوثني أوليمبيودوروس، آخر من تحدّثنا عنه الروايات في تلك المنطقة، ظل يزور معبد فيلة ويقدّم قرابينه للإله مندوليس حتى عام ٤٥٢ ميلادية. بعد إسمت-آخوم بنصف قرن تقريباً. في أقصى الجنوب، بعيداً عن عيون الإمبراطورية وجنودها.

كانت الجمرة مازالت تحترق.

خلاصة: ما الذي يموت حين تموت لغة؟

حين تُغلق معابد الهيروغليفية، حين يُحطّم تمثال سيرابيس، حين تُقتل هيباتيا في الشارع، حين يختفي الكاهن الأخير في صمت - ما الذي يموت بالضبط؟

اللغة نفسها تبقى على الجدران. النقوش موجودة. الأحجار باقية. الرموز مرسومة.

ما يموت هو السياق. الصوت الذي كان يجعل تلك الرموز تعني شيئاً. الذاكرة الحيّة التي تربط الرمز بالمعنى والمعنى بالحياة.

وهنا تتجلى المفارقة التي تتكرر عبر التاريخ: النص يبقى، لكن قراءته تتبدل. واللغة لا تختفي حين تُمحى رموزها، بل حين يُفقد المفتاح الذي يربطها بالوعي الإنساني.

حين كان الكاهن يقرأ نصاً جنائزياً، لم يكن يُخرج أصواتاً من فمه فحسب. كان يستدعي معاني راكمتها أجيال: تصوّراً عن الموت والبعث، عن الروح وعلاقتها بالجسد، عن ماعت - ذلك التوازن الكوني الشامل الذي يجب أن يحفظه كل فرد في كل لحظة من حياته.

حين مات الكاهن، لم تمت الأصوات فقط. مات المعنى الذي كانت تحمله.

والمعنى أثقل من الصوت. وأصعب في الإحياء.

لكن - وهذا هو السؤال الذي يظل معلّقاً في الهواء بعد كل هذا الدمار - هل ماتت اللغة فعلاً؟

أم أنها انتقلت؟

الكاهن الأخير حين غادر معبده، لم يغادر وحده. حمل معه شيئاً - في حنجرته، في ذاكرته، في الأصوات التي يُردّدها أبناؤه دون أن يعرفوا من أين جاءت. اللغة المصرية لم تنطفئ مع انطفاء الهيروغليفية. بقي صوتها حيّاً في أفواه الناس، يبحث عن جسد جديد يسكنه.

ووجد جسداً. لكنه جسد غريب، مُلتبس، يحمل في ملامحه أكثر من وجه.

ذلك الجسد الجديد هو لغز الفصل التالي.

في الفصل التالي، نتتبع ما حدث لصوت اللغة المصرية بعد أن فقد رموزه: كيف ارتدى جسداً أجنبياً ليبقى حياً، وكيف أن هذا البقاء كان في الوقت نفسه إنقاذاً وخسارة، استمراراً وقطيعة - وهو اللغز الذي تحمله القبطية حتى اليوم.

(٧)

لغز القبطية - حين تتنفس اللغة برئة أخرى

الميراث الملتبس

حين تموت لغة، يطرح المنطق سؤاله البديهي: ماذا تركت وراءها؟

أحياناً لا تترك شيئاً. تذهب كما تذهب الريح - لا أثر ولا صدى. لكن الهيروغليفية كانت مختلفة. حين أغمضت عينيها ذلك الصيف في فيلة، كانت قد أعطت - ربما دون أن تعلم، ربما دون أن تريد - شيئاً ما لوارثة ستأتي بعدها. وارثة لا تشبهها في الشكل، بل تشبهها في الروح. انه الثوب الرابع لرانكيمة "رن كيمه"، ولكنه ثوب مختلف تماما.

تلك الوارثة كانت القبطية.

لكن القبطية لغز. ولغزها لا يقل إثارةً عن لغز أمها الصامتة.

كيف تكون اللغة مصرية في صوتها وأجنبية في جسدها؟ كيف تُولد من رحم السحر ثم تكبر في أحضان الكنيسة؟ كيف تحمل ذاكرة المصريين القدماء وتنسى كيف تقرأ نقوشهم؟ كيف تعيش ألفاً وستمائة عام ثم تُحفظ حيّةً في طقوس لا يفهمها كثير ممن يؤدّونها؟

هذا الفصل ليس دفاعاً عن القبطية ولا هجوماً عليها. هو محاولة لفهم واحدة من أغرب قصص البقاء في تاريخ اللغات الإنسانية.

أولاً: قبل الكنيسة - حين وُلدت القبطية في مختبر السحر

الرواية التقليدية تقول إن القبطية ظهرت مع المسيحية. رواية مريحة ومنظّمة. لكنها ليست دقيقة.

قبل أن يدخل مبشّر مسيحي واحد إلى مصر، وقبل أن تُترجم آية واحدة من الكتاب المقدس إلى المصرية، كان هناك كهنة وسحرة يجلسون في دهاليز المعابد ويفعلون شيئاً غريباً: كانوا يكتبون لغتهم المصرية بحروف يونانية.

لماذا؟

لأن لديهم مشكلة صوتية حرجة.

في العقيدة المصرية، الكلمة ليست مجرد وصف للقوة - الكلمة هي القوة ذاتها. تعويذة تُنطق بحركة خاطئة لم تكن مجرد خطأٍ لغوياً - كانت فشلاً للطقس بأكمله، بل ربما استدعاءَ لقوى لا تُريدها. النطق الدقيق لم يكن رفاهية، كان ضرورة وجودية.

والمشكلة أن الخطوط المصرية - الهيروغليفية والديموطيقية - كانت في جوهرها شبه صامتة. كانت تكتب الهياكل الساكنة للكلمات وتترك الحركات للقارئ أن يُكمّلها من ذاكرته وخبرته. مثل العربية التي تُكتب بلا حركات - من يعرف يقرأ، ومن لا يعرف يقع في الخطأ. لكن في السحر، لا مجال للخطأ.

ثم نظر هؤلاء الكهنة إلى الأبجدية اليونانية المنتشرة من حولهم، وأدركوا أنها تملك ما يحتاجونه: تسجيلاً دقيقاً للحركات الصوتية. ألفا وإيبسيلون وأوميغا - حروف تمسك بالصوت كاملاً ولا تتركه يتهرّب.

لم يكن في الأمر إعجاب بالثقافة اليونانية. لم يكن انبهاراً بالمحتل. كان حلاً تقنياً بارداً لمشكلة عملية حارّة: كيف نضمن أن تعويذتنا المقدسة تُنطق بالصواب؟

وهكذا، في برديات سحرية تعود إلى القرنين الثاني والثالث الميلادي - تلك المجموعة التي يُسمّيها الباحثون "البرديات السحرية اليونانية" - نجد أقدم نصوص القبطية. ليست صلوات. ليست ترجمات إنجيلية. بل تعاويذ وطلاسم، كُتبت بأحرف يونانية لتحمي ناطقها من الأذى، ولتستدعي قوىً لا يُريد أحد أن يُخطئ في استدعائها.

القبطية لم تُولد في الكنيسة. وُلدت في المعبد. وُلدت من خوف الكاهن لا من إيمان القسيس.

هذا ليس تفصيلاً هامشياً. هذا يقلب كل السردية رأساً على عقب.

ثانياً: اللغة والخط - الفرق الذي يصنع كل الفرق

قبل أن نمضي، نحتاج أن نقف لحظة عند تمييز دقيق يُضيء كل ما سيأتي.

اللغة شيء. والخط شيء آخر.

اللغة هي الروح: الأصوات، والكلمات، والقواعد التي تحكم طريقة التفكير والتعبير. الخط هو الجسد: الشكل البصري الذي يُجسّد تلك الروح على الورق أو الحجر.

الروح يمكن أن تنتقل إلى جسد جديد.

اللغة العربية تظل عربيةً سواء كُتبت بخط الثلث أو الرقعة أو حتى بالحروف اللاتينية كما يفعل الشباب اليوم في "الفرانكو". المعنى واحد، النطق واحد، الروح واحدة - فقط الجسد يتغير.

وهذا بالضبط ما فعلته القبطية: أبقت على الروح المصرية - الأصوات المصرية، والكلمات المصرية في معظمها، والقواعد المصرية في جوهرها - وغيّرت الجسد. استعارت الأبجدية اليونانية جسداً جديداً وأسكنت فيه الروح المصرية القديمة. لكن هذا الجسد لم يكن يونانياً بالكامل؛ فحين حاول المصريون حشر أصواتهم داخل القالب اليوناني، وجدوا أن ثمة أصواتاً مصرية أصيلة تأبى أن تُسجن في حروف أجنبية. أصوات مثل (الشين، والفاء، والخاء، والهاء..) لم تجد لها مكاناً في أبجدية "ألفا وبيتا". وهكذا، لم تكن القبطية مجرد استمرار لران كيمة، بل ولادة جديدة.

وهنا، فعل المصريون شيئاً شاعرياً للغاية: عادوا إلى "الديموطيقية" القديمة، واقتلعوا منها سبعة حروف (مثل: ϣ، ϥ، ϧ، ϩ، ϫ، ϭ، ϯ) وزرعوها في قلب الأبجدية الجديدة. هذه الحروف السبعة كانت بمثابة "الوشم الصغير" على جسد غريب، أو الـ DNA المصري الذي رفض أن يختفي. كانت تلك العلامات الصغيرة تصرخ في وجه الأبجدية اليونانية الصقيلة: "أنا لا أزال هنا.. رانكيمة لم تمت تماماً".

هذه الحروف السبعة تمثل أصواتاً مصرية أصيلة مثل الشين والفاء والخاء والهاء، التي لم تجد لها مكاناً في أبجدية 'ألفا وبيتا'.

لكن الصورة لا تكتمل إذا اكتفينا بالحديث عن الأصوات. فإلى جانب الحروف، تسللت آلاف الكلمات اليونانية إلى نسيج القبطية، حتى صارت جزءاً من حياتها اليومية. في الطقوس الكنسية، كانت المصطلحات اللاهوتية والشعائرية تُستعار من اليونانية بلا حرج: كلمات مثل إكليسيا (الكنيسة)، وإيفانجيليون (الإنجيل)، وإيبيسكوبوس (الأسقف)، دخلت القبطية كما هي تقريباً. وفي المعاملات اليومية، وجدت كلمات التجارة والإدارة

والعلوم طريقها إلى لسان المصريين، لأن السلطة والاقتصاد كانا يُداران باليونانية منذ قرون. وهكذا، لم تكن القبطية مجرد استمرار لران كِيمة بحروف جديدة، بل كانت لغة هجينة: قواعدها مصرية، أصواتها مصرية، لكن مفرداتها مشبعة بروح يونانية. إنها شهادة على زمنين يعيشان في لسان واحد، وعلى حضارة تحاول أن تحفظ نفسها وهي تتنفس هواءً غريبًا.

لكن - وهنا يبدأ اللغز - الجسد الجديد لم يكن محايداً.

حين تكتب بأبجدية ما، فإنك لا تختار فقط شكل الحروف. أنت تختار شبكة من الإيحاءات والانتماءات والذاكرات المرتبطة بتلك الأبجدية. الحرف اليوناني "ألفا" لا يحمل في طيّاته ذكرى معبد أو طقس جنائزي أو إله. هو صوت محض. فعّال، ديمقراطي، خطي. لكنه مُفرغ من أي ذاكرة رمزية.

بينما الهيروغليفية كانت ذاكرة. كل رمز فيها كان يحمل طبقات: شكلاً بصرياً يُحيل إلى شيء في العالم، وصوتاً يُحيل إلى كلمة، ومعنىً يُحيل إلى مفهوم كوني. العلامة التي تعني "نتر" - إله - لم تكن ثلاثة أحرف مجردة، بل كانت صورة العلم الملفوف، ذلك العلم الذي كان يرفرف على أبواب المعابد. والعنخ ☥ لم يكن حرفاً للصوت /عنخ/، بل كان الحياة نفسها مرسومة.

حين انتقل المصريون إلى الأبجدية اليونانية، حتى في شكلها القبطي، توقفوا عن رسم أفكارهم وبدأوا بتهجئتها. هذا التحول الصغير كان في واقعه تحولاً هائلاً في كيفية العلاقة مع اللغة نفسها.

ثالثاً: الأمية المصطنعة - حين صار العارفون جهلاء

تصوّر تاجراً في الإسكندرية عام ٢٥٠ ميلادية. رجل ناجح، يقرأ ويكتب الديموطيقية بطلاقة. يُوثّق عقوده، ويُراسل شركاءه، ويحفظ حساباته. رجل متعلم بكل المقاييس.

ثم تتغير الأمور من حوله ببطء.

المحاكم الرومانية تطلب وثائق بالأبجدية اليونانية فقط. الكنيسة الجديدة تكتب نصوصها بحروف يونانية. المدارس التي يرتادها أبناء الطبقة المتوسطة تُدرّس اليونانية أولاً. والجيل الذي يكبر لا يتعلم الديموطيقية، بل يتعلم تلك الحروف الجديدة.

في يوم من الأيام، يجد هذا التاجر أن عقوده الديموطيقية المكتوبة بعناية لم يعد يُعترف بها أمام القضاء. أن شبابه لا يستطيعون قراءة ما كتبه. وأن "المتعلم" في العالم الجديد هو من يعرف الأبجدية اليونانية، لا من يتقن الخط الذي تعلّمه من أبيه.

أصبح أمياً. لا لأنه نسي ما تعلّم، بل لأن النظام من حوله قرر أن ما يعرفه لم يعد يُحسب.

هذا ما يُسميه الباحثون "الأمية المصطنعة" - وهو واحد من أشد آليات الهيمنة الثقافية خفاءً وفاعلية. لا تحتاج أن تمنع الناس من التعلم. تحتاج فقط أن تُغيّر تعريف من هو "المتعلم". وبجرّة قلم واحدة، تتحول طبقة بأكملها من عارفين إلى جاهلين - في عيون النظام الجديد على الأقل.

لكن الأمية المصطنعة لا تعمل في اتجاه واحد. لأن الطبقة القديمة من الكُتّاب - أولئك الذين قضوا عقوداً يتعلمون الكتابة في مدارس المعابد، "بيوت الحياة" - أصبحوا هم أيضاً عاطلين. لم تعد الدولة تحتاج كاتباً ديموطيقياً يجمع الضرائب. تحتاج كاتباً يونانياً. ومع انهيار المعابد وتراجع دورها، انهارت تلك المدارس معها. وانقطعت سلسلة التعليم التي كانت تحمل المعرفة من جيل إلى جيل.

في مكانها، ظهرت طبقة جديدة: المصري الهجين. رجل يتكلم المصرية في بيته ويكتب اليونانية في عمله. يحلم بلغة ويدوّن بأخرى. وحين أراد أن يكتب لغته - لغته هو - بحث عن حل وسط. فوجده: حروف يونانية يعرفها، يضع بداخلها أصواتاً مصرية يحبها.

وُلدت القبطية الرسمية من هذا الإنسان الهجين، في هذه اللحظة الملتبسة بين عالمين.

رابعاً: ثلاثة أسباب وثلاث روايات - من يملك الحقيقة؟

لو سألت عشرة مؤرخين لماذا ظهرت القبطية، لحصلت على ثلاث روايات لا تتوافق.

الرواية الأولى يُقدّمها المؤرخون المصريون المسيحيون بفخر واضح: القبطية كانت فعلاً من أفعال المقاومة القومية. حين ضغطت الهيمنة اليونانية على الهوية المصرية، ردّ المصريون

بابتكار لغة تحفظ روحهم المصرية في جسد يتكيف مع الواقع الجديد. كانت قومية مقنّعة بدين، واعتزازاً بالذات تحت رداء التحوّل.

الرواية الثانية يطرحها مؤرخون آخرون بنبرة أقل حماساً: القبطية لم تكن اختياراً حراً. كانت استجابة مفروضة لهيمنة إدارية وثقافية. المصريون لم يختاروا الأبجدية اليونانية من بين خيارات متساوية - اختاروها لأنها كانت الخيار الوحيد الذي تعترف به السلطة. والفرق بين "الاختيار تحت الضغط" و" الإكراه" فرق أشبه بالفلسفة منه بالسياسة.

الرواية الثالثة يقدّمها الأكاديميون الغربيون بلغة أكثر برودة: كان تطوراً طبيعياً في سياق مجتمع ثنائي اللسان. الناس يتكيفون مع لغتهم كما يتكيفون مع ملابسهم - حسب الطقس والمكان والمناسبة. لا مؤامرة ولا مقاومة، مجرد براجماتية إنسانية عادية.

والحقيقة؟

الحقيقة أن كل رواية تمسك بطرف من الفتيل في الظلام. لأن ما حدث فعلاً لم يكن مؤامرة ولا بطولة ولا تطوراً محايداً. كان شيئاً أكثر إنسانية من كل ذلك: كان ملايين البشر يحاولون أن يعيشوا حياتهم في ظروف لم يختاروها، فأنتجوا حلاً يحمل في طيّاته تناقضاتهم كلها.

أضيف إلى ذلك دافع لا تذكره الروايات الثلاث كما ينبغي: الدافع الديني للكنيسة الجديدة.

حين أرادت المسيحية أن تنتشر في الريف المصري، واجهت معضلة عملية: كيف تُبشّر بالإنجيل لفلاح لا يعرف اليونانية؟ الحل كان أمامهم: اكتبوا المصرية. لكن بأي خط؟ الكتبة الكنسيون كانوا يعرفون الأبجدية اليونانية - كانت لغة عملهم وتعليمهم. فكتبوا المصرية بحروف يعرفونها.

لم يكن في الأمر تخطيط ثقافي عميق. كان حلاً عملياً لمشكلة فورية. لكن الحلول العملية، حين تنتشر وتتكرر وتُقنَّن، تتحول مع الوقت إلى حضارة.

خامساً: شنودة والصعيد - حين تصير اللهجة سلاحاً

لكن القصة لم تكن بلا إرادة بشرية. كان هناك رجل يعرف ما يريد.

الأنبا شنودة - القديس الكبير الذي وُلد حوالي عام ٣٣٣ وعاش قرابة مئة وعشرين عاماً في صعيد مصر - لم يكن مجرد راهب. كان شخصاً يؤمن بأن اللغة سياسة، وأن اختيار اللهجة ليس أمراً لغوياً فحسب.

القبطية لم تكن لغة واحدة. كانت عائلة من اللهجات: الصعيدية في الجنوب، والبحيرية في الدلتا الشمالية القريبة من الإسكندرية، والأخميمية والفيومية وغيرها. كل لهجة تحمل لوناً مختلفاً، وكل لون يعني شيئاً في الخريطة السياسية والثقافية لمصر في ذلك الزمن.

الإسكندرية - العاصمة، المدينة العالمية، مركز الثقل اليوناني - كانت تتكلم القبطية البحيرية المتأثرة باليونانية. وكأن المدينة حتى في قبطيتها لم تستطع أن تنفض عن نفسها غبار هيلنستيتها.

أما شنودة، ابن الصعيد العميق، فاختار اللهجة الصعيدية. واختارها بوعي كامل.

حين كتب شنودة وعظه ورسائله وكتبه بالقبطية الصعيدية، كان يُعلن شيئاً: "مصر الحقيقية لا تتكلم من الإسكندرية. تتكلم من الجنوب. من الأرض التي لم تمسّها هيلنيستية الساحل." كان يُصوّت بلغته ضد المركز العالمي، لصالح المحيط الأصيل.

هذه اللهجة الصعيدية، التي أعطاها شنودة مكانتها الأدبية، أصبحت لغة الأدب القبطي في أوجه: نصوص لاهوتية عميقة، وعظات مؤثرة، رسائل رهبانية تحمل دفء إنسانياً لا يزال يُحسّ حتى اليوم. أديرة الصعيد - تلك القلاع الصخرية المنغرزة في حافة الصحراء - أصبحت مراكز إشعاع ثقافي، بلغة شنودة وروحه.

لكن المفارقة جاءت لاحقاً، بعد قرون. حين انتقل مركز الثقل الكنسي إلى الإسكندرية، بدأت اللهجة البحيرية - لهجة الشمال، اللهجة التي قاومها شنودة - تحلّ محل الصعيدية كلغة رسمية للطقوس. وهكذا، لغة اختارها رجل للمقاومة، استُعيض عنها لاحقاً بلغة أخرى في الإطار ذاته.

الحضارة لا تسير في خطوط مستقيمة.

سادساً: الاغتراب الكبير - حين نسيت اللغة ماضيها

ولكن خلف كل هذا، ثمة خسارة أعمق لم يُسجّلها أحد رسمياً لأنها لم تكن خسارة مفاجئة. كانت تسرّب بطيء، كما يتسرّب الماء من إناء متشقق.

حين انتقلت الكتابة المصرية من الهيروغليفية إلى القبطية، لم تنتقل فقط من خط إلى خط. انتقلت من طريقة في رؤية العالم إلى طريقة أخرى.

الهيروغليفية كانت كتابة ترسم المعنى. حين كتب الكاتب القديم كلمة "الشمس"، لم يكتب مجرد صوت. رسم قرصاً. والقرص لم يكن زخرفة - كان جوهر المعنى ذاته. الكتابة الهيروغليفية كانت تجمع في رمز واحد ثلاثة أشياء في آنٍ واحد: الشكل البصري، والصوت، والمعنى الكوني. كان المصري القديم يقرأ جدران معبده بعيون تختلف عن عيون من يقرأ صفحة مطبوعة - كان يرى طبقات.

القبطية، حين اعتمدت الأبجدية اليونانية، قطعت هذه الصلة بين الرمز البصري والمعنى الكوني. الحرف "ألفا" لا يعني شيئاً غير صوته. هو أداة، لا رسالة. فعّال ونظيف وبلا ذاكرة.

وهنا يقع ما يمكن تسميته "اغتراب الذاكرة البصرية". الأجيال التي نشأت تقرأ القبطية أصبحت، بمعنى ما، غريبة عن تراثها المنقوش من حولها. المعابد كانت لا تزال قائمة. الجدران كانت لا تزال مكتوبة. لكن حين يقف شاب قبطي من القرن الخامس أمام نقش هيروغليفي، لا يرى كلاماً - يرى طلاسم.

ليس لأن أجداده كانوا يكتبون بلغة مختلفة. بل لأن طريقة رؤيته للغة نفسها تغيّرت.

قضى المصريون آلاف السنين يُفكّرون عبر الصورة، وينظرون إلى الكون من خلال أبجدية بصرية تربط كل شيء بكل شيء. وفي مدة لا تتجاوز بضعة قرون، انتقلوا إلى تهجئة الكون حرفاً حرفاً في خط مستقيم. كانت تلك هي "المقايضة المؤلمة" في تاريخ الوعي المصري. فبينما كانت الكتابة الهيروغليفية تجربة "متعددة الأبعاد"؛ حيث الرمز الواحد هو صورة (تخاطب العين)، وصوت (تخاطب الأذن)، ومفهوم كوني (تخاطب الروح)، جاءت القبطية لتجعل اللغة "ذات بُعد واحد".

لقد تحولت الكتابة من "أيقونة" مقدسة إلى "أداة" صوتية. في الهيروغليفية، كنت ترى الشمس لتقرأها، أما في القبطية، فصرت تتهجى صوتاً لتتخيلها.

الكفاءة ارتفعت.. لكن العمق انخفض. لقد ربح المصريون لغةً سريعة، دقيقة، وقابلة للانتشار الشعبي، لكنهم خسروا ذلك الرابط السحري الذي كان يجعل الحجر "يتحدث" بصرياً. لقد أصبح العالم أكثر وضوحاً، لكنه أصبح أقل سحراً.

كانت مقايضة.. لم يختر أحد المقايضة بوعي -لكنها وقعت.

الكفاءة ارتفعت. العمق انخفض.

كانت مقايضة. لم يختر أحد المقايضة بوعي -لكنها وقعت.

التجسد لا التحلل:

لكن قبل أن نمضي، ثمة سؤال يطرح نفسه بمرارة في هذا المقام، ولا يحسن السكوت عنه:

هل كان هذا كله خيانةً للهوية؟

هل حين تخلّى المصريون عن خطوطهم القديمة وارتدوا الأبجدية اليونانية كانوا يستسلمون ثقافياً، ويبيعون روحهم بثمن البقاء؟

الجواب - حين تنظر بعمق كافٍ - هو لا.

لأن ما فعله المصريون لم يكن تحللاً. كان تجسّداً. غيّروا القميص لينقذوا الجسد. ضحّوا بالرسم ليحفظوا النطق. ولم يذهب التخلي عن الخط القديم دون أن يتركوا فيه أثراً: تلك الحروف السبعة الديموطيقية التي زرعوها في قلب الأبجدية اليونانية كانت وشماً متعمداً، إعلاناً صامتاً بأن هذا الجسد الجديد - مهما ارتدى من ثياب - يجري في عروقه دم قديم.

لم تكن براءة كاملة. ولم تكن خيانة كاملة. كانت حكمة من لا يملك رفاهية الاختيار المثالي، فيختار ما يُبقيه حيّاً، ويُبقي معه شيئاً من نفسه.

الحضارة التي تأبى كل تحوّل تنكسر وتندثر. والحضارة المصرية اختارت - على مدى آلاف السنين - أن تتحوّل لكي تستمر. لم يكن هذا ضعفاً. كان ذكاءَ من نوع آخر: ذكاء النهر الذي

يجد طريقه حول الصخرة لا من خلالها، رغم انه أحيانا ومع طول الوقت يستطيع ان ينفذ من خلالها.

صمت الحجر. لكن الحنجرة ظلت تغني.

التجسد يعني أن الروح انتقلت لجسد جديد. التحلل يعني أن الجسد انتهى والروح تفرقت. المصريون اختاروا التجسد: احتفظوا بالروح، غيّروا الجسد.

وهكذا، نكتشف أن ما حدث مع القبطية لم يكن حدثاً منعزلاً، بل كان حلقة في سلسلة تحولات طويلة بدأت قبل آلاف السنين.

من كهوف المستكاوي والسباحين حيث رسم الإنسان يده أول مرة، إلى الهيروغليفية التي نُحتت على الحجر، إلى الهيراطيقية التي كُتبت على البردي، إلى الديموطيقية التي جرت في الأسواق، إلى القبطية التي ارتدت ثوباً يونانياً، إلى العربية المصرية التي تتكلمها الآن - في كل مرة كان المصري يواجه نفس السؤال: كيف أبقى حياً؟

وكانت إجابته دائماً: بالمقاومة الصامتة، لا بالاستسلام. بالتحول، لا بالانكسار. بالصهر، لا بالرفض. كأن مصر كانت "بوتقة" تعيد تشكيل نفسها في كل عصر، تحتفظ بالذهب وتتخلى عن الخبث، وتبقى - رغم كل التحولات - هي هي.

وهذه المقاومة الصامتة التي تصهر كل غريب بداخلها هي ما جعلت مصر تبقى حية حين ماتت حضارات كثيرة أخرى. الحضارة التي ترفض كل تحول تنكسر وتندثر. والحضارة المصرية اختارت - على مدى آلاف السنين - أن تتحول لكي تستمر.

سابعاً: الموت الثاني - حين صارت القبطية هي الأخرى لغة الماضي

وكما أن الهيروغليفية ماتت حين فقدت وظيفتها، ماتت القبطية بنفس المنطق حين فقدت وظيفتها هي الأخرى.

مع الفتح الإسلامي عام ٦٤١ ميلادية، لم تختفِ القبطية فجأة. ظلت لغة الكنائس والأديرة، وظلت يتكلمها الناس في بيوتهم وأسواقهم. استمرت عقوداً وقصائد وخطابات تُكتب بها.

لكن حين أصدر الخليفة عبد الملك بن مروان مرسومه بتعريب الدواوين عام ٧٠٥ ميلادية، تكرّر نفس السيناريو الذي رأيناه من قبل: اللغة التي لا تعترف بها السلطة لغة مرشّحة

للتراجع. وبدأت القبطية تنكمش من الشوارع نحو الكنائس، ومن الكنائس نحو الطقوس، ومن الطقوس نحو نصوص لا يفهمها كثير ممن يترنّمون بها.

لكن ثمة فرق جوهري بين موت الهيروغليفية وتراجع القبطية.

الهيروغليفية حين ماتت لم يتبقَّ منها شيء حيّ. صارت نقوشاً صامتة لا يستطيع أحد قراءتها.

القبطية حين تراجعت، احتفظت بحياة مختلفة. ليست حياة الشارع ولا حياة السوق، لكنها حياة المذبح والترتيل. وهذا النوع من الحياة، رغم ما فيه من محدودية، هو نوع له صلابة عجيبة. اللغات الطقسية لا تموت كما تموت لغات الشارع. لأنها لا تحتاج أن تتطور - تحتاج فقط أن تُحفظ. والحفظ فن تتقنه المؤسسات الدينية فوق أي مؤسسة أخرى.

القبطية لا تزال تُتلى حتى اليوم في الكنائس المصرية. أصوات تعود إلى ما قبل الإسلام، تحمل في طيّاتها أصداء أقدم منها بكثير: أصوات مصر التي تكلّمت قبل أن تأتي اليونانية، وبعد أن غادرت الهيروغليفية.

ختام: الوارثة التي لم تقبض الميراث كاملاً

ماذا نقول في النهاية عن القبطية؟

كانت وارثة حقيقية للغة المصرية - بكل ما تعنيه الوراثة من انتقال واستمرار. لكنها ورثت الصوت ولم ترث الرمز. ورثت الكلمات ولم ترث طريقة رؤية العالم التي أنتجتها. ورثت روح اللغة في جسد جديد لم يكن مصنوعاً لها تماماً.

هي لم تخنِ الهيروغليفية. ولم تنقذها. فعلت ما تفعله كل حضارة حين تُضغط من الخارج وتشعر بالفناء من الداخل: ابتكرت حلاً يُبقيها حية - لكنه يغيّرها في الوقت نفسه.

البقاء دائماً له ثمن.

وثمن البقاء القبطي كان الاغتراب عن تلك الجدران المنقوشة التي كانت تُحيط بها من كل جانب. جدران تكلمت يوماً بصوت أجدادها - ثم صمتت، فلم تعد تسمعها.

والأجيال التي جاءت بعدها نظرت إلى تلك الجدران وقالت، بلا أن تقصد الإساءة لأحد: هذه طلاسم.

ومن هنا، من هذا الاغتراب المضاعف - لغة صامتة لا يقرأها أحد، ولغة تالية لا تستطيع قراءة أمها - تبدأ قصة الفصل التالي: لماذا نجح التعريب في مصر وفشل في فارس.

(٨)

القميص الثالث... لماذا نجح التعريب في مصر وفشل في فارس؟

جرح لا يُرى

ثمة جروح تظهر على الجلد فتُعالَج. وثمة جروح تقع في أعماق الذاكرة فلا يراها أحد - حتى صاحبها.

المصري اليوم يعيش فوق اطلال حضارة لا يستطيع قراءتها مباشرة بلغتها الأصلية. يمشي كل يوم بجوار جدران تحكي قصص أجداده ولا يفهم منها حرفاً. يزور متاحف تعرض ميراثه ويقرأ شرح الأثر بالعربية أو الإنجليزية، لا بلغة من نقشه. يسمع الباحثين الأجانب يتكلمون عن حضارته بمعرفة تفوق معرفته هو بها، فلا يدري إن كان ما يشعر به فخراً أم شيئاً آخر أصعب من أن يُسمّى.

هذا الوضع ليس طبيعياً. وليس قدراً. وليس حتماً حضارياً لا مفر منه.

هو نتيجة. نتيجة لسلسلة من القرارات والضغوط والانقطاعات التي تتبّعناها في الفصول الماضية. لكنه أيضاً نتيجة لشيء آخر يستحق أن يُفهم في ضوء مقارنة لا غنى عنها: ما الذي حدث في فارس ولم يحدث في مصر؟

القميص الثالث

رأينا في الفصل السابق كيف غيّر المصريون "قميص لغتهم" مرتين: من الخطوط المصرية القديمة إلى القبطية، ومن القبطية إلى العربية.

لكن القميص الثالث - العربي - كان مختلفاً عن سابقيه اختلافاً جوهرياً.

القبطية حين حلّت محل الهيروغليفية والديموطيقية احتفظت بالصوت المصري. كانت المصرية تُكتب بأحرف أجنبية، لكنها ظلت مصرية في نطقها وكلماتها وجوهرها الداخلي. الجسد تغيّر، لكن الدم بقي.

العربية لم تكن قميصاً جديداً فحسب. كانت جلداً جديداً. لغة مستقلة بقواعدها وعالمها الرمزي وطريقة تنظيم الكون فيها. حين انتقل المصري إلى العربية، لم يغيّر أداة الكتابة فقط - بل دخل إلى نظام لغوي مختلف يعيد تنظيم التفكير.

وهذا ما لم يحدث في فارس.

درس فارس: حين يرفض الشعب أن ينسى

في العام الذي كانت فيه مصر تنهي تحوّلها اللغوي الكبير نحو العربية، كان في خراسان شاعر يجلس أمام ورقه يكتب. اسمه أبو القاسم الفردوسي. قضي أربعين سنة من عمره في مشروع واحد: أن يُدوّن ذاكرة فارس قبل أن تُنسى.

الشاهنامة - كتاب الملوك - ليست مجرد قصيدة. هي الجسر الذي قرر الفرس بناءه بين ماضيهم وحاضرهم. ستون ألف بيت شعري بالفارسية، تحكي ملوك فارس وأبطالها وآلهتها وأساطيرها، من فجر الخليقة حتى الفتح الإسلامي.

الفردوسي كتب بالفارسية. لا باليونانية ولا بالعربية ولا بأي لغة للمحتل. كتب للفارسي الذي يجلس في بيته ويتكلم لغة أجداده، ويريد أن يسمع قصصهم بلسانه هو.

لكن الأعمق من ذلك: الفردوسي لم يرَ في الإسلام عدواً لفارس. لم يضطر إلى الاختيار بين إسلامه وفارسيته. أسلم وكتب الشاهنامة في آنٍ واحد. لأن الفرس بنوا في أذهانهم جسراً بين الأمرين - رأوا في تاريخهم القديم مسيرة إنسانية نحو الحق، وفي إسلامهم استمراراً لتلك المسيرة لا قطيعة معها. هذا الجسر الذهني هو بالضبط ما افتقرت إليه مصر.

ويجب التنويه ان بقاء الفارسية نفسها كان مشبعا بالعربية لفظاً وخطاً، دون أن تفقد بنيتها.

لماذا كانت مصر مختلفة؟ ... العوامل الاربعة

العامل الأول: الهوية الممزقة قبل الإسلام

حين وصل الإسلام إلى فارس، وجد أمامه هوية قومية راسخة متماسكة - إمبراطورية ساسانية بكل ما تحمله من ذاكرة مجد وكبرياء ملحمي. الفارسي كان يعرف من هو قبل أن يسأله أحد.

حين وصل الإسلام إلى مصر، وجد هوية كانت قد تمزقت قبله بقرون. سبعة قرون من الهيمنة اليونانية ثم الرومانية ثم البيزنطية، وعقود من الاضطهاد البيزنطي للكنيسة القبطية - كل هذا ترك المصري في حالة من التعب الهوياتي العميق. لم يكن يبحث عن سؤال "من أنا؟" بل عن إجابة مريحة له.

فجاء الإسلام بإجابة واضحة ومريحة ومُحرَرة.

العامل الثاني: الإسلام كتحرير لا غزو

هذه النقطة يتجاهلها كثيرون حين يتحدثون عن التعريب، لكنها جوهرية.

المصريون الأقباط في القرن السابع كانوا يعيشون تحت اضطهاد بيزنطي حقيقي. الخلاف العقدي بين الكنيسة الإسكندرية والإمبراطورية البيزنطية حول طبيعة المسيح لم يكن خلافاً لاهوتياً فحسب - كان حرباً ثقافية وسياسية مستمرة. حين دخل العرب الفسطاط، استقبلهم كثير من المصريين كمحررين من القيد البيزنطي.

هذا الاستقبال غيّر طبيعة العلاقة بين المصري واللغة القادمة. لم تكن العربية تبدو كلغة المحتل الغاشم. كانت تبدو في بعض الأحيان كلغة التحرير.

في فارس كان الأمر مختلفاً. الفرس هُزموا عسكرياً هزيمة ساحقة - القادسية، ونهاوند، وسقوط المدائن. كانت الهزيمة عميقة وموجعة ومُهينة بما يكفي لتُولّد مقاومة. والمقاومة في هذه الحالة لبست لباس الحفاظ على اللغة والهوية.

العامل الثالث: غياب الشاهنامة المصرية

هذا هو العامل الأكثر إيلاماً في القصة كلها.

الفردوسي لم يخترع الذاكرة الفارسية. وجدها حيّة في الأفواه والقصص الشفهية والملاحم المتداولة، فدوّنها وأعطاها شكلها الخالد. كان يكتب لناس يتكلمون لغة أجدادهم ويحملون ذاكرتهم ولو بشكل مبعثر.

المصري في القرن العاشر الميلادي - حين كان الفردوسي يكتب - كان قد قطع صلته بالهيروغليفية منذ خمسة قرون. لم يكن يحمل ذاكرة شفهية حية عن رمسيس أو تحتمس أو أخناتون. الأسماء كانت منقوشة على الجدران لكنها صامتة. والقصص ماتت مع الكهنة.

لم يوجد فردوسي مصري لأنه لم يكن ثمة ذاكرة شفهية حية يدوّنها. كان على من يريد ذلك أن يبدأ من الصفر - وهذا بالضبط ما حاول بعضهم فعله في القرن التاسع عشر-ظهور الحركة القومية الفرعونية -، فجاء متأخراً ومثقلاً بعبء الانقطاع.

العامل الرابع: الإسلام ولغته الواحدة

ثمة فارق ديني عميق لا يمكن تجاهله.

الإسلام جاء بلغة مقدسة واحدة لا تقبل الاستبدال. القرآن الكريم عربي، وتلاوته عربية، وصلاته عربية. المسلم الذي يريد أن يخاطب الله مباشرة يخاطبه بالعربية - بصرف النظر عن لغة أمه وأبيه.

الإسلام لم يفرض لغة على الشعوب في حياتها اليومية، لكنه قدّم العربية كلغة مركزية للشعائر والمعرفة الدينية، وهو ما منحها ثقلاً ثقافياً استثنائياً.

هذا ليس حكماً قيمياً - هو واقع ديني له أثر لغوي عميق. الفارسي حين أسلم احتاج أن يتعلم العربية للصلاة، لكنه احتفظ بالفارسية للحياة والشعر والإدارة والحب. أما المصري حين أسلم فقد وجد في العربية لغةَ الله ولغةَ الدولة ولغةَ الثقافة في آنٍ واحد. لم تبقَ مساحة بيضاء للقبطية تملأها.

المصري لم يستطع قراءة قصة سنوهي وقصة الملاح الغريق وقصة الاخوين والفلاح الفصيح وتعليم بتاح حتب وامنمحات. لم يطلع على متون الاهرامات او يطالع نصوص الخروج من النهار، الان فقط نعلم لماذا لم يقرأ.

وهنا يحق لنا أن نتساءل بمرارة: أين ذهب "حب" المصريين وقصائدهم؟ أين توارت تلك الترانيم التي كان يهمس بها الفلاح لحبيبته في حقول القصب، أو ينشدها البحار للنيل في ليالي الفيضان؟

الحقيقة أنها لم تتبخر؛ بل فعلت ما تبرع فيه "رانكيمة" دائماً: لقد تسللت روح تلك القصائد القديمة وشجنها المكتوم إلى "المواويل" والأغاني الشعبية العربية. لقد فقد الحب المصري "اسمه" القديم وتخلى عن مفرداته الفرعونية، لكنه احتفظ بنفس "النبرة" الوجدانية. المصري اليوم حين يغني "موالاً" حزيناً، هو في الحقيقة يستحضر صدى صرخة قديمة من عصر الأسرات، لكنها ترتدي -للضرورة- ثوباً عربياً.

العامل الخامس: القرابة الخفية... حين تُشبه اللغة الجديدة لغة قديمة منسية

وثمة عامل أخير يُغفله كثيرون لأنه أعمق من أن يُرى بسهولة.

لكن لنكن دقيقين منذ البداية: حين أتحدث عن "قرابة خفية"، لا أعني أن المصري القديم كان "يتكلم العربية" أو أن العربية هي استمرار طبيعي للمصرية. هذا غير صحيح تاريخياً ولغوياً. ما أعنيه هو شيء أدق وأعمق: وجود بنية لغوية مشتركة على مستوى الجذور والاشتقاق، يعود إلى أصل بعيد مشترك بين اللغتين، يعرفه علماء اللغة الحديث باسم "الأسرة الأفروآسيوية".

اللغة المصرية القديمة - رانكيمة - لم تكن لغة معزولة عن محيطها اللغوي. كانت تنتمي إلى الأسرة الأفروآسيوية، وهي الأسرة ذاتها التي تنتمي إليها العربية. بمعنى آخر: بين المصرية القديمة والعربية قرابة بنيوية حقيقية لا تخص السياسة ولا الدين.

نظام الجذور الثلاثية الساكنة - ذلك المنطق الذي يجعل "ك-ت-ب " أصل كل ما يتعلق بالكتابة، و "د-ر-س" أصل كل ما يتعلق بالدراسة - هذا المنطق موجود في المصرية القديمة بأنماط متقاربة في بنيتها الجذرية. المصري القديم كان يُفكّر بنفس البنية التي يُفكّر بها المتكلم بالعربية، حتى وإن اختلفت الكلمات.

هذا لا يعني أن المصري القديم "عربي" أو أن العربية "مصرية". كل لغة سارت في طريقها المستقل عبر آلاف السنين. لكنه يعني أن المصري، حين سمع العربية لأول مرة، لم يصطدم بغرابة مطلقة. كان هناك عمق مشترك تحت السطح، جعل عملية الانتقال اللغوي أقل عنفاً مما لو كانت اللغة القادمة من أسرة لغوية مختلفة تماماً - كالفارسية أو التركية مثلاً.

هذا يعني أن حين سمع المصري العربية لأول مرة، لم يسمع لغة غريبة كلياً على أعماق دماغه اللغوي. ربما سمع - دون أن يعي - شيئاً يشبه صدىً قديماً.

وحين تنظر إلى خريطة التعريب في العالم الإسلامي، تجد هذا النمط يتكرر بشكل لافت: البلدان التي تعرّبت هي تقريباً نفسها التي كانت تتكلم لغات شرق ادنوية أو أفروآسيوية قبل الإسلام - آرامية في الشام والعراق، أمازيغية في المغرب، مصرية في مصر. بينما البلدان التي احتفظت بألسنتها - فارس والهند وأفغانستان وتركيا وغيرهم من الدول - كانت تتكلم لغات من أسر مختلفة تماماً، لا تشترك مع العربية في بنية ولا في منطق.

هذا التطابق الجغرافي - اللغوي ليس مصادفة. وهو يُضيف بُعداً لم نذكره حين تحدثنا عن أسباب التعريب - بُعد القرابة الخفية التي تجعل الانتقال إلى لغة ما أسهل أو أصعب بصرف النظر عن كل العوامل السياسية والدينية.

الانقطاع الكبير: حين أصبح الماضي تاريخ شعب آخر

والنتيجة التي تراكمت على مدى قرون هي ما تلاحظه اليوم بعينيك.

المصري المسلم يبدأ تاريخ مصر من الفتح الإسلامي. ليس لأن دينه يأمره بذلك - الإسلام لم يقل له اكفر بملوك الاسرات. بل لأنه ببساطة لا يملك أدوات للوصول إلى ما قبل ذلك. اللغة ماتت، والسردية القومية الجامعة لم تُبنَ، والجسر بين الحاضر والماضي البعيد مقطوع.

والمصري المسيحي يبدأ تاريخه من مرقس الرسول. ليس لأن كنيسته تأمره بنسيان ما قبله - بل لأن الانقطاع ذاته سبق المسيحية. الكنيسة القبطية نفسها رأت في الحضارة المصرية القديمة وفي كثير من مظاهرها الدينية إرثاً وثنياً ينبغي تجاوزه.

لكن الإنصاف يقضي بأن نضيف: هذا الموقف لم يولد من فراغ. فالكنيسة القبطية، في القرون الأولى للمسيحية، كانت تدفع ثمناً باهظاً لبقائها تحت حكم بيزنطي رأى فيها "هرطقة" تستحق الإلغاء. في صراعها من أجل البقاء، لم يكن لديها رفاهية النظر إلى التراث الوثني بعين محايدة. كانت ترى فيه - بحق أو بغير حق - تهديداً لوجودها. الموقف من الماضي كان جزءاً من معركة الحاضر، لا مجرد خيار ثقافي حر.

كلا الفريقين إذن يعاني من الانقطاع - لكنهما يبدآن من نقطتين مختلفتين على نفس الخط المتقطع.

وهذا يعني أن ما يبدو أزمة بين المصريين - من أين يبدأ تاريخنا؟ - هو في حقيقته أزمة داخل كل مصري بمفرده. أزمة لا يحلها الجدال بين المصرية القديمة والقبطية والإسلامية، بل حلها يكمن فقط باستعادة الجسر المقطوع.

الحركات الفرعونية: محاولة للحاق بالركب الفارسي:

في القرن التاسع عشر، حين فكّ شامبليون رموز الهيروغليفية وأعاد إلى الحجارة المصرية صوتها، كانت أوروبا تموج بموجة الرومانسية القومية - كل شعب يبحث عن أساطيره

الخاصة ويبني منها هوية حديثة. الإغريق يستعيدون هوميروس، والألمان يكتشفون ملحمة النيبلونغ، والفرس... الفرس كانوا قد أنجزوا مهمتهم على يد الفردوسي قبل ألف سنة.

في هذا السياق بدأ بعض المصريين يتساءلون: ألا نملك نحن أيضاً ماضياً أعظم مما نتصور؟ ألا تكفي تلك الجدران الشاهقة والمعابد الباقية دليلاً على أن في أعماق هذا الشعب ذاكرة تستحق الاسترداد؟

كانت هذه في جوهرها المحاولة المصرية للحاق بما فعله الفرس - استعادة الماضي لبناء الحاضر.

لكنها واجهت عقبة لم يواجهها الفرس: الانقطاع.

الفردوسي كان يبني جسراً فوق نهر. المصري الفرعوني في القرن التاسع عشر كان يحاول بناء جسر فوق هوّة. والفرق بين الأمرين شاسع - لأن الجسر فوق الهوّة يحتاج دعائم لا تلزم الجسر فوق النهر.

وحين غابت الدعائم الطبيعية - الذاكرة الشفهية الحية، واللغة المتصلة، والسردية الجامعة - لجأ بعضهم إلى دعائم بديلة: الرفض والاحتجاج. وهنا تحوّلت الاستعادة من مشروع ثقافي إلى موقف سياسي بل وأحيانا عقائدي، ومن بناء هوية إلى هدم هوية أخرى.

وهذا تحديداً هو ما يجعل بعض تلك الحركات "متطرفة" بالمعنى الدقيق للكلمة: ليس لأن فكرتها خاطئة، بل لأن أداتها البديلة عن الجسر المفقود كانت النفي لا الإثبات.

الطريق الثالث: ما لم يُجرّب بعد

لكن هل هذا يعني أن الاستعادة مستحيلة؟ أن المصري محكوم عليه إلى الأبد بالاختيار بين ماضٍ لا يستطيع قراءته وحاضر لا يستطيع تعمّقه؟

لا. لكن الطريق الثالث يختلف عن كليهما.

ليس طريق "اختر فرعونيتك وتخلَّ عن إسلامك أو مسيحيتك." وليس طريق "ابدأ تاريخك من الفتح وتجاهل ما قبله." هو طريق يقول شيئاً أبسط وأصعب في آنٍ واحد: الانقطاع في الذاكرة جرح يمكن أن يُداوى.

الفارسي أسلم ولم يتخلَّ عن رستم وسهراب. الأوروبي المسيحي لا يرى في أثينا وروما تناقضاً مع إيمانه. اليوناني الحديث يفخر ببريكليس كما يفخر بالقديس كيرلس.

لماذا لا يستطيع المصري أن يفخر برمسيس الثاني كما يفخر بعمرو بن العاص بل ويفخر بالبطريرك بنيامين، لماذا لا تكون الحضارة المصرية القديمة جزءاً من ميراثه هو - لا ميراثاً أجنبياً يزوره في المتحف؟

الإجابة الصادقة: لا يوجد سبب حقيقي يحول دون ذلك. يوجد فقط غياب الجسر. وبناء الجسر ممكن - لكنه يحتاج إرادة وأمانة وشجاعة للنظر في المرآة دون أن تُغمض العينين.

والواقع أننا لم نعد نتحدث عن أمنيات؛ فنحن نعيش الآن "لحظة الاستيقاظ" بالفعل. إن المشاهد المهيبة التي حبست أنفاس العالم في "موكب المومياوات الملكية" عام ٢٠٢١، وصولاً إلى الافتتاح الأسطوري لـ "المتحف المصري الكبير" عام ٢٠٢٥، لم تكن مجرد استعراضات سياحية أو بروتوكولات سياسية. كانت في جوهرها "عملية استرداد" للذاكرة.

في تلك اللحظة، شعر المصري البسيط -لأول مرة منذ قرون- أن هؤلاء الملوك ليسوا "أصناماً" في متاحف، بل هم "أهل" يعودون إلى بيتهم. هذا الكتاب الذي بين يديك الآن، وهذا التأمل الذي نخوضه معاً، ليس إلا جزءاً من هذا الحراك؛ محاولة لترجمة ذلك الشعور الفطري بالانتماء إلى معرفة واعية، وتأكيد على أننا لسنا "ورثة صامتين"، بل نحن أصحاب الحق في قراءة الحكاية من بدايتها.

الفردوسي الذي لم يُقرأ

قبل أن نختم، ثمة اسم يجب أن يُقال بفخر.

قلنا إن مصر لم يظهر فيها فردوسي. قلنا إن الجسر بين رانكيمة والعربية عبر القبطية لم يُبنَ. وكان هذا صحيحاً - لكنه لم يكن صحيحاً بالكامل.

لأن الفردوسي المصري وُجد.

اسمه أحمد كمال باشا. وُلد عام ١٨٥١ ومات عام ١٩٢٣، وقضى عمره كله في مشروع واحد لم يدعمه أحد: أن يبني بيده قواميس تربط الهيروغليفية بالقبطية بالعربية والفرنسية

والإنجليزية في آنٍ واحد - خمس لغات، جسر واحد، عمر بأكمله. وهو أول مصري يتخصص في علم المصريات بشكل منهجي في العصر الحديث

لم يكن هذا عملاً أكاديمياً بارداً. كان إعلاناً: مصر واحدة عبر كل لغاتها، وأبناؤها قادرون على قراءة تاريخهم بأنفسهم.

لكنه واجه ما لم يواجهه الفردوسي: مؤسسة علمية غربية تحتكر المصريات ولا ترى في العالم المصري شريكاً، ودولة مصرية لم تُقنع بعدُ بأن الهيروغليفية تاريخها هي لا تاريخ الغرباء. فعمل وحده، بماله الخاص، بلا دعم ولا اعتراف.

ومات وقواميسه الكبرى في الظل. جزء واحد فقط رأى النور. والبقية لا تزال تنتظر - شاهنامة مصرية لم تُقرأ، وجسر بُني بالكامل ولم يعبر عليه أحد.

سنعود إلى أحمد كمال في رحلة أخرى من هذا الكتاب. لكن نذكر اسمه الآن - لأن في هذا الفصل بالذات، حيث نتحدث عن الجسر الغائب، يجب أن نعترف بأنه لم يكن غائباً دائماً. كان موجوداً. لكن لا الغرب أراد أن يرى، ولا مصر كانت مستعدة أن تسمع.

ختام: أزمة ذاكرة لا أزمة هوية

ما يعانيه المصري اليوم من شعور بالانفصام بين حضارته القديمة وحياته الراهنة ليس - في جوهره - أزمة هوية. الهوية المصرية حاضرة وقوية وجليّة في كل شيء: في طريقة الكلام، وفي علاقة الإنسان بالنيل، وفي نكتة الفلاح، وفي غناء أم كلثوم.

وليست أزمة معتقد. الإسلام والمسيحية يعيشان في مصر منذ قرون، وكلاهما أصبح مصرياً في روحه وإيقاعه وطريقة تعبيره. بل ان المسيحية والإسلام تقاطعا في عادات الناس وتقاليدهم اليومية.

هي أزمة ذاكرة. الذاكرة التي تربط هذا الإنسان بمن كانوا قبله بخمسة آلاف سنة. الذاكرة التي قُطعت حين ماتت اللغة، ولم تُستأنف حين جاءت لغة جديدة.

والذاكرة - خلافاً للهوية والمعتقد - قابلة للاستعادة. لا كاملةً كما كانت، ولا بالطريقة نفسها التي كانت عليها. لكن يمكن أن تُستعاد بما يكفي لأن يقف المصري أمام جدران

معبد الكرنك فيشعر - لا بالدهشة أمام حضارة أجنبية - بل بشيء يشبه التعرف. شيء يشبه العودة إلى بيت طال غيابه عنه، يتحسس جدرانه فيشعر بالحنين.

فالهوية تتشكل في الحاضر، أما الذاكرة فتمتد في الزمن. وإذا انقطعت الذاكرة، بدا الحاضر كأنه بلا جذور، حتى لو كانت الجذور موجودة تحت السطح.

هذه الاستعادة - إن حدثت - ستكون الفردوسية المصرية التي لم تُكتب بعد.

ومن هنا، من ازمة الذاكرة وتجلياتها تبدأ قصة الفصل التالي: قرون من الذاكرة الممزقة، وومضات علمية كادت أن تُعيد الصوت إلى الحجارة قبل شامبليون بألف عام.

(٩)

الذاكرة الممزقة... ومضات في العتمة

الصمت الذي يتكلم

الصمت ليس شيئاً واحداً.

ثمة صمت الفراغ، حين لا يوجد أحد يتكلم ولا أحد يستمع. وثمة صمت الإزاحة، حين يكون هناك كلام كثير جداً - لكنه كلام آخر، بلغة أخرى، يملأ الفضاء ويدفع ما سبقه إلى الهامش. وثمة صمت الخوف، حين يعرف من يتكلم أن لا أحد سيصدّق ما يقوله.

الهيروغليفية عاشت الأنواع الثلاثة بعد عام ٣٩٤ ميلادية.

لكن هذا الفصل ليس عن الصمت. هو عن الومضات التي خرقته - تلك اللحظات النادرة حين أقترب شخص ما من الحقيقة، ومدّ يده نحوها، ثم... لم يصلها. إما لأن الزمن لم يكن مهيأً، أو لأن أحداً لم يسمع، أو لأن الصوت الآخر - الأعلى والألحن والأكثر إقناعاً - كان دائماً أشد حضوراً.

قصة تلك الومضات هي واحدة من أكثر قصص التاريخ إثارةً للتأمل المرّ: كيف يمكن للإنسان أن يقف على عتبة الحقيقة ويعود دون أن يدخل؟

الطبقة الأولى: بيزنطة تُسدل الستار

بعد مراسيم ثيودوسيوس، وسقوط السيرابيوم، ومقتل هيباتيا، ورحيل الكاهن الأخير، لم تمت الهيروغليفية فجأة. ماتت كما تموت الجمرة تحت الرماد: ببطء، في دفء خادع، حتى تكتشف يوماً أنك تمدّ يدك للدفء فلا تجد شيئاً.

أغلقت المعابد لكن لم تُهدم كلها. بعض الكهنة تفرّقوا في القرى والمدن. بعضهم تحوّل إلى الرهبنة. وبعضهم ظل لسنوات يمارس طقوسه بعيداً عن أعين السلطة، في الجنوب البعيد، حيث لا تصل مراسيم الإمبراطور بسرعة، وحيث الحجارة أكثر وفاءً من الأنظمة.

لكن الكنيسة المصرية كانت تعرف ما تفعل. حين أرادت أن تُرسّخ العقيدة الجديدة في قلوب المصريين، قدّمت لهم صفقة تاريخية لم تُسمّ صفقة: احتفظوا بلغتكم المصرية، لكن تخلّوا عن خطّها المرتبط بالوثنية. تكلّموا مصري، لكن اكتبوا يوناني.

وُلدت القبطية: لغة مصرية في جوهرها، لكنها مكتوبة بالأبجدية اليونانية مع إضافة سبعة حروف ديموطيقية لأصوات لا يعرفها اليونانيون. كانت تبدو في ظاهرها جسراً يربط الماضي بالحاضر. لكنها في عمقها كانت شيئاً آخر: كانت القطيعة بعينها، مُغلَّفة بورق التواصل.

لأن الكتابة ليست مجرد حروف. الكتابة نظام تفكير. والهيروغليفية لم تكن مجرد طريقة لتسجيل الأصوات - كانت طريقة لرؤية العالم، تربط بين الشكل والمعنى والصوت في نسيج واحد لا يُفكّك. حين استُبدلت بحروف يونانية، لم تُحفظ اللغة. حُفظ صوتها فقط، فيما ضاع جسدها الرمزي إلى غير رجعة.

ثم جاءت الطبقة الثانية من الصمت.

الطبقة الثانية: العربية تُكمل العزل

في عام ٧٠٥ ميلادية، أصدر الخليفة عبد الملك بن مروان مرسوماً بتعريب دواوين الإمبراطورية الإسلامية. لغة الإدارة التي كانت يونانية في مصر أصبحت عربية.

لم يكن هذا عداءَ للمصريين أو لتراثهم. كان قراراً إدارياً حتمياً أراد توحيد صوت الإمبراطورية الجديدة. لكن نتيجته كانت أن مصر خسرت آخر اللغات التي كانت تربطها - ولو من بعيد - بعالم الكتابة الهيروغليفية القديمة.

تراجعت القبطية التي كانت لغة الدين إلى الكنائس والأديرة. وأصبحت العربية هي لغة الشارع والسوق والديوان. وبحلول عام ٧٥٠ ميلادية تقريباً، كانت الهيروغليفية قد دُفنت تحت ثلاث طبقات متراكمة من الإحلال اللغوي: البيزنطي الديني، والقبطي اللاهوتي، والإسلامي الإداري.

ثلاثة أغطية فوق جثة لم تُدفن بعد.

لأن الجثة كانت لا تزال على الجدران. في كل معبد، في كل مقبرة، في كل مسلة. النقوش موجودة، والرموز مرسومة، والكلام محفور في الحجر. لكن لا أحد يعرف كيف يقرأه.

العرب أمام الحجارة: حين يُفضّل العقل العِبرة على اللغز

ومع ذلك، لم تكن مصر أرضاً منسية. كانت أرضاً تُزار وتُدرس وتُوصف - لكن من زاوية مختلفة تماماً.

حين وصف المسعودي في القرن العاشر الهيروغليفية، قال إنها "خط القبط وكتبهم." وصف دقيق. لكنه لم يقل: دعوني أفكّها. حين رسم الإدريسي في القرن الثاني عشر خرائطه الذهبية لأرض مصر، وصف المسلات والتماثيل والأهرامات بدقة لافتة. لكنه لم يُحاول قراءة ما عليها.
وقبل هؤلاء جميعاً، كان الخليفة المأمون قد قدم درساً عملياً في طبيعة هذا "الفضول العربي" تجاه مصر.

ففي عام ٨٣٢ ميلادية، وقف المأمون بجيشه وعلمائه أمام الهرم الأكبر، لا ليطرح على الجدران أسئلة لغوية، بل ليشُقّ طريقه نحو "الكنوز" و"العلوم المكتومة". شقّ المأمون نفقاً عنيفاً في جسد الهرم -وهو الفتح الذي نستخدمه كمدخل للسياح اليوم- مدفوعاً بشغف يمزج بين الرغبة في الذهب والبحث عن أسرار الفلك والكيمياء.

لقد نجح المأمون في اختراق "المكان"، لكنه لم يحاول اختراق "المعنى". كان الهرم بالنسبة له خزنةً حجرية هائلة، لا نصاً يحتاج إلى قراءة. كسر الحجر ليجد "الشيء"، ولم يفكر في كسر "الشفرة" ليجد "الكلمة". لقد كانت الحجارة بالنسبة لخليفة بغداد "مستودعاً" لا "كتاباً".

وحين جلس عبد اللطيف البغدادي - ذلك الطبيب العراقي الفضولي - في مصر عام ١٢٠٠ ميلادية، وكتب وصفه الرائع للأهرامات والمومياوات والآثار، كان يرى في كل ذلك "عبرة للمعتبرين." أدلة على قدرة الله وعلى زوال الأمم. حجارة تُذكّر بأن كل شيء يفنى.

لماذا هذا النهج دون غيره؟

الإجابة ليست في جهل العلماء المسلمين، بل في طبيعة سؤالهم. الحضارة الإسلامية كانت تنظر إلى مصر من خلال عدسة القرآن الكريم: أرض فرعون الذي طغى، وموسى الذي نجا. الآثار المصرية كانت تُقرأ كدرس أخلاقي كوني، لا كأحجية لغوية تنتظر من يحلّها. الدافع لم يكن موجوداً ليجعل فكّ الشفرة ضرورة.

وفي المقابل، كانت أوروبا المسيحية تنظر إلى مصر بعيون مختلفة تماماً: أرض الكتاب المقدس، حيث يوسف باع قمحه، وحيث موسى ربّي في قصور فرعونها، وحيث لجأت العائلة المقدسة في فرارها إلى مصر. كانت أرضاً ذات معنى ديني مُلحّ يستدعي الفهم.

لكن أوروبا كانت أيضاً تحمل معها ذلك الفلتر الهرمسي الذي عرضناه في الفصل الأول: رغبة في أن تجد في مصر حكمة سحرية كونية، لا نظاماً لغوياً عادياً. وهذه الرغبة كانت ستصطدم - في لحظة ما - بعقل حاد يرفضها ويقرأ الرموز كما هي: أصواتاً، لا أسراراً.

لكن قبل أن يأتي ذلك العقل الأوروبي، جاء عقل آخر. عقل من الشرق. عقل كان يمكنه أن يُغيّر كل شيء.

ابن وحشية: المفتاح الذي لم يفتح باباً

في مكان ما من العراق، في نهايات القرن التاسع أو مطالع العاشر الميلادي، جلس رجل يُدعى أبو بكر أحمد بن علي بن وحشية النبطي، وفتح كتاباً غريباً ستُسميه لاحقاً "شوق المستهام في معرفة رموز الأقلام."

كان ابن وحشية من أهل العلم العملي، مهتماً بالزراعة والسموم والكيمياء. لكنه كان أيضاً فضولياً بطريقة نادرة في زمنه: فضولياً نحو الكتابات القديمة. تلك النقوش المصرية التي يراها الناس ويمرّون بها، ويسمّيها من يسمّيها سحراً أو طلاسم أو حكمة الأوائل المفقودة.

لكن ابن وحشية لم ير سحراً. رأى لغة.

وهذا الفرق بين الرؤيتين هو الفرق بين شامبليون ومن سبقه بعشرة قرون.

قدّم ابن وحشية في كتابه أول جدول مقارن معروف في التاريخ للرموز الهيروغليفية، ربط فيه بعضها بمقابلاتها في اللغات الأخرى. ثم فعل شيئاً أكثر أهمية: أدرك أن بعض تلك الرموز لا تمثّل أفكاراً أو صوراً فلسفية، بل تمثّل أصواتاً.

أصواتاً. مجرد أصوات. مثل الحروف.

هذه الجملة القصيرة - بعض الرموز تمثّل أصواتاً - هي بالضبط الجملة التي أطلقها شامبليون عام ١٨٢٢ لفكّ شفرة الهيروغليفية. لكن شامبليون جاء بعد ابن وحشية بتسعة قرون.

تسعة قرون.

تخيّل لو أن المعرفة التي وصل إليها ابن وحشية وجدت من يسمعها. تخيّل لو أن عالماً في القرن العاشر أو الحادي عشر أخذ جدوله المقارن ذلك، وطوّره، ووجد نصاً مكتوباً بلغتين كحجر رشيد - كان موجوداً أصلاً - واستخدم المنهج الصحيح لاختبار فرضيته.

كان التاريخ سيَكتب بطريقة مختلفة تماماً. كانت الهيروغليفية ستنطق مجدداً في زمن ابن رشد وابن سينا والبيروني، حين كانت الحضارة الإسلامية في أوجها وكانت أوروبا لا تزال تبحث عن نفسها.

لكن هذا لم يحدث. بقي كتاب ابن وحشية في مكانه، نُسخ وتناقله بعض العلماء، لكنه لم يُحرّك موجة. لم يُلهم متابعة. لم يُفجّر تساؤلاً يستدعي الإجابة.

لماذا؟

لأن السؤال الذي كان يطرحه ابن وحشية - ما هي أصوات تلك الرموز؟ - لم يكن سؤالاً يُلحّ على الحضارة الإسلامية في ذلك الزمن. كان سؤالاً يتيماً بلا بيئة تحتضنه، بلا مجتمع علمي يُكمله، بلا مشروع حضاري يجعله ضرورة.

ومعرفة بلا ضرورة تموت في الأدراج.

ذو النون وسرّ أخميم

وكان قبله - أو ربما بعده، التواريخ تتشابك - رجل آخر من طينة مختلفة. ذكرناه بالفصل الأول.

تروي بعض الروايات بان ذو النون المصري. صوفي من أخميم، تلك المدينة التي كانت في العصر القديم واحدة من أهم مراكز الكهنوت المصري وعبادة الإله مين. رجل قضى حياته في مدينة كانت لغتها القديمة منقوشة على كل جدار وكل عمود. رجل كان يمشي كل يوم بجوار حجارة تتكلم بلغة لا يتكلمها أحد.

يروي بعض المصادر أن ذو النون كان يستطيع قراءة بعض تلك النقوش. لم يصف ما يراه سحراً. لم يبحث فيه عن خيمياء أو طلاسم. رآه ما كان عليه: علماً.

علماً ضائعاً.

ربما كان يرث شذرات من ذاكرة بقيت ممزقة في أخميم، في ذاكرة العائلات التي توارثت شيئاً من التراث الكهنوتي القديم، في شكل قصص أو طقوس أو معرفة لغوية جزئية لم تُكتب بوضوح كافٍ لتنتقل سليمة.

لكن حتى ذو النون لم يُنتج كتاباً جامعاً. لم يُؤسّس مدرسة. جاءت معرفته ومضةً ثم اختفت كما جاءت.

كانت الحضارة الإسلامية في تلك القرون مليئة بمثل هذه الومضات: عالم هنا يُلاحظ شيئاً، وآخر هناك يُدوّن ملاحظة. لكن الومضات لم تجتمع لتُشعل ناراً.

ولاشتعال النار احتاجت أوروبا ألف سنة أخرى.

الغرب يختار الأسطورة: حجارة هور أبوللون

في القرن الخامس أو السادس الميلادي - في تلك المنطقة الضبابية بين ما قبل الإسلام وما بعد روما - كتب شخص يُدعى "هور أبوللون" كتاباً يشرح فيه الهيروغليفية.

وصل هذا الكتاب إلى أوروبا في القرن الخامس عشر، وكان وصوله أشبه بإلقاء حجر في بركة راكدة. مفكرو عصر النهضة الذين كانوا يبحثون عن الحكمة الأزلية المصرية، وجدوا فيه ما يريدون.

فماذا كان يقول هور أبوللون؟

كان يقول إن الهيروغليفية ليست أبجدية بل فلسفة مرسومة. كل رمز يحمل فكرة كونية عميقة لا صوتاً عادياً. "يرسمون الأوزة ليرمزوا إلى الابن، لأن الأوزة تحب صغارها بجنون." "يرسمون العين ليرمزوا إلى الله، لأن الله يرى كل شيء." "يرسمون النسر ليرمزوا إلى السنة، لأن النسر يعيش ألف عام."

كان جميلاً. كان عميقاً. كان يُغذّي بالضبط تلك الرغبة الأوروبية في أن تكون مصر مستودع الحكمة الكونية الخفية.

وكان في معظمه خاطئاً خطأً جوهرياً.

الأوزة تعني "الابن" فعلاً في الهيروغليفية - لكن ليس لأن الأوزة تحب صغارها. بل لأن الكلمة المصرية للأوزة كانت تُنطق بصوت مشابه لكلمة "ابن". كانت العلاقة صوتية لغوية بحتة، مثل لعبة الجناس، لا رمزية كونية. هور أبوللون رأى التشابه الشكلي وبنى عليه فلسفة كاملة، متجاهلاً أن الهيروغليفية في جوهرها نظام صوتي كالعربية والإنجليزية.

لكن أوروبا عصر النهضة لم تكن تريد سماع الحقيقة الصوتية المتواضعة. كانت تريد الحكمة الكونية المبهرة.

كيرشر: المتاهة المبهرة

وجاء في القرن السابع عشر من حوّل كل هذا إلى صرح.

أثناسيوس كيرشر. الكاهن اليسوعي الألماني. واحد من أغرب شخصيات التاريخ الفكري: عقل موسوعي هائل، يتقن اثنتي عشرة لغة، يكتب في الفيزياء والموسيقى والجيولوجيا وعلم الأوبئة والمصريات واللاهوت والرياضيات. لو أن شخصاً واحداً كان يستحق أن يفكّ رموز الهيروغليفية في ذلك الزمن، فهو كيرشر.

لكنه لم يفكّها.

لكنه لم يكن غبياً...

ولم يكن ينقصه الذكاء.

كانت مشكلته أعمق من ذلك بكثير:

كان أسير فرضية خاطئة.

فرضية تقول إن الرمز يخفي حكمة، لا صوتاً...

وأن مهمته ليست أن يقرأ، بل أن يُفسِّر.

في كتابه الضخم "أوديب المصري" - أربع مجلدات ضخمة من الثقة بالنفس المُدوّنة - لم يحاول كيرشر أن يقرأ الهيروغليفية. حاول أن يستخرج الحكمة منها. كان مؤمناً بكل صدق أن كل رمز هيروغليفي يخفي سراً فلسفياً، وأن مهمته هي الكشف عن ذلك السر لا فهم تلك اللغة.

فما الذي فعله بالنقوش؟

أخذ خرطوشاً ملكياً يحتوي على اسم الملك أبريس - ستة رموز لا أكثر، تُنطق: وا-ح-ي-ب-ر-ع. اسم. مجرد اسم.

ترجم كيرشر ذلك الخرطوش هكذا: "تدفق الرطوبة الإلهية من السماء، ممثَّلة بالوعاء الأوزيري، يُعلن ظهور حفيد أوزير وإيزيس، الذي بواسطته تُخصَّب مصر من فيضان النيل الذي يحمل البركة الإلهية."

ست رموز (أحرف) تحولت فقرة فلسفية كاملة.

هذا ما أسميناه في الفصل الأول "الهراء المبهر." وهو وصف دقيق: كان هراء من حيث علاقته بالحقيقة، ومبهراً من حيث بلاغته وعمقه الظاهر وثقة صاحبه.

ولأن كيرشر كان أحد أعظم العلماء في أوروبا - رجلاً تكاتبه ملوك وأباطرة وبابوات - أصبحت "ترجماته" الحقيقة الرسمية في الأكاديميات الأوروبية لأكثر من قرن. من كان يجرؤ على مخالفة كيرشر؟ كانت الفكرة مسمومة في ذاتها: لا يُعترض على من يعرف كل شيء.

وأُغلق الباب.

المفارقة الكبرى: صوتان لا يسمع أحدهما الآخر

وهكذا تكتمل المفارقة التي تستحق أن تُحكى:

في الشرق، كان ابن وحشية - وقبله ذو النون، وبعده آخرون من أمثالهما - يمتلكون المنهج الصحيح: النظرة الصوتية للهيروغليفية. كانوا ينظرون إلى الرموز ويقولون: "هذه أصوات، مثل حروف." لكنهم أنتجوا معرفة متشظية لم تجد بيئتها الحاضنة، ولم تُلهم حركة علمية مستدامة، ولم تُكمل مشوارها.

وفي الغرب، كان كيرشر وسابقوه ولاحقوه - يمتلكون المنهج الخاطئ: النظرة الرمزية الهرمسية. كانوا ينظرون إلى الرموز ويقولون: "هذه أسرار كونية لا أصوات." لكنهم أنتجوا منظومة مبهرة موحّدة هيمنت على الخيال الأوروبي لقرون، وأغلقت الباب أمام الحقيقة بمزلاج من الذهب.

الصوت الذي يملك الحقيقة بقي صامتاً في المخطوطات.

والصوت الذي يملأ المجال بالوهم ملأ الكتب والأكاديميات والمتاحف والخيال الشعبي.

وبين هذين الصوتين، ظلت الهيروغليفية صامتة.

انتظار غير واعٍ

لكن ثمة شيء آخر حدث في تلك القرون الطويلة بين صمت إسمت-آخوم عام ٣٩٤ وفكّ شامبليون للشفرة عام ١٨٢٢.

ثمة قرى في صعيد مصر ظلت تحتفظ بأعياد تشبه أعياداً فرعونية قديمة، وإن تغيّرت أسماؤها وتشكّلت بروح دينية جديدة. وثمة تقاليد معمارية بقيت تستعير أشكالاً من المعابد في زخارف الكنائس والمساجد. وثمة ذاكرة جغرافية لا تموت: أسماء القرى والمدن والجبال والترع ظلت مصرية في جوهرها حتى حين لم يعد أحد يعرف أصلها.

كانت مصر تحمل ذاكرتها بطريقتها الخاصة: لا في الكتب، بل في الجسد. في طريقة البناء، وفي نغمة الأغنية، وفي شكل الوجوه، وفي علاقة الإنسان بالنيل والتراب والموت.

لم تكن معرفة لغوية. لكنها لم تكن نسياناً كاملاً. كانت ذاكرة بلا كلمات، انتظرت بصبر الأجيال من يُعيد إليها لسانها.

ختام الرحلة الثانية: الرمز ينتظر

ستة فصول. ست محطات في رحلة واحدة.

رأينا كيف بدأ الموت بعيداً ومبكراً، حين وصل الإسكندر بلغته اليونانية وجعل الهيروغليفية تنكمش نحو الهامش. ثم كيف تعاون الرومان والكهنة أنفسهم على تضييق مساحة البقاء - الرومان بتجفيف التمويل، والكهنة باحتكار المفتاح. ثم كيف جاءت الضربة القاضية مع ثيودوسيوس وثيوفيلوس وهيباتيا وسقوط السيرابيوم. وأخيراً كيف ملأ الغرب الفراغ بأسطورته الخاصة، بينما كان الشرق يحتفظ ببذرة الحقيقة دون أن يجد من يزرعها.

لكن الحجارة ظلت واقفة.

في كل مكان تذهب في مصر، كانت الحجارة تحمل رسائل لم يقرأها أحد منذ أربعة عشر قرناً. كانت تعرف من بناها ولماذا، وماذا خُطّ عليها وبأي صوت. كانت تنتظر.

لغة تنتظر قارئاً. وقرن ينتظر عقلاً بسيطاً يُدرك ما أغفله كل من سبقه: أن الأوزة لا ترمز إلى الابن لأنها تحب صغارها - بل لأن الأوزة والابن يُنطقان بصوت واحد.

وأن الحقيقة أحياناً في غاية البساطة.

وأحياناً البساطة هي آخر ما يُكتشف.

وفي الرحلة الثالثة، حين تُفتح تلك الحجارة أخيراً...

حين تنبعث منها أصوات الاحرف وتبعث الكلمات...

لن يكون ذلك على يد أعظم علماء عصره،

ولا أكثرهم موسوعية،

ولا أكثرهم إيماناً بالأسرار.

بل على يد شاب لم يرَ في الرمز حكمة...

بل سمع فيه صوتاً.

شاب سيكتشف ما أغفله الجميع:

أن الأوزة ليست فكرة... بل حرف.

وأن اللغة - مهما بدت غامضة - تبدأ دائماً من أبسط شيء: الصوت.

وهكذا، وبينما نام كتاب 'ابن وحشية' في ظلام المخطوطات، استيقظ شاب في 'غرونوبل' ليقرأ نفس الحجر بقلبٍ مصري وأدواتٍ فرنسية. لقد حان الوقت لتخرج رانكيمة من صمتها.. لا كأهزوجة سحرية، بل كحكاية إنسان.

اسمه: جان فرانسوا شامبليون.

لكن الطريق إلى ذلك الاسم لم يكن طريقاً ممهداً بالنزاهة وحدها. كان هناك صراع على الحجر قبل أن يكون صراعاً على الحقيقة. وكان هناك سباق بين كبار المستشرقين في أوروبا، كل يريد أن يسبق الآخر إلى المجد. وكان هناك سويدي مرهف الحس، وإنجليزي هاوٍ، وفرنسي عنيد. وكان هناك أيضاً - دائماً هناك - سؤال لم يُطرح بصوت عالٍ: من يملك هذا الماضي الذي نحاول استعادته؟

لن نعرف بعد. لكننا سنعرف قريباً. لأن ما سنراه في "رحلة البعث" ليس مجرد انتصار علمي، بل هو أيضاً مشهد من مشاهد ذلك الصراع الأكبر: صراع الغرب مع ذاته وهو يحاول امتلاك ما ليس له.

رحلة البعث



مقدمة: حين يُعاد فتح الأرشيف

في نهاية رحلة الموت، تركنا الحجارة صامتة.

رموز محفورة في الجدران، تنتظر منذ أربعة عشر قرناً من يقرأها. لغة دُفنت تحت طبقات من الوهم الهرمسي والتأويل السحري والهراء المبهر. وفوق كل ذلك، صمت إمبراطوري مؤسسي أغلق المعابد وشتّت الكهنة وأحرق المكتبات.

لكن هذا البعث لم يكن مجرد انتصار للعقل على الحجر. كان أيضًا معركة خفية على الملكية. فالحجارة التي نُقشت عليها حكاية مصر لم تكن ملكًا لمن يمتلك المتحف الأكبر أو المكتبة الأغنى، بل كانت ملكًا لمن يستطيع أن يقرأها بقلبه قبل أن يقرأها بعقله. وهذا بالضبط ما جعل رحلة البعث ليست قصة علم فقط، بل قصة هوية: من يملك الماضي يملك الحاضر.

لكن الحجارة لم تختفِ.

لم تكن الحجارة صامتةً لأنها فقدت صوتها، بل لأن الآذان تغيرت. كانت تنتظر من يسمعها لا بعين المستكشف الغريب، بل بقلب الوارث الضائع. كانت تنتظر من يدرك أن فك الشفرة ليس انتصاراً لعقل على حجر، بل هو مصافحة بين حاضر وماضٍ ظنا الجميع أنه مات.

"رحلة البعث" هي قصة القرون الطويلة التي قضاها الإنسان يحاول فتح ذلك القفل. وهي ليست - كما تُروى عادةً - قصة بطل واحد عبقري وصل في اللحظة المناسبة وفك الشفرة. بل هي ملحمة أكثر تعقيداً وأشد إيلاماً: سباق تتابع امتد ألف سنة، جرى على مضمارين لم يتقاطعا حين كان يجب أن يتقاطعا.

المضمار الأول: علماء عرب ومسلمون اقتربوا من الحقيقة لأنهم نظروا إلى الهيروغليفية كشفرة تُكسر لا كسر إلهي يُعبد. كانوا يسألون: ما الصوت؟

المضمار الثاني: مفكرون أوروبيون ابتعدوا عن الحقيقة لأنهم نظروا إليها كحكمة كونية مخفية. كانوا يسألون: ما السر؟

والفارق بين السؤالين هو الفارق بين ألفية ضائعة ولحظة اكتشاف.

لم تكن تلك الألف سنة فارغة. كانت مليئة بالمحاولات، والومضات، والمفاتيح التي كادت أن تفتح الباب. لكنها لم تفتح. لأن من كان يحمل المفتاح كان يسأل السؤال الخطأ، أو كان يسأل السؤال الصحيح في المكان الخطأ.

لكن - وهذا ما لا تقوله الروايات الرسمية - حتى لحظة الاكتشاف لم تكن بريئة. كانت مشحونة بالسياسة والسرقة والصمت المحسوب. وحين نطقت الحجارة أخيراً، لم تكن تنطق بكلمات من اختارهم التاريخ ليسمعها.

سنرى في هذا القسم كيف تحولت اللغة المقدسة إلى ورقة مساومة بين الدول، وكيف أصبح فك الرموز سباقاً محموماً بين لندن وباريس، بينما كان أصحاب الأرض الحقيقيون يقفون متفرجين على تراثهم. سنرى الانتصار العلمي، لكننا سنرى أيضاً ثمنه الباهظ.

هذه الرحلة تروي كيف عاد الصوت إلى الحجر. ومن أسكته قبل أن يُعاد.

(١٠)

الألفية المفقودة... المضمار الذي لم يُكتمل

السؤال الذي يُحرج التاريخ

ثمة سؤال لا يطرحه أحد بصراحة كافية في كل ما كُتب عن فك رموز الهيروغليفية:

إذا كان ابن وحشية في القرن العاشر الميلادي قد أدرك أن الهيروغليفية نظام صوتي لا رمزي - وإذا كان كيرشر في القرن السابع عشر يُتقن القبطية أفضل من أي أوروبي معاصر له - وإذا كان الرحّالة نيبور قد قال بوضوح عام ١٧٩٢ "ابدأوا بفك هذه الرموز بمساعدة اللغة القبطية" - فلماذا استغرق الأمر ألف سنة حتى يأتي شامبليون ويفعل بالضبط ما قاله نيبور؟

الإجابة ليست في الذكاء. ليست في القدرة. وليست في الصدفة.

الإجابة في الدافع.

الدافع الذي يُسيّر البحث العلمي.

لغة العصافير - حين بحث العرب عن الذهب في الكلمات

أطلق العرب على الهيروغليفية اسماً يكشف كيف رأوها: "لغة العصافير". أو "قلم الطير". وفي تلك التسمية الشاعرية خيط من الحقيقة - لأن الهيروغليفية تزخر بصور الطيور: العقاب للحرف "أ"، وفرخ السمان للحرف "و"، والبومة للحرف "م". طيور تحمل أصواتاً لمن يعرف كيف يسمعها.

لكن كثيراً من العرب لم يبحثوا عن الأصوات. بحثوا عن شيء آخر.

كان الاعتقاد السائد في العصر الذهبي الإسلامي أن النقوش الهيروغليفية المنقوشة على "البرابي" - المعابد الفرعونية - تخفي أسرار الكيمياء. طريقة تحويل المعادن العادية إلى ذهب. وصفات العقاقير النادرة. حكمة قدماء المصريين المصوّرة بشفرة لا يُفكّها إلا من أوتي العلم.

كان علماء الكيمياء يقفون أمام جدران المعابد ويرون مخطوطات لا نقوشاً. وعلماء التصوف كانوا يرون مرايا روحية لا أصواتاً لغوية. وكان بعضهم يرى فيها طلاسم السحر الذي سيكشف أسرار الكون.

وهكذا - بسبب رفع الهيروغليفية إلى مستوى من القداسة والغموض يجعلها فوق متناول اللغة العادية - فاتتهم الحقيقة البسيطة التي كانت أمامهم: أن هذه الرموز كلام. مجرد كلام بشري عادي.

ابن وحشية - الرجل الذي وصل إلى الباب ولم يفتحه

هنا لا نكرر ما قلناه في الرحلتين السابقتين، في القرن التاسع أو العاشر الميلادي - التواريخ تتشابك حوله، والروايات تختلف، بل إن بعض الباحثين يشككون في وجود شخصية بهذا الاسم أصلاً - يُنسب إلى أبو بكر أحمد بن علي بن وحشية النبطي كتابٌ سماه "شوق المستهام في معرفة رموز الأقلام".

وعلى الرغم من هذه الشكوك، يظل الكتاب وثيقة فريدة أثبتت أن علماء الحضارة الإسلامية كانوا يمتلكون منهجاً تحليلياً متطوراً تجاه الهيروغليفية، حتى لو اختلفنا على اسم المؤلف الحقيقي.

فعل ابن وحشية شيئاً لم يفعله أحد قبله: نظر إلى الهيروغليفية ولم ير فيها أسراراً كونية. رأى فيها نظاماً. شفرة قابلة للكسر. وأدرك - بعقل تحليلي نادر في زمنه - أن بعض رموزها لا تمثل أفكاراً فلسفية بل تمثل أصواتاً. حروفاً. مقاطع.

وصل إلى قيم صوتية لبعض العلامات. وأدرك فكرة "المخصصات" - تلك العلامات الصامتة التي توضع في نهاية الكلمة لتحديد معناها. وهذه الفكرة بالذات - التي أثبت دكتور عكاشة الدالي في كتابه "الألفية المفقودة" أن جداول ابن وحشية لها تطابقت مع "قائمة جاردينر" الحديثة - هي بالضبط ما سيكون أحد مفاتيح شامبليون بعد تسعة قرون.

لكن ابن وحشية فشل في فتح الباب كاملاً. ليس لأنه لم يكن ذكياً - بل لأنه أضاع المفتاح الذي كان بجانبه.

هذه الألفية لم تكن مجرد تأخير علمي. كانت فقداناً للملكية. كان المصري يقف أمام جدران معابده ويرى عليها أسماء أجداده، لكنه لا يملك مفتاح قراءتها. التراث كان موجوداً أمامه، لكنه لم يكن ملكاً له. كان ملكاً لمن يستطيع أن يسأل السؤال الصحيح - وفي ذلك الزمن، لم يكن أحد يسأل.

كان يعيش في العراق. بعيداً عن مصر. بعيداً عن الكهنة الأقباط الذين كانوا يتكلمون كل يوم بلغة هي آخر فرع حي من اللغة المصرية القديمة. ولم يربط - أو لم يستطع أن يربط - بين الرموز التي يدرسها والأصوات التي كانت تُنطق في الكنائس المصرية على بُعد آلاف الكيلومترات منه.

والأهم من ذلك، أنه كان يعمل بدون ما سيحصل عليه شامبليون بعد تسعة قرون: نصّ ثنائي اللغة يُقارن بين الرموز ونظيرها المعروف.

لقد أدرك ابن وحشية أن الهيروغليفية تحمل أصواتاً - وهذه هي نصف الحقيقة.

لكن النصف الآخر، المفتاح التطبيقي الذي يُثبت الفرضية ويحوّلها إلى نظام قابل للقراءة، كان غائباً.

لم يكن لديه "حجر رشيد".

ولم ينشر أحد كتابه بالعربية لأكثر من تسعمائة سنة. جلس في المخطوطات صامتاً. حتى نشره المستشرق النمساوي جوزيف فون هامر برجشتال عام ١٨٠٦ بالإنجليزية - أي قبل إعلان شامبليون اكتشافه بستة عشر عاماً فقط.

ستة عشر عاماً!

ذو النون - الصوت المحلي الذي ابتلعه التصوف

وكان هناك صوت آخر، أقرب من ابن وحشية إلى الحقيقة جغرافياً وربما روحياً. رجل اسمه ذو النون المصري، من مدينة أخميم في صعيد مصر - تلك المدينة التي كانت في العهد القديم واحدة من أكبر مراكز الكهنوت المصري وعبادة الإله مين.

ذو النون كان يألف البرابي - المعابد المدمرة. كان يجلس أمام الجدران المنقوشة ويقرأ - أو يحاول القراءة. تقول بعض المصادر إنه كان يُجيد قراءة بعض النصوص الهيروغليفية. وإنه لم ير فيها سحراً، بل رأى فيها علماً ضائعاً.

لكن ذو النون وصل إلينا كـ "صوفي"، كـ "عارف بالله"، كـ "أحد أقطاب التصوف الإسلامي". وصل إلينا في الرداء الذي ألبسه إياه عصره - لا في الرداء العلمي الذي ربما كان الأجدر به. وحين تُقرأ ملاحظاته اللغوية المتفرقة في سياق التصوف لا في سياق علم اللغة، تموت قبل أن تُولد.

كان ابن أرض المعابد. كان يسكن المكان الصحيح. يتنفس الهواء الصحيح. لكن عصره وجد قبل ان ينشأ "علم المصريات" كتخصص بقرون. ولم يكن لديه من يأخذ ملاحظاته ويطورها. فبقيت ومضة في الظلام.

الشيء المشترك - يسألون السؤال الخاطئ بالطريقة الصحيحة

هنا تكمن المفارقة الكبرى التي تجمع العرب والمسلمين في هذا الفصل:

كانوا يمتلكون المنهج الصحيح - النظرة التجريبية، علم التعمية، القدرة على رؤية النظام في الشفرة - لكنهم كانوا يوجهون هذا المنهج نحو السؤال الخاطئ.

كانوا يسألون: "ما الحكمة المخفية في هذه الرموز؟"

بدلاً من: "ما الصوت الذي يمثله هذا الرمز؟"

والفارق بين السؤالين يبدو بسيطاً. لكنه كان يعني الفارق بين ألفية من الجهد الضائع وعقد من العمل المثمر.

الهيروغليفية لم تكن تخفي أسرار الكيمياء. لم تكن تحمل حكمة كونية عميقة أكثر من أي لغة أخرى. كانت - ببساطة مذهلة - كلاماً. يكتب فيها الفلاح عقد إيجار حقله، والكاهن نص صلاته، والكاتب اسم الملك. كلام عادي لناس عاديين يعيشون حياتهم.

وهذه البساطة بالذات كانت آخر ما يتخيله من رفع الهيروغليفية إلى مقام الطلسم.

الغرب قبل حجر رشيد - هراء بلا نهاية

أما الغرب، فكانت قصته مختلفة في الشكل متشابهة في الجوهر.

هور أبوللون في القرن الخامس الميلادي وضع "دليل المستخدم" الخاطئ للهيروغليفية: كل رمز فكرة فلسفية لا صوت لغوي. الأوزة تعني "الابن" لأنها تحب صغارها. الصقر يعني "الأم" لأن جنس الصقور لا يضم غير الإناث. وهكذا.

هذا الدليل الخاطئ - الذي كشفنا في رحلة الموت كيف سيطر على الخيال الأوروبي لقرون - جعل كل من جاء بعده يبحث في الاتجاه الخاطئ. حتى كيرشر، ذلك العقل الموسوعي الذي كان يُتقن القبطية ويعرف أعمال ابن وحشية ويملك كل مفاتيح الحل - اختار عمداً أن يسلك طريق هور أبوللون لا طريق الصوت. لأن الإطار الهرمسي كان أقوى من الدليل. ولأن "الحكمة الكونية المخفية" كانت أجمل وأكثر إثارة من "اسم ملك بطلمي".

ولم يكن كيرشر غبياً - بل كان أسير فرضية. كان يرى ما يتوقع أن يراه، لا ما هو موجود أمامه. وكلما ازداد ذكاؤه، ازداد إحكام القفص الذي صنعه لنفسه.

وهكذا امتد الهراء المبهر.

حتى عام ١٧٩٢، حين وقف الرحّالة الدنماركي نيبور أمام النقوش المصرية وقال جملة يجب أن تُنقش على باب كل متحف مصريات في العالم: "إذا كان في هذه الكتابة ما يشبه الأبجدية، فعلينا أن نبدأ بفك رموزها بمساعدة اللغة القبطية."

لم يُصفَّق له. لم يتبعه أحد فوراً. لكن البذرة وُضعت.

الصوت الذي لم يُسأل أحد عنه - الأقباط

وفي كل هذا السرد الطويل - العرب يبحثون، والأوروبيون يتخبطون - ثمة صوت كان حاضراً طوال الوقت ولم يسأله أحد.

الأقباط. أحفاد الكتبة الأصليين. الذين تجري في أفواههم، كل يوم، في صلواتهم وأغانيهم وأحاديثهم، أصوات اللغة المصرية القديمة في طورها الأخير. الذين يملكون - دون أن يعلموا أحياناً - المفتاح الصوتي الحي للهيروغليفية الصامتة.

لماذا لم يسأل أحد الأقباط؟

ولماذا لم يسألهم الأوروبيون الذين توافدوا إلى مصر وهم يحملون "دليل هور أبوللون" الخاطئ في أيديهم؟

لأن الأقباط أنفسهم كانوا قد قرروا - كما رأينا في رحلة الموت - أن يضعوا مسافة بينهم وبين ماضيهم "الوثني". الهيروغليفية في وجدانهم كانت رموز معابد الأصنام لا إرث أجدادهم. والخجل من الماضي كان أقوى من الفضول نحوه.

وهكذا كان المفتاح موجوداً، ولم يكن في غرف العلماء ولا في مخطوطات بغداد ولا في متاحف روما. كان في أفواه الناس العاديين، في كنائس الصعيد، في ترتيل الرهبان فوق حجارة المعابد القديمة التي تحوّلت إلى أديرة، في لهجات أهالي الصعيد وأهالي الريف.

كان الراهب القبطي في دير القديس أنطونيوس يقرأ صلاته بالقبطية كل صباح، دون أن يعلم أن الأصوات التي ينطق بها هي أصداء بعيدة لأصوات كان الكهنة ينطقون بها في معابد إدفو ودندرة قبل ألفي عام. كان الفلاح في أسيوط ينادي على ابنه بكلمة "مم" (أي كل) أو "إمبو" (اشرب)، دون أن يعلم أنه يتحدث لغة كان يتحدث بها أجداده قبل أن يُولد الفراعنة الأوائل. لكن لا أحد سألهم. ولا أحد سجل.

خلاصة: الباب كان مفتوحاً دائماً

حين ننظر إلى هذه الألفية المفقودة من الجهد الإنساني نحو فك الهيروغليفية، نرى حقيقة مؤلمة واحدة:

لم يكن المفتاح مفقوداً. كان هناك دائماً.

ابن وحشية وصل إلى بنيته النظرية. ذو النون كان يجلس أمام الجدران ويقرأ. الأقباط كانوا يحملونه في أفواههم. ونيبور قال بصراحة أين يكمن.

لكن ثلاثة أشياء أخّرت اللحظة ألف سنة:

أولاً: الدافع. الجميع كانوا يبحثون عن "الحكمة المفقودة" لا عن "اللغة العادية".

ثانياً: الانقطاع. ابن وحشية في بغداد، والأقباط في مصر، ونيبور في كوبنهاغن - ولم يجلس أحدهم في غرفة واحدة.

ثالثاً: السلطة. من يملك حق تعريف الهيروغليفية؟ من يملك حق القول عن معناها؟ هذا السؤال - الذي سيظل يطارد الكتاب حتى صفحته الأخيرة - كان يُجاب دائماً لصالح من يملك المؤسسة والمال والسلطة.

لا لصالح من يملك المعرفة.

ولأنهم جميعا كانوا جميعاً يفتشون في القبور عن لغة، بينما كانت اللغة نفسها حية، تُتلى كل صباح أحد في قداس قبطي، في دير في الصعيد، وفي كنيسة صغيرة في القاهرة. كان المفتاح لا يزال في فم مصري، لكن أحداً لم يفكر أن يسأل صاحبه، لأن صاحبه نفسه كان يظن أنه يحمل صلاة، لا شفرة.

الألفية المفقودة لم تنتهِ لأن أحداً وجد حجراً. انتهت لأن أحداً أخيراً، بعد أربعة عشر قرناً من الصمت، قرر ألا يقرأ النقش، بل أن يسمعه.

ولم يكن ذلك الرجل عالماً عربياً في مكتبة، ولا قساً قبطياً في دير. كان شاباً فرنسياً في باريس، سيطرق باباً لم يطرقه أحد من قبل. باب رجل لم يكن يعرف أنه يحمل مصر كلها في لسانه.

اسمه كان يوحنا الشفتيشي.

(١١)

الصوت الحي ... الرجل الذي كان المفتاح

باريس، شتاء ١٨٠٨

لم يبدأ كل شيء في معبد في الأقصر، ولا أمام حجر رشيد في المتحف البريطاني. بدأ على سلّم حجري بارد في شارع سان أونوريه.

كان شاب فرنسي نحيل في الثامنة عشرة من عمره، اسمه جان فرانسوا شامبليون، يطرق باب كنيسة صغيرة. فتح له رجل مصري في الستين، لحيته بيضاء، يتكلم الفرنسية بلكنة ثقيلة. لم يكن لقاء عالمين، كان لقاء تلميذ يبحث عن صوت، وكاهن يملك الصوت دون أن يعرف ثمنه.

كتب جان فرانسوا شامبليون لأخيه في تلك الليلة: "سأزور كاهناً قبطياً في سان روك... سيعلمني الأسماء القبطية ونطق الحروف القبطية. أكرّس نفسي كلياً للغة القبطية". كان يبحث عن شيء لا يوجد في أي كتاب في أوروبا كلها: كيف تُنطق الكلمة حين تخرج من فم مصري حقيقي.

في مذكرات شامبليون الخاصة وفي رسائله إلى أخيه فيجر، كتب شامبليون لأخيه: 'أكرّس نفسي كلياً للغة القبطية لأنني أريد أن أعرف المصرية القديمة كما أعرف الفرنسية. عملي العظيم على البرديات سيستند إلى هذه اللغة.' كان يكتب هذا وهو يخرج من كنيسة سان روك.". هذا الاعتراف الذي كتبه شامبليون بنفسه يُظهر أن الكاهن المصري لم يكن مجرد "مساعد"، بل كان الحلقة الحية التي ربطت بين الماضي والحاضر.

ذلك الكاهن كان يوحنا الشفتيشي.

الصمت المُدبّر: لماذا غُيّب اسم يوحنا الشفتيشي؟

لم يكن الصمت عن دور يوحنا الشفتيشي مجرد سهو أو نسيان عابر. كان قرارًا ثقافيًا وسياسيًا واعيًا. في أوروبا أوائل القرن التاسع عشر، كان الغرب يبني أسطورته الجديدة: "العبقري الأوروبي" الذي يكتشف حضارات الشرق. الاعتراف بأن "كاهنًا مصريًا قبطيًا" هو

من أعطى شامبليون "الصوت الحي" الذي فتح رموز الهيروغليفية كان سيَفسد هذه الأسطورة تمامًا.

كان يجب أن يبقى البطل فرنسيَا أبيض، والاكتشاف أوروبيَا خالصًا.

في عصر التنوير والقوميات الأوروبية، كان "الشرقي" - حتى لو كان مسيحيًا - يُنظر إليه كمصدر معلومات أو "مساعد فني"، لا كشريك فكري متساوٍ. هذا التراتب الثقافي لم يكن سرًا، بل كان جزءاً من السردية الاستعمارية المعرفية التي سيطرت على كتابة التاريخ آنذاك.

لذلك اختُصر اسم يوحنا الشفتيشي في معظم السير الرسمية إلى سطر واحد، ثم غُيَب تمامًا. لم يكن النسيان بريئًا. كان صمتًا مُدبّرًا ليبقى شامبليون "المكتشف الوحيد".

من كان يوحنا الشفتيشي؟

لا نعرف عنه الكثير، وهذه هي المأساة الأولى. وُلد في القاهرة في الربع الأخير من القرن الثامن عشر، عمل مترجماً مع الجيش الفرنسي بين ١٧٩٩ و١٨٠٢، ثم هاجر إلى فرنسا بعد انسحاب نابليون بونابرت، وأصبح كاهن الأقباط المهاجرين في باريس. المصادر الأكاديمية تلخصه في سطر واحد حاسم: كاهن قبطي وعالم علّم القبطية لـ جان فرانسوا شامبليون، مما مكنه من فك الهيروغليفية.

لا صورة له. لا مذكرات. لا تمثال في ميدان. حتى اسمه كُتب في كتب سيرة جان فرانسوا شامبليون بثلاث طرق مشوهة " وُرد اسمه في المراجع الغربية كـ "Yuhanna Chiftishi"، و"Jean Chiftichi"، و"Abou Chifti". أما اسمه الحقيقي فظل ضائعاً في الترجمة."، ضاع في الفهارس لمئتي سنة. هذا كل ما تبقى من رجل حمل مصر في حنجرته إلى قلب أوروبا.

لكن هناك باحث مصري عن الحقيقة وعن الدور المصري في ارشيفات باريس تشرح دور الكاهن يوحنا الشفتيشي ويكتب صفحة مستحقة في التاريخ عن دوره في فك رموز الهيروغليفية.

خاتمة الصمت: صدى يوحنا في أرشيفات باريس

لم يترك يوحنا الشفتيشي خلفه مذكرات تحكي معاناته، ولا تماثيل في ميادين باريس تخلد ذكره -سبق وان ذكرنا سبب ذلك، لكن القدر ترك لنا "وثيقة إنصاف" بقيت مخبؤه في ركام

السنين، حتى نبش عنها الباحث المصري القدير الدكتور أنور لوقا في قلب الأرشيفات الفرنسية، ليخرج للعالم ورقة هي بمثابة "صك اعتراف" بفضل هذا الرجل المنسي.

في السادس من أبريل عام ١٨١٦ م، اجتمع سبعة من عمالقة العلم في القرن التاسع عشر- أولئك الذين رسموا خرائط المعرفة في "وصف مصر"- ليكتبوا شهادة تاريخية في حق القس يوحنا الشفتيشي. لم تكن مجرد تزكية للحصول على معاش، بل كانت انحناءة احترام من "الأساتذة" لـ "المعلم الأكبر".

"إنه رجل يمتلك ثقافة لغوية واسعة النطاق، وهو بحرٌ زاخر في القبطية والعربية والتركية.. ومع هذا العلم كله، لا يزيده ذلك إلا زهداً وتواضعاً وعفة."

كان من بين الموقعين السبعة:

سيلفستر دي ساسي: شيخ المستشرقين في أوروبا.

جومار وفورييه: من كبار علماء الحملة الفرنسية ومحرري "وصف مصر".

هذه الشهادة التي أعاد اكتشافها أنور لوقا، هي الدليل الجنائي الأخير على أن يوحنا لم يكن مجرد "مُلقن" لغوي، بل كان المحرك الصامت خلف أعظم اكتشاف في القرن التاسع عشر. لقد اعترف الغرب بفضله في وثيقة رسمية عام ١٨١٦، بينما أهمله التاريخ المدرسي مائتي عام.

اليوم، حين نذكر اسم الشفتيشي، نحن لا نذكر كاهناً مهاجراً فحسب، بل نذكر "الحنجرة المصرية" التي لولا رنينها الصادق، لظل حجر رشيد حطاماً صامتاً، ولظلت حروف الأجداد طلاسم بلا روح.

ما أهمية دوره؟

إن دور الشفتيشي لم يكن في القواعد، بل في (الفونيمات)؛ أي الأصوات الخام. القبطية هي المرحلة الأخيرة من المصرية القديمة، وحين كان الشفتيشي يرتل في كنيسة 'سان روك'، كان يعطي شامبليون (الرنين) الذي مات منذ قرون. لولا هذا الرنين، لظل كتاب ابن وحشية مجرد رموز صامتة، ولظلت أفكار توماس يونغ مجرد تخمينات رياضية. الشفتيشي هو من نفخ الروح في الحروف لتتحول من 'رسم' إلى 'كلام'.

لماذا صمت؟

لم يصمت يوحنا الشفتيشي لأنه جاهل، بل لأنه وريث تقليد عمره ألف سنة.

منذ أن حرّم الإمبراطور ثيودوسيوس الأول الديانات الوثنية عام ٣٨٩م، وأبطل بذلك الهيروغليفية والديموطيقية بشكل نهائي، تغير كل شيء. وفي القرن الرابع الميلادي بطل نهائيا الكتابة بأي خط من الخطوط الهيروغليفية والهيراطيقية.

وجاء بعده الأنبا شنودة رئيس المتوحدين، فقاد بنفسه حملات تكسير المعابد ومحو النقوش، لأنها كانت في عينيه بيوت شياطين. التاريخ الكنسي يوثق هذا التدمير كجزء من تحول مصر من دين إلى دين.

هكذا تعلمت الكنيسة القبطية درساً قاسياً للبقاء: احفظ الصوت، وامحُ الصورة. احتفظوا بالقبطية كلغة للصلاة والقداس، لأنها آمنة ومفهومة، وتركوا الهيروغليفية لأنها كانت مرتبطة بتحوت وآمون، بآلهة حاربها آباؤهم.

هذا لم يكن حقداً، كان بقاءً.

لذلك، حين جلس يوحنا الشفتيشي أمام جان فرانسوا شامبليون، كان يعطيه نطق كلمة "نتر" (إله) وهو يظن أنه يعلم لغة صلاة، لا أنه يعيد بعث لغة معبد كان أجداده يهدمونه. كان يحمل المفتاح في لسانه، لكنه تربى على الاعتقاد بأن الباب الذي يفتحه كان باباً لمعبد شيطاني.
وربما كان يعرف. ربما كان يوحنا يدرك أنه يقدم المفتاح لرجل فرنسي سيفتح به باباً أوصته كنيسته بإغلاقه. لكنه مع ذلك، نطق. لأنه كان يؤمن - ككاهن - أن الصوت المقدس لا يُدفن مع الجدران.

وإن كان هذا قد تغير الآن، فالكنيسة القبطية الأرثوذكسية اليوم تفتخر بالهيروغليفية كجزء من التراث الوطني وتدرّسها في معاهدها، لأن الخوف زال وبقيت اللغة.

الكتاب الذي كان على الرف

في نفس الشتاء الذي كان فيه يوحنا الشفتيشي "المصري" ينطق الحروف، كان على بعد شارعين فقط، في مكتبة باريس الوطنية، كتاب آخر ينتظر.

في عام ١٨٠٦، أي قبل لقاء باريس بسنتين فقط، نشر المستشرق النمساوي جوزيف فون هامر- برجشتال ترجمة إنجليزية لكتاب عربي من القرن العاشر. الكتاب اسمه "شوق المستهام في معرفة رموز الأقلام"، ومؤلفه رجل عراقي اسمه ابن وحشية.

ابن وحشية لم يفك الشفرة كاملة، لكنه كتب جداول تقول إن هذه العلامة تساوي "م"، وتلك تساوي "س". حاول قبل جان فرانسوا شامبليون بتسعمائة سنة، وفشل لأن الصوت الحي لم يكن معه.

كتاب "شوق المستهام" لابن وحشية لم يكن مجرد محاولة، بل كان (اختراقاً منهجياً). هو أول من أدرك أن الهيروغليفية ليست "رموزاً سحرية" أو "إشارات فلسفية" كما ظن الإغريق، بل هي (أبجدية صوتية).

هل هذه الفكرة هي التي التقطها شامبليون وبنى عليها "القفل" الذي فتحه بصوت الشفتيشي؟

المخرج الذي جمع الخيوط

هنا تكتمل الصورة، وهنا يجب أن نكون أمناء مع جان فرانسوا شامبليون.

لم يسرق جان فرانسوا شامبليون شيئاً. جان فرانسوا شامبليون كان عبقرياً من نوع آخر. كان مخرجاً.

أمامه كانت ثلاث مشاهد متناثرة:

بنية من ورق: كتاب ابن وحشية المنشور منذ ١٨٠٦.

صوت من لحم ودم: يوحنا الشفتيشي الذي ينطق القبطية كل أحد.

فكرة من إنجلترا: توماس يونغ الذي قال إن الخراطيش أسماء ملوك.

لوحده، كل واحد منهم كان ناقصاً. ابن وحشية امتلك البنية بلا صوت. يوحنا الشفتيشي امتلك الصوت بلا بنية دون ان يدري. توماس يونغ امتلك الفكرة بلا جرأة.

جان فرانسوا شامبليون هو الوحيد الذي جمع المشاهد الثلاثة. أخذ الجداول من العربي، وأخذ النطق من القبطي، وأخذ المنهج من الإنجليزي، ثم أضاف عبقريته الخاصة: الجرأة على القول إن الهيروغليفية ليست رموزاً سحرية، بل لغة كباقي اللغات.

والأمانة تقتضي ان نقول انه أضاف مشهدا رابعاً لم يكن موجوداً في أي من المشاهد الثلاثة: الشجاعة على كسر "الإطار الهرمسي" الذي سيطر على أوروبا لقرون. الإطار الذي قال إن الهيروغليفية "فلسفة مرسومة" لا لغة منطوقة.

فبينما كان ابن وحشية يبحث عن الأصوات، وكيرشر يبحث عن الأسرار، كان شامبليون يجرؤ على القول: "هذه لغة. مجرد لغة. مثل العربية، مثل الفرنسية. تُنطق وتُكتب وتُفهم." هذه الجرأة وحدها جعلته مختلفاً.

في ١٨٢٢، لم يكتشف جان فرانسوا شامبليون المفتاح، بل صنع القفل الذي يدور فيه المفتاح.

خاتمة

لم يفك يوحنا الشفتيشي الهيروغليفية، لأنه لم يُسمح له أن يحاول. ولم يذكر التاريخ ابن وحشية، لأن أوروبا لم تكن تقرأ العربية. وذكر التاريخ جان فرانسوا شامبليون وحده، لأنه كان الوحيد الذي كتب.

لكن الحقيقة، كما هي دائماً، كانت عملاً جماعياً عبر ألف سنة.

يوحنا الشفتيشي لم يكن عالماً، كان أميناً. حافظ على الصوت حياً في كنيسة صغيرة في باريس حتى يأتي من يستحق سماعه. التاريخ نسيه لأنه فقط تكلّم، ولم يكتب.

هذا الفصل هو محاولة أخيرة، متأخرة مئتي سنة، لجعل كلامه مكتوباً. وبعده بجيل، جاء أحمد كمال باشا ليحمل نفس الصوت، لكن هذه المرة بالعربية، ويحاول بناء الجسر الذي بدأه يوحنا الشفتيشي دون أن يعلم. لكن تلك قصة الرحلة التالية رحلة الاستمرار.

في الفصل التالي، يصل الحجر الذي سيَغيّر كل شيء. ليس من يد عالم، بل من يد جندي كان يهدم جداراً قديماً في مدينة صغيرة على مصب النيل.

وهناك - وللمرة الأولى منذ أربعة عشر قرناً - لن يأتي من يبحث عن سر... بل من يسمع صوتاً.

شاب لم يرَ في الرمز حكمة... بل سمع فيه لغة. اسمه: شامبليون.

(١٢)

الحجر الذي نطق... غنيمة حرب تُغيّر التاريخ

جندي يهدم جداراً



في أغسطس ١٧٩٩، كان الجندي بيير-فرانسوا بوشار يُشرف على أعمال توسيع تحصينات قلعة "قايتباي" امر ببنائها الأشرف قايتباي **وأطلق عليها المحتل قلعة سان جوليان** في مدينة رشيد، قرب مصب النيل الغربي. عمل روتيني في حملة عسكرية باتت تلفظ أنفاسها. كان نابليون قد غادر مصر قبل أيام قليلة، أو ربما كان لا يزال على متن السفينة في البحر، تاركاً جيشه خلفه في أرض لا مستقبل فيها.

حين هُدم أحد الجدران القديمة، لاحظ بوشار حجراً غير عادي. لم يكن مجرد حجر. كان مكسواً بنقوش من ثلاثة خطوط مختلفة. أدرك أنه أمام شيء مهم، فأوقف العمل وأبلغ قياداته.

لم يكن بوشار يعلم أنه وجد ما كان يبحث عنه العالم ألف سنة.

كان يعلم فقط أن الحجر يستحق أن يُرى.

المفارقة الساخرة: حين أصبح "المفتاح" طوبة في جدار

لم يعثر "بيير فرانسوا بوشار" على حجر رشيد في خزانة ملكية، ولا في محراب معبدٍ مهيب، بل وجده مدفوناً في "أساسات" طابية عسكرية قديمة (طابية رشيد أو قلعة جوليان).

هنا تتبدى لنا واحدة من أقسى صور "العماء المصري" في تلك العصور؛ فالحجر الذي كان يحمل "مرسوماً ملكياً" مقدساً مكتوباً بثلاث لغات ليبقى للأبد، انتهى به المطاف "كحشوة" إنشائية، مجرد "طوبة" صماء تسند جداراً دفاعياً. لقد تحول "لسان الحضارة" إلى "كتفٍ" يحمل مدافع الغزاة والمدافعين على حدٍ سواء، دون أن يجرؤ أحدٌ طوال قرون على سؤال ذلك الحجر: "ماذا تقول؟".

كان العمال المصريون - وربما المماليك من قبلهم - يمرون عليه كل يوم، يلمسون سطحه الخشن، وربما استندوا إليه في قيلولتهم، دون أن يدركوا أنهم يلمسون "بوابة الزمان". لقد كان الحجر "مرئياً" للعين، لكنه كان "محجوباً" عن الوعي.

وإذا كان الفرنسي بوشار قد وجده بالمصادفة، فالمصادفة وحدها هي التي صنعت الفارق بين بصرٍ لا يرى وبصرٍ يرى.

أعاد ذلك الى ذاكرتي ما كتبه جان جاك رينو – نحات فرنسي وصل إلى مصر عام ١٨٠٥ وقضى أربعين عاماً فيها، **جمع خلالها آلاف الآثار** وكتب مذكرات عن رحلته. وقضى أربعين عامًا بها " أن المصريين كانوا يشعرون بالحيرة من القيمة العالية التي يضفيها الأجانب على قطع قديمة عديمة الجدوى من الحجر والتماثيل. وتوصلوا إلى تفسيراتهم الخاصة لذلك فالبعض قال إن المنقبين من الوثنيين - يقصدون نابشي القبور الأوربيين- الذين يعبدون الآلهة القديمة؛ لأنهم رأوهم يربتون على التماثيل، ولأنهم أحياناً ما يرطبون الحجر بألسنتهم ليحددوا تكوينه، فقيل إنهم يقبلون أصنامهم سًرا، في حين ذكر آخرون ممن حيرهم الجهد والنفقات التي يقدمها الأوربيون ليحصلوا على شظايا: أن المرمريات القديمة تحوي ذهبًا، وأن المنقبين قد اكتشفوا سر استخراجه". كان الضباب يلف رؤية المصريين لآثارهم ولمجدهم الغابر كما اوضحنا في رحلة الموت.

هذه هي المفارقة التي تسبق كل بعث: أن يكون الخلاص تحت أقدامنا مباشرة، بينما نحن نبحث عنه في السماء. لقد سكنت "روح مصر" في ذلك الجدار المظلم، بانتظار معول "بوشار" ليزيح عنها تراب النسيان، ويحولها من "أنقاض بناء" إلى "حجر زاوية" في بناء التاريخ البشري كله.

في تلك اللحظة بالذات، كان المصري العادي يقف أمام الحجر ولا يدري أنه يحمل مفتاح حضارته. كان يراه "طوبة" في جدار دفاعي، أو قطعة أثرية يمرّ بها السياح، أو شيئًا يُنقل إلى لندن كغنيمة. لم يكن يعرف أن هذا الحجر هو صوته هو، الذي سُرق مرتين: مرة حين أغلقت المعابد، ومرة حين أخذت الحجارة إلى المتاحف الأوروبية. هكذا تحولت مصر من صاحبة الحكاية إلى متفرجة على حكايتها.

ما كان مكتوباً على ذلك الحجر

الحجر قطعة من جرانوديوريت داكن -الصخور النارية- مكسورة من أعلاها وجانبها الأيمن. حين كانت كاملة كانت تبلغ تقريباً ١١٢ سنتيمتراً ارتفاعاً و٧٥ سنتيمتراً عرضاً.

كُتب عليها نص واحد بثلاث لغات وثلاثة خطوط: الهيروغليفية في الأعلى، والديموطيقية في الوسط، واليونانية في الأسفل. كان النص مرسوم ملكي بطلمي من عام ١٩٦ قبل الميلاد - في عهد الملك بطليموس الخامس - يُعدّد فيه الكهنة المجتمعون في منف فضائل ملكهم ويأمرون بنشر هذا الإعلان في المعابد.

كلام إداري عادي. لا سحر فيه ولا حكمة كونية. مجرد مرسوم.

لكن في ذلك النص العادي كانت تكمن الثروة: اليونانية معروفة ومفهومة. والديموطيقية والهيروغليفية - حين يُثبت أنهما يحملان نفس النص اليوناني - يصبحان مرآة يمكن من خلالها البدء في كسر الشفرة.

سيمفونية الذهول الأولى: قلم الأزهر وقلم الهيكل

حين دخلت الحملة الفرنسية القاهرة، كان عبد الرحمن الجبرتي يراقب. المؤرخ المصري الكبير الذي لم يكن "مجرد ناقل أحداث بل كان ضمير اللحظة" - على حد تعبيره هو عن نفسه - لم يستقبل الفرنسيين بترحاب ولا بكراهية عمياء. استقبلهم بعيني المؤرخ الذي يرى كل شيء.

ما رآه جعله في حيرة أكبر من الغزو العسكري.

كره نابليون ودعايته. كتب عن إعلانه الذي حاول فيه مغازلة المسلمين: "كلام بلا معنى... كذب وحماقة." ورأى في الفرنسيين "ماديين ينكرون صفات الله والآخرة". واستنكر سلوكهم اليومي بالتفاصيل الصغيرة الصادمة التي يُسجّلها المؤرخ الثاقب.

لكنه ذهب أيضاً إلى المجمع العلمي الذي أسّسه الفرنسيون. ووقف أمام مكتبتهم المنظمة وأدواتهم العلمية الدقيقة. وكتب: "كانوا يملكون معارف عجيبة وكتباً غريبة."

هذه الرؤية المزدوجة - المحتل المكروه والعالِم المُبهر - هي أصدق شهادة على ما كانت تعنيه الحملة الفرنسية على مصر. لم تكن فقط غزواً. كانت صداماً حضارياً أنتج شيئاً لم يخطط له أحد: اكتشاف حجر رشيد.

ولم يكن عبد الرحمن الجبرتي وحده الرائي في ذلك الزمان. ففي نفس السنوات، وفي أروقة الكنيسة المرقسية بالأزبكية، كانت يد مصرية أخرى تدوّن الزلزال نفسه في "تاريخ البطاركة - سيرة البيعة" في عهد البابا مرقس الثامن.

إذا كان الجبرتي قد رأى في مدافع الفرنسيين ومنطادهم ومطبعتهم "سحراً" يهدد سكينة العالم القديم، فإن كاتب سيرة البيعة رأى فيهم "غرباء" يتكلمون لغة لا تشبه صلاة المصريين، رغم ادعائهم القربى. سقطت هيبة المماليك في دفتر الأزهر، وسقط وهم "الحماية القادمة من البحر" في دفتر البطريركية، حين نُهبت الكنائس كما نُهبت المساجد، ودُفعت المكوس من جيب الفلاح نفسه.

هنا، ولأول مرة، لم يعد السؤال "من يحكمنا؟" بل "من نحن أمام هؤلاء؟". توحّد الألم، فتوحّدت العين التي ترى.

وحين عثر الجندي بوشار على الحجر في رشيد، لم يكن يعلم أنه يقدم للمصريين مرآة واحدة. مرآة ستُري بعد قرن أن اللغة التي يحرسها مصري في الأزهر بالعربية، ويحرسها مصري آخر في الهيكل بالقبطية، تنبع من نفس النقش ونفس الطين. لأن المصري، في هذا الكتاب، هو قبطي بالتعريف القديم. مسلماً كان أو مسيحياً، هو ابن هذه الأرض وحارس لسانها.

الغنيمة تنتقل من يدٍ ليد

حين سمع نابليون بالحجر، أمر بنقله إلى المعهد العلمي في القاهرة. وأمر بعمل نسخ منه وإرسالها إلى علماء أوروبا. كان يعرف قيمته - قيمته السياسية والعلمية معاً.

ثم خسر نابليون الحملة.

وفي معاهدة الاستسلام عام ١٨٠١ بين الفرنسيين والإنجليز، كانت المادة السادسة عشرة واضحة: تُسلّم الآثار المصرية التي في حيازة الحملة الفرنسية إلى الإنجليز.

دافع العلماء الفرنسيون عن حقهم في الاحتفاظ بثمرة جهودهم العلمية بلهجة صريحة: "القائد العام يتجاوز سلطاته إذا اعتقد أن من حقه التصرف في ثمرة جهود العلماء التي هي ملكهم الخاص." احتج الجنرال مينو لصالحهم، لكنه فشل.

انتقل الحجر إلى لندن في فبراير ١٨٠٢. ومنذ ذلك الحين، يجلس في المتحف البريطاني. وعلى ظهره كلمات لا تزال منقوشة حتى اليوم بصفاقة استعمارية نادرة:

".Captured by British Army"

غنيمة حرب. ليس أكثر ولا أقل.

النقش الرابع: الوشم الذي لم يمحُه الزمن

بينما كان العالم يحتفي بوجوه الحجر الثلاثة (الهيروغليفية، الديموطيقية، واليونانية)، كان هناك "نقش رابع" حُفِرَ بقسوة على جانبيه؛ نقش لم يكتبه كاهن مصري، ولم يباركه إله قديم.

على الحافة اليسرى للحجر، وبأحرف إنجليزية بارزة، كُتبت عبارة:

"Captured by the British Army in 1801"

(استولى عليه الجيش البريطاني عام ١٨٠١). وعلى الحافة اليمنى:

"Presented by King George III"

(أهداه الملك جورج الثالث).

هذا هو "النقش الأحدث"، وهو الأكثر صدقاً في التعبير عن رحلة الحجر المعاصرة. لقد تحول الحجر من "وثيقة دينية" إلى "غنيمة حرب"؛ ومن "جسر للمعرفة" إلى "شهادة ملكية".

وهنا تبدأ القصة الجديدة

بينما كان شامبليون في باريس يحارب لفك شفرة "الروح" (اللغة)، كان الحجر "الجسد" يقبع أسيراً في لندن، خلف زجاج بارد، يحمل وشم الغلبة العسكرية.

كانت معركة فك الرموز هي "معركة استرداد الوعي"، لكن بقاء الحجر في "المتحف البريطاني" ظل يذكرنا بأن السيادة على التاريخ لا تقل شراسة عن السيادة على الأرض.

لقد نطق الحجر أخيراً.. لكنه نطق وهو في السجن. فك شامبليون الرموز، لكنه لم يستطع فك القيود.

وهنا يطل السؤال الأهم:

هل استعدنا لغتنا حقاً، أم أننا استعدنا فقط "حق القراءة" بينما ظل "الأصل" رهينة في يد من لا يملك الحنجرة التي تنطق به؟

المسألة المهمة: كان الفرنسيون أحق

في هذه القصة المثيرة للتأمل، ثمة مفارقة لافتة: الإنجليز حازوا الحجر بالقوة العسكرية، لكن الفرنسيين هم من فكّ رموزه. ولم يكن الفرنسيون بدورهم أكثر شرعية من الإنجليز في امتلاك ماضٍ ليس لأي منهم.

ليس لأن الاستعمار الفرنسي كان أقل إيلاماً من الاستعمار البريطاني – فكلاهما احتلال. لكن لأن الفرنسيين جاؤوا بحملة علمية إلى جانب حملتهم العسكرية، ولأنهم أسسوا معهداً للآثار بينما كان الإنجليز مشغولين بالغنائم.

ولان الفرنسيين كانوا على الأقل أكثر صدقاً في اهتمامهم بالعلم. قام المواطن "دو تيل" - حين وصلت نسخ من الحجر إلى باريس - بقراءة النص اليوناني فوراً وأعلن: النصان الأول والثاني على الحجر يحتويان على تكرار لمحتويات النص اليوناني. الهيروغليفية والديموطيقية يقولان نفس ما تقوله اليونانية.

هذه الجملة الواحدة كانت كل ما يحتاجه العالم لبدء الحل.

لكن الحل احتاج عشرين سنة أخرى ورجالاً ثلاثة - لا رجلاً واحداً.

المحاولات البائسة - حين تُعمي الأفكار المسبقة العيون

بين ١٨٠٢ و١٨١٤، كانت أوروبا تحاول وتفشل.

سيلفستر دي ساسي، شيخ المستشرقين ورائد دراسة اللغات الشرقية في فرنسا، حاول فك الديموطيقية ظناً منه أنها مشابهة للخط العربي. نجح في تحديد ثلاث مجموعات من الرموز تطابق أسماء أعلام في النص اليوناني: بطليموس، الإسكندر، الإسكندرية. خطوة. لكنه توقف.

ثم جاء السويدي دافيد أوكير بلاد. رجل مرهف الحس، مثاليّ بحكم الطبع. قرأ أعمال دي ساسي وواصل من حيث توقف. نجح في تحديد ستة عشر حرفاً صوتياً في الديموطيقية. وتمكّن من قراءة كلمات قبطية في النص - "برفيوئي" بمعنى معبد، و"ينين" بمعنى اليونانيون. كان يقترب.

لكن دي ساسي رفض نتائجه. وبلاد - الحساس المرهف - تأثر بالانتقاد وتراجع. ثم أعلن في رسالة عام ١٨٠٢ بإحباط حقيقي:

"منذ أمد بعيد فقدت آخر بارقة من الأمل في فك رموز الهيروغليفية."

كانت أوروبا تسير في الاتجاه الصحيح لكنها لا تملك الثقة اللازمة لإكماله.

يونج ذلك الهاوي - الفيزيائي الذي فتح الباب دون أن يعرف

في صيف ١٨١٤، ذهب رجل اسمه توماس يونج إلى مدينة وورتنج الإنجليزية لقضاء عطلته. وحمل معه نسخة من حجر رشيد.

يونج لم يكن عالم مصريات. كان فيزيائياً عبقرياً - مؤسس علم البصريات الحديث، كاشف ظاهرة التشعب في الضوء، صاحب نظرية الموجات. كانت الهيروغليفية مجرد هواية في وقت فراغه.

وربما كان هذا بالضبط ما جعله ناجحاً حيث فشل المتخصصون.

جاء يونج بلا أفكار مسبقة عن "الحكمة الكونية" ولا عن "الفلسفة الهرمسية". جاء ببنية عقل علمي يرى الأنماط ويقارن الأنظمة. وفي أربع سنوات من العمل المتقطع، توصل إلى ما يلي:

أولاً: قسّم النصين الديموطيقي والهيروغليفي إلى كلمات منفصلة. ورأى أن الديموطيقية مجرد اختصار للهيروغليفية، مشتقة منها.

ثانياً: أدرك أن الأسماء الأجنبية في الهيروغليفية - كأسماء الملوك اليونانيين - مكتوبة صوتياً. الكاتب المصري حين يكتب اسماً يونانياً لا يعرف رمزه، يستخدم الأصوات. وهذا يعني أن بعض الهيروغليفية - على الأقل - نظام صوتي.

ثالثاً: استخرج القيمة الصوتية لحرفين في اسم بطليموس: الباء والطاء.

ورابعاً: وضع فهرسة لـ ٢١٤ كلمة هيروغليفية، كان تحليله لربعها صحيحاً.

لكن يونج توقف عند حد معين. لم يرَ - أو لم يُكمل رؤية - أن الطابع الصوتي لا يخص فقط الأسماء الأجنبية، بل هو جوهر النظام كله.

فتح الباب. لكنه لم يدخل. لأنه رأى الصوت... لكنه لم يثق فيه بما يكفي ليجعل منه النظام كله.

مسلة فيلة - المفتاح الثاني يأتي من الجنوب

في العام نفسه الذي بدأ فيه يونج عمله، كان مغامر إنجليزي ثري اسمه ويليام جون بانكس يتجول في جنوب مصر. وصل إلى جزيرة فيلة في أسوان، وأبصر مسلة جميلة محفورة بخطوط هيروغليفية. وفي قاعدتها - وهنا الأهمية - نقش يوناني.

رتّب بانكس نقل المسلة إلى قصره في إنجلترا. وصلت حوالي عام ١٨٢١.

وفي النقش اليوناني، ورد اسمان ملكيان: بطليموس، وكليوباترا.

كان هذا ما كان يحتاجه أي عالم للمضي قدماً. فإذا كان بطليموس وكليوباترا مكتوبَين هيروغليفياً، والنقش اليوناني يؤكد ذلك، فالحروف المشتركة بين الاسمين - P وT وL - يمكن إيجادها في كلا الخرطوشين الهيروغليفيين، ومقارنتها، وتثبيت قيمها الصوتية.

كانت هذه "همزة الوصل الذهبية". وبانكس أدرك ذلك وكتب ملاحظاته المقارنة على نسخة من المسلة.

أرسل بانكس تلك النسخة إلى رجلين: يونج في لندن، وشاب فرنسي في غرونوبل كان يتابع كل هذا بعيون متّقدة منذ سنوات. لم يكن يبحث عن سرَ مخفي... بل كان ينتظر أن يسمع صوتاً. انه شامبليون.

رسالة دي ساسي التحذيرية

في يوليو ١٨١٥، أرسل سيلفستر دي ساسي رسالة إلى يونج. كانت الرسالة تحمل تحذيراً:

"لو لدي نصيحة أود أن أنصحك بها فهي ألا تتواصل مع السيد شامبليون بشكل كبير في اكتشافاتك. عندها سيتظاهر بأن له الأسبقية في الاكتشاف. أخشى أن هذا ليس إلا سطو."

يونج أهمل التحذير.

لم يكن يتخيل أن دي ساسي - الذي كان يتنافس بدوره مع الجميع - كان يرى في الشاب الغرونوبلي ما رآه آخرون: طاقة استثنائية وطموحاً لا حدود له.

والصراع الذي سيجيء - الصراع الذي يُفضح فيه شامبليون في فصله القادم - بدأ هنا، في رسالة أهملها يونج لأنه لم يكن يتخيل أن طالب التاريخ في غرونوبل سيَصبح يوماً "المصري".

خلاصة: حجر بثلاثة أوجه وقصة واحدة

حجر رشيد لم يكن معجزة. كان وثيقة إدارية عادية من القرن الثاني قبل الميلاد. ولم يكن اكتشافه حدثاً علمياً - بل كان حادثة عسكرية في حملة استعمارية.

لكنه أتاح للمرة الأولى ما كان يحتاجه العلم: جسراً. نص واحد بلغتين معروفة وغير معروفة. مرآة يمكن منها البدء.

وحين يُقرأ بجانب مسلة فيلة، يصبح الجسر أمتن. اسمان لا اسم واحد. حروف مشتركة يمكن تثبيتها.

كل ما بقي كان أن يأتي شخص يملك المنهج الصحيح، والجرأة الكافية، واللغة الحية على لسانه كل يوم.

كل ما بقي كان أن يأتي شخص يملك المنهج الصحيح، والجرأة الكافية، ولغةً حيّةً على لسانه لا في الكتب.

شخص لم يقف أمام الرمز ليَعظّمه...

بل ليَنصت إليه.

لم يبحث عن حكمةٍ مخفية···

بل عن صوتٍ بسيط.

وكان ذلك الصوت - على نحوٍ غريب - لا يزال حيّاً حوله، يُتلى كل يوم دون أن ينتبه إليه أحد. اسمه: شامبليون.

لكن ما لا تقوله السيرة الرسمية عن هذا الاسم···

هو أكثر بكثير مما تقوله.

(١٣)

"شامبليون المصري." بلا قناع!

اللقب الذي لم تمنحه مصر

في عام ١٨٤٤، أقام جورج جليدون - القنصل الأمريكي في القاهرة - احتفالية في بوسطن، الأمريكية. كان شامبليون قد مات منذ اثنتي عشرة سنة. لكن القنصل الأمريكي أراد أن يُخلّد اسمه أمام الجمهور الأمريكي بلهجة المنتصر:

"وبقوة الزلزال أطاح الفرنسي الدؤوب بالأبنية الهشة لأسلافه، ومن هذه الساعة كفّت حوليات مصر وتاريخها وبردياتها أن تكون أسراراً. إن شامبليون الشاب قد أزاح قناع إيزيس والستار الذي لا تستطيع يد بشرية أن ترفعه."

وأضاف جليدون: "شامبليون المصري."

احتفالية أمريكية. في مدينة أمريكية. قنصل أمريكي. يمنح رجلاً فرنسياً لقب "المصري".

لم يسأل أحد منهم المصريين.

طفل يقطع وعداً

يروي المقرّبون من شامبليون أنه حين كان في الثانية عشرة من عمره، أُخذ إلى الفيزيائي فورييه الذي صحب نابليون إلى مصر وعاد بأوراق بردي ونقوش هيروغليفية. وقف الطفل أمام تلك الرموز الغريبة وسأل: هل يستطيع أحد قراءتها؟ أجابه فورييه بلا. فقال الطفل: "سأفعل ذلك. سأتمكن منه خلال بضع سنوات عندما أكبر."

هل حدثت هذه القصة فعلاً؟ لا نعرف. كُتاب السير يُحبّون مثل هذه اللحظات التأسيسية. لكن ما نعرفه يقيناً هو ما يلي:

في الرابعة عشرة من عمره، كان شامبليون يتعلم العربية والسريانية. في السادسة عشرة انضم إلى أكاديمية غرونوبل. وفي سن التاسعة عشرة، كأستاذ للتاريخ، بدأ يقول: "اللغة المصرية القديمة تحتوي على ثلاثة أنماط من الكتابة: الديموطيقية، والهيروغليفية، والهيراطيقية."

لكن الأهم من كل هذا: كان يتحدث القبطية مع نفسه وهو ينام. كتب عنها: "القبطية هي لغتي الروح."

حين يملك رجل لغةً كـ "روح" لا كـ "أداة"، فهو يملك ما لا يستطيع امتلاكه يونج. يونج كان عالماً يستخدم القبطية كمرجع. شامبليون كان إنساناً يشعر بها كذاكرة.

ما فعله شامبليون... وما لم يفعله يونج

في سبتمبر ١٨٢٢، كتب شامبليون رسالته الشهيرة إلى السيد داسييه: "رسالة في أبجدية الصوتيات الهيروغليفية."

لكن ماذا فعل بالضبط؟

يونج كان قد توصّل إلى أن الأسماء الأجنبية في الهيروغليفية مكتوبة صوتياً. هذه خطوة. لكنه توقف هنا ولم يُكمل الاستنتاج.

شامبليون ذهب خطوةً أبعد - بل قفز قفزة كاملة: أدرك أن الطابع الصوتي ليس استثناءً للأسماء الأجنبية بل هو جوهر النظام كله. اللغة المصرية القديمة - في جزء كبير منها - نظام صوتي. والقبطية التي يعرفها ويشعر بها هي المفتاح لتحديد أصوات تلك العلامات.

هل يظهر هنا الدور الذي لعبه حنا الشفتيشي!

وحين قارن خرطوش "بطليموس" في حجر رشيد بخرطوش "كليوباترا" في مسلة فيلة التي أرسلها بانكس، رأى الحروف المشتركة - P وT وL - في مواضعها المتوقعة من كلا الاسمين. ثبّت قيمها. ثم بدأ في قراءة أسماء أخرى.

ثم أدرك شيئاً أعمق: الهيروغليفية نظام مُركَّب هجين. فيها علامات صوتية، وعلامات تصويرية تمثل كلمات كاملة، وعلامات محددة "مخصصات" صامتة توضّح المعنى. ثلاثة مستويات في آنٍ واحد. هذا التعقيد بالذات كان يُعمي كل من سبقه - لأنهم كانوا يبحثون عن نظام واحد نظيف.

وكانت القبطية هي ما يُوجّه خطاه في كل خطوة. حين يعرف العلامة الصوتية للرمز يذهب إلى القبطية ويجد الكلمة التي تبدأ بهذا الصوت. حين يجد كلمة يرجع إلى ما يقابلها في اليونانية. يبني جسراً حياً بين ثلاث لغات.

في سنة ١٨٢١، قبل عام كامل من رسالته الشهيرة، عدّ شامبليون الرموز في حجر رشيد: ١٤١٩ رمزاً هيروغليفياً في مقابل ٤٨٦ كلمة يونانية. الرموز أكثر من الكلمات بثلاثة أضعاف. هذا يعني - بالمنطق البسيط - أن الهيروغليفية ليست أبجدية خالصة. لا يمكن لكل رمز أن يعادل كلمة. إذن النظام أعقد من ذلك.

كان شامبليون يسأل السؤال الصحيح: ما علاقة الرمز بالصوت والمعنى في آنٍ واحد؟

السر الذي كتمه في تورين

في عام ١٨٢٤، زار شامبليون متحف تورين في إيطاليا. وجد هناك بردية ملكية فريدة تُعرف اليوم بـ "بردية تورين الملكية" – قائمة مفصلة بأسماء ملوك مصر وأمد حكمهم، تمتد من فجر التاريخ المصري حتى الأسرات المتأخرة. وهي واحدة من أهم الوثائق التاريخية من مصر القديمة، لأنها تُعطي تسلسلاً ملكياً شبه كامل.

جلس شامبليون يقرأ. ويحسب. ويتراكم في عقله شيء لا يريد أن يُصدّقه.

لأن الأرقام كانت تقول شيئاً خطيراً: الحضارة المصرية أقدم بكثير مما تقوله التوراة. ملوك يعدون بالمئات قبل الأسرة الثامنة عشرة وحدها. أسرات تمتد لآلاف السنين. نظام حكم متطور موجود قبل أن يُخلق آدم التوراتي بحساب الأسقف أوشر، رئيس أساقفة أيرلندا في القرن السابع عشر الذي حسب أن الخليقة تمت عام ٤٠٠٤ قبل الميلاد.

كتب إلى أخيه فيجاك في ١٨٢٥ بوضوح ما يرى:

"لقد قام الدليل القاطع على أن المصريين كانوا في عصور بعيدة في القدم يعدون أكثر من مائتي ملك حكموا بلادهم قبل أن تحكمها الأسرة الثامنة عشرة... فهذا هو الدستور الذي يجب تقديمه للجمهور، ولكن في قفاز ملون بلون خاص."[١]

---

[١] المقصود بعبارة "بقفاز ملون بلون خاص" هو أن شامبليون كان يَعد بأن يقدّم الحقائق التي توصّل إليها بطريقة مُغلّفة، مُلطفة، ومُموّهة، بحيث لا تُصدم السلطة الدينية والسياسية مباشرة، بل تُقدَّم في ثوبٍ مقبول ومُزيّن يخفي خطورتها.

شامبليون لم تكتمل قصته مع مصر كما يظن الكثيرون. لم تكن قصته مجرد فك رموز لغة ميتة، بل هي قصة رجل وقف على أبواب معرفة خطيرة، نظر عبرها إلى أعماق التاريخ الإنساني، فخاف. خاف من الكنيسة، خاف من السلطة، وخاف ربما من نفسه. وهكذا كتم حقائق عرفها وآثر الصمت على الكلام. فقط في رسائله الخاصة لأخيه كان يُفصح عما يعتقده بصدق: أنه أمام مئات من البراهين تهدم عقيدة الكنيسة المقدسة، وأن الحضارة المصرية أقدم بكثير مما تقول التوراة. لكنه اختار أن يطوي جوانحه على هذه الحقيقة، وأن يعطي عهداً لقياصرة روما ودوقات فرنسا بأنه سيقدمها. "في قفاز ملون بلون خاص."

جملة واحدة تُلخّص ما كان شامبليون حقاً: رجل يعرف الحقيقة ويقرر أن يُقدّمها بطريقة لا تُغضب الكنيسة ولا تُهدد السلطة.

حقائق مربكة. يجب إبقاؤها في الكتمان.

البابا يُثني والضمير يصمت

حين زار شامبليون روما، استقبله البابا ليون الثاني عشر. وصف شامبليون اللقاء في رسالة:

"كان قداسته عطوفاً، مليح الحديث. قال لي ثلاث مرات متتالية إنني أديت خدمة جميلة وكبيرة للديانة بكشوفي."

وقبل السفر إلى مصر، كان هناك الدوق دي بلاكاس - رجل سياسي مقرّب من الكنيسة ومحبّ لشامبليون. طلب منه شيئاً بسيطاً: إذا وجدت في الآثار ما يُعارض التوراة أو تعاليم الكنيسة، لا تنشره.

وافق شامبليون.

كانت الكنيسة مرتاحة. الآن لديها شامبليون - كاشف الهيروغليفية - يؤكد أن البروج الفلكية في معابد دندرة وإسنا بُنيت في عهد الأباطرة الرومان. يعني: ليست قديمة جداً. الحضارة المصرية ليست أقدم من التوراة. كل شيء آمن.

لكن ما لم تعرفه الكنيسة هو أن شامبليون بعد عودته من مصر كتب إلى أخيه في مارس ١٨٢٩:

"أقول لك فيما بيني وبينك إنني حصلت على نتائج مربكة إلى الحد الأقصى... ولهذا يجب إبقاؤها في الكتمان. هذه النتائج لم تخالف في شيء ما كنت أتوقعه... فقد جدت أمامي أشياء أخرى كثيرة كانت تتردد في نفسي ترددا مبهماً فصارت الآن عندي من الحقائق التي لا يتطرق الشك إليها."

يونج يرد - المعركة التي تُخبرنا من صاحب الفضل

حين قرأ يونج رسالة شامبليون عام ١٨٢٢، أدرك أن الشاب الفرنسي يُعلن اكتشافاً يقوم في جزء كبير منه على عمله هو. رأى أفكاره معكوسة في الورقة دون اعتراف واضح.

دافعت عنه صحيفة "كوارترلي ريفيو" بصراحة: "كل ما فعله شامبليون هو أنه وسّع المبدأ الذي اعتمده يونج." ونشرت جزءاً من مقال يونج القديم في "دائرة المعارف البريطانية" حيث كان قد حدّد الرموز الهيروغليفية للحروف في اسم بطليموس.

ردّ شامبليون في كتابه "موجز نظام هيروغليفية المصريين القدماء" عام ١٨٢٤ بهجوم مضادّ: "الترجمات القليلة التي قام بها يونج لم تكن سوى تخمينات موفقة وليست نتيجة بحث لغوي."

والحقيقة - كما يرى المؤرخون الموضوعيون - في المنتصف: يونج فتح الباب، وشامبليون اجتازه. لم يكن شامبليون يكذب حين يقول إن منهجه أعمق من منهج يونج. لكنه كان يتصرف بخبث حين ينكر أن الباب كان مفتوحاً قبل وصوله.

في رسالة أخيرة عام ١٨٢٣، استسلم يونج وكتب: "لن أنشر مزيداً من النصوص المصرية. المادة استُنفدت. وشامبليون يعمل بحيث لن يُضيع شيئاً ذا قيمة."

استقبلها كثيرون كاعتراف بالهزيمة. لكنها كانت في الحقيقة شيئاً آخر: توقفاً عن صراع لا يُكسب فيه الحق حين تكون السلطة الأكاديمية والقومية الفرنسية في الجانب الآخر.

الموت المبكر - الجسد الذي لم يحتمل السر

في السادس من مارس ١٨٣٢، مات جان فرانسوا شامبليون في باريس. كان في الثانية والأربعين من عمره.

الأطباء قالوا: سل رئوي، سكري، نقرس. مناخ مصر القاسي وماء النيل. الإرهاق.

كل هذا ممكن.

لكن ثمة تفسير آخر - ليس طبياً بل نفسياً - لا يستطيع المرء تجاهله تماماً: رجل يحمل سراً ثقيلاً لا يستطيع البوح به. يعرف أن الحضارة المصرية تُكذّب الرواية التوراتية الرسمية. يعرف أن ملوكاً يعدون بالمئات كانوا يحكمون قبل إبراهيم. يعرف أن الآثار تقول شيئاً تختلف فيه الكنيسة. ويقرر كل يوم أن يُعيد تلك المعرفة إلى صندوقها و "يُقدمها بقفاز ملون."

هذا النوع من الصمت المحسوب - حين تعرف الحقيقة وتختار إخفاءها لأسباب لا تقنعك في الأعماق - له ثمن. لا يُعرف هذا الثمن وزنه بالضبط. لكنه موجود.

في رسالته الأخيرة من مصر قبل أن يغادرها إلى الأبد، كتب بحنين حقيقي: "أخيراً سمح لي آمون العظيم بتوديع أرضه المقدسة." ثم عاد إلى فرنسا. وبعد ثلاث سنوات، مات.

لم يتجاوز الثانية والأربعين. وخلّف وراءه منظومة قابلة للتطوير - وأسراراً قابلة للكشف.

إرث القفازات: حين يفتح الصمت أبواب التزييف

إن خطورة "القفاز الملون" الذي ارتداه شامبليون لم تكن تنتهي عند حدود إرضاء الكنيسة في باريس أو تجنب غضب البابا في روما. بل كانت، في جوهرها، "سُنّةً سيئة" استنتها اللحظة التأسيسية لعلم المصريات. فحين قَبِل "الأب المؤسس" فكرة تلوين الحقيقة وتجزئتها لغايات غير علمية، فإنه شرعن -دون قصد ربما- منهجاً كاملاً لمن جاء بعده.

لقد فتح شامبليون الباب واسعاً أمام جيل من العلماء والقناصل ليرتدوا قفازات من نوع آخر؛ قفازات سياسية وأيديولوجية أكثر قسوة. فإذا كان شامبليون قد طوع التاريخ ليوافق "عقيدة الكنيسة"، فإن من جاء بعده لم يجد غضاضة في تطويع النصوص المصرية لتخدم "الروايات الاستعمارية" التي تريد تصوير مصر كميراث مشاع، أو لخدمة "الروايات الصهيونية الناشئة" التي راحت تنبش في طيات الحجر عن "شرعية توراتية" متوهمة.

لقد تحول "القفاز" من وسيلة لحماية العالِم، إلى "مشرط" في يد الأيديولوجيا، يقتطع من النص ما يشاء ويخفي منه ما يشاء. وهكذا، ظل علم المصريات لقرنٍ كامل يراوح مكانه

بين "نطق الحجر" وبين "إسكاته" بالقفازات الملونة التي لم تخلعها المتاحف الغربية حتى يومنا هذا.

ما الذي أنجزه شامبليون حقاً؟

كثير من الانتقادات وُجّهت لمنهج شامبليون. قيل إن بعض ترجماته قائمة على التخمين. وإنه ملأ الفراغات بحدسه القبطي لا بدليل قاطع. وإنه لم يعترف بالجهد الذي سبقه.

كل هذا صحيح إلى حد ما.

لكن الصحيح أيضاً - وهذا ما يجعل إنجازه حقيقياً - أنه أسّس نظاماً قابلاً للاختبار والتصحيح. لم يكن هراءً مبهراً كما كان كيرشر. ولم يكن تخميناً معزولاً كما كان يونج. كان منهجاً يمكن لعالم آخر أن يأخذه ويطبّقه على نص لم يره شامبليون، فيحصل على نتيجة. وهذا بالضبط ما فعله الألماني ريتشارد ليبسيوس الذي واصل من بعده وصحّح كثيراً مما أخطأ فيه.

الإنجاز الحقيقي لم يكن "حل اللغز" بل "تأسيس المنهج".

وهذا المنهج - مهما علا اسم شامبليون فوقه - لم يُولد في فراغ. وُلد من ألف سنة من المحاولات التي سبقته. ومن القبطية التي حفظها الأقباط. ومن يونج الذي فتح الباب. ومن ابن وحشية الذي أدرك النظام قبله بتسعة قرون.

ختام - الرجل الذي سمع الصوت

في النهاية، ما كان شامبليون؟

لم يكن مصرياً - مهما قال عنه جليدون في بوسطن.

ولم يكن مخادعاً تاماً - مهما قال عنه خصومه.

كان شيئاً أكثر تعقيداً: كان إنساناً وصل في اللحظة المناسبة، مزوّداً بلغة الروح الصحيحة وبالجرأة الكافية لسؤال السؤال الصحيح. لكنه أيضاً كان إنساناً أبناء عصره - يخاف الكنيسة، ويخضع للسياسة، ويكتم ما يعرف حين يكون الكتمان مريحاً.

ومع ذلك، يبقى شامبليون في ذاكرة المصريين – ليس كمن كتم السر، بل كمن أعاد الصوت إلى الحجارة. تماثيله لا تزال قائمة في شوارع القاهرة، واسمه يُدرّس في كتب التاريخ المدرسية. أما الأسرار التي كتمها، فقد خرجت من قفازاتها الملونة بعد قرن من وفاته، حين لم تعد الكنيسة تملك سلطة إسكات الحقيقة.

الصوت الذي سمعه في الحجر كان صوتاً حقيقياً.

لكن الصمت الذي اختاره بعد ذلك كان اختياراً - لا ضرورة.

وهذا الفرق بين الصوت المسموع والسكوت المختار، هو ما يجعل قصته أكثر إنسانية من أن تُختزل في لقب.

في الفصل التالي، نكتشف كيف أن القراءة - حتى بعد شامبليون - لم تكن بريئة. كيف أن الأفكار المسبقة شوّهت ترجمة كلمة واحدة فغيّرت تاريخ أمة. وكيف أن حجراً واحداً أعطى من يريد أن يجد إسرائيل دولةً ما أراد إيجاده.

(١٤)

ما وراء الترجمة... حين تقرأ المعتقدات قبل العلم

حين يُقرر العالِم ما سيجد قبل أن يبدأ البحث

حُلّت الهيروغليفية. فُتح الأرشيف. بدأت الحجارة تتكلم بعد أربعة عشر قرناً من الصمت. كانت هذه لحظة استثنائية في تاريخ الإنسانية - لحظة تُستعاد فيها ذاكرة حضارة بأكملها.

لكن حين تُفتح أرشيفات الماضي، يُطرح سؤال لا يُطرح عادةً بصوت عالٍ: من يقرأها؟ وماذا يريد أن يجد؟

لأن القراءة - حتى القراءة العلمية الأكثر دقةً - ليست فعلاً محايداً. القارئ يُدخل إلى النص ما في رأسه قبل أن يُخرج ما في الحجر. والباحث الذي يأتي إلى الهيروغليفية وهو يبحث عن إسرائيل لن يرى ما في الحجر بنفس العيون التي يراه بها الباحث الذي يبحث عن تاريخ مصر.

هذا الفصل يحكي ثلاث قصص عن كيف حدث هذا بالضبط.

القصة الأولى: نتر - حين غيّرت كلمة واحدة تاريخ حضارة

ثمة كلمة واحدة في اللغة المصرية القديمة تظهر في كل النصوص الدينية. في كتاب الموتى. في متون الأهرامات. في نقوش المعابد. وفي كل مكان تظهر فيه، يواجه المترجم اختياراً حاسماً.

الكلمة هي "نتر". وتصغيرها الجمعي "نترو".

حين وصل الباحثون الأوائل إلى هذه الكلمة، وجدوا أنفسهم أمام معضلة حقيقية. العالم الكبير واليس بيدج (E. A. Wallis Budge) – عالم مصريات إنجليزي، عمل في المتحف البريطاني، وأشهر من ترجم "كتاب الموتى" المصري – كتب بصدق نادر: "أما كلمة نيثر فيجب أن تترجم بكلمة أخرى. لكن ما هي تلك الكلمة التي يجب أن تترجم بها؟ هذا ما لا أستطيع قوله."

وكتب غيره: "المعنى الدقيق المضبوط لكلمة نيثر مفقود تماماً."

وكتب ثالث: "أعتقد أن الكلمة قديمة جداً وأن إدراك معناها الأصلي الأوّل غامض وغير معروف لنا."

هكذا: اعترافات صريحة بالجهل. عدم يقين أكاديمي حقيقي.

ثم في النهاية - لأنه لا بد من اختيار - اختار المترجمون كلمة "god". إله.

وانتشرت الترجمة. وامتلأت كتب تاريخ مصر القديمة بآلاف "الآلهة": رع إله، أوزير إله، إيزيس إلهة، بتاح إله، آمون إله. وصارت مصر القديمة في المخيّلة الشعبية والأكاديمية أرض الوثنية المطلقة - شعب يعبد آلاف الآلهة.

لكن القصة لا تنتهي هنا.

لأن في النصوص المصرية القديمة نفسها - التي قرأها هؤلاء العلماء وترجموها - ثمة نصوص تتحدث عن شيء مختلف تماماً. كما يقول بيدج نفسه: "الحقيقة التي تم برهنتها بشكل قاطع أنه منذ عام ٣٣٠٠ قبل الميلاد تمييز في عقل المصريين لإله واحد مختلف عن النترو." وكما يقول عالم المصريات شاباس: "الله الواحد الذي يمثل الفكرة النقية المجردة للألوهية لم يتم تجسيده عند المصريين القدماء طوال عصورهم في أي نتر." ويضيف: "فالله عند قدماء المصريين ليس بتاح أو رع أو تحوت أو أوزيريس."

إذن: المصريون القدماء أنفسهم كانوا يُفرّقون بين "إله واحد" وبين "النترو". كانوا يعرفون الفرق.

فما هم إذن النترو؟

النصوص تُشير إلى كائنات تمتلك قدرات تفوق البشر. خُلقت من قبل الإله الواحد. تؤدي وظائف كونية — وظائف الرياح والأمطار والموت والبعث. تُذكّرنا - حين نضع مصر في سياقها الحضاري الأفروآسيوي لا في عزلتها الاستشراقية - بما تصفه الديانات السماوية بالملائكة.

لكن المترجمين الأوروبيين، أبناء مجتمع لا يعرف في قاموسه اللاهوتي إلا ثنائية "الله/الآلهة"، رأوا في النترو آلهة ووثنية. ومضوا.

ومضت معهم صورة مصر كأرض الوثنية لألفي سنة أخرى.

كلمة واحدة. ترجمة واحدة خاطئة. وتاريخ أمة بأكمله يُرسم من جديد.

وبينما يترجم معظم علماء المصريات كلمة "نترو" ببساطة بـ "الآلهة"، إلا أن بعض الباحثين المعاصرين - وخاصة من يقرأون النصوص في سياقها الأفروآسيوي - يرون فيها "قوى إلهية" أو "تجليات للإله الواحد"، تمامًا كما نرى في أسماء الله الحسنى تجليات مختلفة للذات الإلهية الواحدة. فالمصري القديم لم يكن "وثنيًا" بالمعنى السطحي الذي صُوِّر به، بل كان يرى في "النترو" نماذج حسية مرئية لقدرات إله واحد خفي، هو "الذي خلق نفسه بنفسه" و "رب الربوبية".

هذا التحريف اللغوي لم يكن مجرد خطأ أكاديمي في غرفة بعيدة. كان جرحًا في هوية المصريين أنفسهم. فحين تحول «النتر» إلى «إله» و «النترو» إلى «آلهة»، تحول المصري من ابن حضارة واحدة - تؤمن بإله واحد وكائنات كونية تخدمه - إلى «وثني» في عيون نفسه وفي عيون الآخرين. أصبح يقف أمام جدران أجداده ويشعر أنه ينظر إلى حضارة أجنبية، لا إلى بيته. هكذا سرقت الكلمة الواحدة ليس فقط المعنى، بل أيضًا الشعور بالانتماء.

القصة الثانية: لوحة مرنبتاح - من يملك حق قراءة الحجر؟

في عام ١٨٩٦، كان عالم الآثار الإنجليزي فلندرز بيتري ينقّب في المعبد الجنائزي للملك مرنبتاح في الأقصر. عثر على لوح ضخم من الجرانيت الأسود.

قرأ العلماء النص بسهولة - كان مرسوم انتصار عسكري للملك. ثم وصلوا إلى السطور الأخيرة، ففاجأهم اسم لم يسبق أن ظهر في أي نقش مصري:

"إسرائيل قد أخربت، وبذرتها لا تبقى."

كانت هذه للمرة الأولى في التاريخ يُذكر فيها اسم "إسرائيل" في وثيقة مصرية قديمة. وكانت ردود الفعل في الأوساط الأكاديمية الغربية أشبه بالاحتفالية: ها هو الدليل! ها هو ذكر الكتاب المقدس في آثار مصر!

ثم انتبه المدقّقون إلى شيء صغير لكنه حاسم.

الكاتب المصري القديم كان دقيقاً بشكل مذهل في استخدام "المخصصات" — تلك العلامات التوضيحية الصامتة التي تُوضع في نهاية الكلمة لتُحدد فئتها. حين يكتب عن مدينة أو دولة أو أرض ذات كيان جغرافي، يضع علامة "الجبال الثلاثة". هذا بالضبط ما فعله مع عسقلان وجازر وينوعم في نفس النص.

لكن حين كتب "إسرائيل"، لم يضع علامة الجبال الثلاثة. وضع علامة الشعوب الرّحّل — رجل وامرأة وعلامة الجمع.

في الإشارة المصرية الدقيقة: إسرائيل شعب لا دولة. قبيلة لا مملكة. مجموعة بشرية بلا كيان سياسي محدد.

هذه الحقيقة اللغوية البسيطة - الصامتة كعلامة المخصص - كانت تُناقض مباشرةً الصورة التوراتية لفتح موحّد بقيادة يشوع، ومملكة إسرائيل المتحدة العظيمة. هل وقف الامر عند هذا الدليل؟

النسخة المفقودة: لماذا صمت الكرنك؟

أولى المفارقات التي تستوقف المتأمل هي تلك "الفجوة" الصامتة بين جدران معبد الكرنك وبين اللوحة الجنائزية في طيبة. فبينما يزهو الملك في اللوحة الأصلية بفقرةِ تدعي "سحق قبائل يزريل"، نجد أن النسخة المكررة في الكرنك -رغم تطابقها في تسعة وثلاثين سطراً- قد أغفلت ذكر هذا الانتصار تماماً.

هذا الصمت ليس عفوياً؛ ففي عُرف المصري القديم، كان الحذف فعلاً سياسياً بامتياز. هل كان هذا "الانتصار" مجرد حدثِ عابرِ لا يستحق تخليده في محراب الكرنك المهيب؟ أم أن السكاكين اللغوية للمؤرخ الملكي رأت في هذا الحذف اعترافاً خفياً بأن المعركة لم تكن بالحسم الذي صوره الشعر في اللوحة الجنائزية؟ إن الحقيقة هنا لا تكمن في الكلام المكتوب، بل في "المساحة الفارغة" التي خلفها الحذف.

السطر السابع والعشرون: قراءة فوق الرماد

حين نقترب أكثر من السطر السابع والعشرين في اللوحة الأصلية، نجد أنفسنا أمام "جسد نصي" مُنهك. فالحروف الهيروغليفية هناك تعاني من التآكل والغموض، وكأن الزمن حاول حماية هذا اللغز من أعين الفضوليين. هنا، لا نعود أمام "نصٍ قطعي"، بل أمام "ظلال كلمات"، مما جعل العلماء - وخاصة في المدرسة الألمانية النقدية - يعيدون النظر في كل حرف.

لقد وقف العالم الألماني "مانفريد جورج" طويلاً أمام تلك العلامات، ليقترح رؤيةً تقلب الموازين؛ فما يراه البعض اسماً لـ "شعب"، قد لا يكون في الحقيقة سوى إشارة لموقعٍ جغرافي يُدعى "يزريل" في قلب كنعان. إنها رحلةٌ من "إبادة البشر" إلى مجرد "السيطرة على المكان"، فرقٌ شاسع يصنعه تأويل حرفٍ أو فكّ شفرة علامةٍ متآكلة.

المبالغة الشعرية.. هل نصدق الحجر؟

ويأتي صوت "فولفجانج هيلك"، أحد كبار حراس الذاكرة المصرية في القرن العشرين، ليضع النقاط على الحروف ببرودٍ علمي حاد. فهو يرى أن الجزم بظهور "إسرائيل" التاريخية في هذا النص هو أمرٌ "يفتقر للضرورة الحتمية".

بالنسبة لـ "هيلك"، نحن هنا أمام "قصيدة فخر" تمجد الملك، لا أمام تقريرٍ استخباراتي دقيق. ففي غياب أي دليلٍ مادي في أرض فلسطين يثبت حدوث دمارٍ شاملٍ في ذلك التاريخ، يصبح النص المصري مجرد "صدى بلا صوت". لقد كانت مصر تبالغ في تصوير أعدائها لتُعظم من قدر ملوكها، وما يبدو اليوم كأنه "حقيقة تاريخية"، قد لا يعدو كونه استعارةً لغوية أراد بها الكاتب أن يمنح "مرنبتاح" بريقاً أسطورياً يتجاوز حدود الواقع. لكن الأكاديمية الغربية احتاجت مائة سنة كاملة لتعترف بما كان المخصص يقوله منذ البداية، وبالحرف المشوه في كلمة يزريل، وبالاسم المحذوف على لوح الكرنك.

مائة سنة من المحاولات للتوفيق بين ما يقوله الحجر وما يريد العلماء أن يجدوه. مائة سنة من الجدل الأكاديمي حول كلمة واحدة ومخصص واحد. مائة سنة لأن "الفكرة المسبقة" كانت أقوى من "الحجر المنقوش".

وحين أشار زاهي حواس المدير السابق للآثار المصرية إلى هذه الحقيقة وغيره من العلماء المصريين - إن المخصص يعني شعباً لا دولة - لم يُستشهد بتحليلهم في معظم المراجع الغربية الرئيسية.

من يملك حق القراءة؟

الثالثة: البروج الفلكية وأزمة الكنيسة - حين قالت الحجارة إنها أقدم من آدم

في عام ١٧٩٣، عالم فرنسي اسمه ديبوي (Dupuis) وقف أمام بروج معابد مصرية عريقة، ودرس النجوم المرسومة فيها، الكواكب المحددة، الرموز الفلكية الدقيقة. ثم أخذ أقلاماً وحسابات وعلماً بالفلك، وكتب: هذه البروج تعود إلى ١٣ أو ١٥ ألف سنة قبل الميلاد على الأقل. بل قال أكثر من ذلك: إذا كانت حضارة ما قادرة على رسم مثل هذه البروج الدقيقة، فهذا يعني أن هذه الحضارة نضجت عبر آلاف السنين قبل ذلك. إذن الحضارة المصرية تعود لأبعد من ١٥ ألف سنة

كانت هذه الصرخة مثل متفجرات تم القائها في قاعة محاضرات أوروبا الدينية. ماذا؟ ١٥ ألف سنة؟ بينما التوراة تقول إن الله خلق العالم كله قبل خمسة آلاف سنة فقط من ميلاد المسيح؟ بينما الحساب المقدس يضع خلق آدم في العام ٤٠٠٤ قبل الميلاد؟

لم تأخذ الكنيسة الخبر بجدية في البداية. كانت تعتبره سخافة سيمر عليها الزمن. لكن بعد بضع سنوات، حدث ما لم تتوقعه الكنيسة.

ثم جاءت الحملة الفرنسية عام ١٧٩٨. ورأى العلماء المرافقون البروج بأعينهم على سقوف معابد دندرة وإسنا. وكتبوا: إذا كانت هذه البروج تُسجّل الوضع الفلكي في وقت البناء، فالمعابد تعود لآلاف السنين قبل الميلاد.

الكنيسة هاجت. لأن هذا كان يعني شيئاً واحداً: الحضارة المصرية كانت موجودة قبل آدم. قبل الطوفان. قبل كل تاريخ التوراة.

انقسم العلماء إلى فريقين مرعوبين. الفريق الأول يقول: الآثار تثبت أن خلق الإنسان أقدم من الزمن الذي حددته التوراة. الفريق الثاني يتمسك بالتوراة ويحاول إنقاذها: لا، هذه البروج من تزييف حديث، لا ترجع لأكثر من القرن الثالث قبل الميلاد.

وبدأت معركة استمرت خمساً وعشرين سنة بين علماء الآثار ورجال الكنيسة.

ثم جاء شامبليون بمنهجه وقرأ أسماء الأباطرة الرومان على جدران دندرة. وأثبت أن المعبد بُني في عهد أغسطس وكلود — أي في القرن الأول الميلادي. البروج لم تكن "تأريخاً للبناء" بل كانت تصويراً فلكياً رمزياً للكون.

ابتهجت الكنيسة. البابا أثنى على شامبليون ثلاث مرات.

لكن القصة لم تنتهِ هنا.

لأن شامبليون - الذي أنقذ الكنيسة من معضلة البروج - كان في الوقت نفسه يقرأ بردية تورين ويرى الملوك المصريين يعدون بالمئات قبل الأسرة الثامنة عشرة. كان يعرف أن الحضارة المصرية أقدم من التوراة - ليس بسبب البروج، بل بسبب القوائم الملكية المكتوبة بخط واضح.

وكان يُقدّم هذا "بقفاز ملون".

عندما مات شامبليون سنة ١٨٣٢، بدا أن الحقائق التي كتمها ستموت معه. الكنيسة كانت آمنة. البابا وأتباعه كانوا مرتاحين. الآثار المصرية "ثبتت" أن التوراة محقة.

لكن لم تدم الراحة طويلاً.

قصص من ٤ آلاف سنة:

في سنة ١٨٤٦، ظهر عالم مصريات كبير اسمه إيمانويل دي روجي. وفي سنة ١٨٦٣، نشر ترجمة لأوراق بردية من متحف برلين. وجعل عنوان القسم الأول من هذه الأوراق: "قصص من ٤ آلاف سنة".

كانت هذه ضربة. لأن الأرقام التي كانت الكنيسة تقول إنها آمنة، الآن يتم التشكيك فيها. ٤ آلاف سنة قبل المسيح يعني الفين من السنين قبل إبراهيم. يعني أرقام خارج النطاق الذي وضعته التوراة.

هاجت الكنيسة. كتب إليه قساوسة يتهمونه بمعاداة الدين. لكن دي روجي رد ردا واضحا:

"لقد وجدت في الإنجيل أسبابا قوية للاعتقاد بتقديس المسيح، وهي كافية في نظري. لكن العلم يستطيع أن يسلك طريقه من غير أن يمس عقيدتي المسيحية".

ثم قال شيئاً أكثر وضوحاً:

"النقد السليم قد قضى منذ زمن طويل على المؤلفات التي تحاول إيجاد قصص التوراة المشوهة في الكتابات المصرية. بعضهم يدعون أنه لا يوجد في مصر أي بناء أثري يمكن أن يكون أقدم من سنة ١٠١٢ ق.م. على هؤلاء نرد بالكلمة التي كتبها المصرولوجي الكبير لو بيج رينوف: ما أبعد الجاهل عن سبيل العذر في جهله إذا كانت الوسائل لمحو هذا الجهل في متناول يده!"

الهجوم الموحد من كل مكان:

بينما دي روجي يصرخ من فرنسا، كان يصرخ من إنجلترا لي بيج رينوف بنفس الصوت. وحمل العلم المصري إلى ألمانيا عالم آخر قوي. وفي سنة ١٨٨٠، ظهر لينورمان الذي عزز الحملة.

الآن لم تعد هناك حصانة للكنيسة. العلم من كل مكان يهاجم. الآثار تتحدث. الكتابات تفضح. النقوش على الجدران لا تكذب.

وفي هذا الوقت، كانت الكنيسة نفسها بدأت تتراجع عن مواقفها.

الاعتراف: لحظة الحقيقة المرعبة للكنيسة:

في سنة ١٨٨٠، بعد ٨٧ سنة من بدء المعركة، أدركت الكنيسة أن الوقت قد حان للانسحاب. لكن بطريقة ذكية.

أعادت الكنيسة تفسير التوراة نفسها. قالت: لا، لم نكن مخطئين في الدين. كنا مخطئين في فهم التوراة. عندما تقول التوراة "أنجب" لا تعني بالضرورة الابن المباشر. قد يكون حفيداً أو أبعد. وإذن، عندما تجمع الأرقام في سفر التكوين، لا تحصل على الوقت الفعلي، بل فجوات زمنية ضخمة محذوفة

وقالت أيضاً: النسخ المختلفة للتوراة تختلف فيها الأرقام. فكيف يمكن أن نعتبرها مقدسة لا تتغير؟

بهذا التأويل المرن، خرجت الكنيسة من المعركة دون اعتراف بالخطأ. قالت: لم نكن مخطئين في الدين. كنا مخطئين في تفسير النص.

والفارق بين الاثنين كبير جداً في الممارسة الدينية - لكنه ضئيل في النتيجة التاريخية.

الغائب الأكبر - الصوت المصري في غرفة لا أحد يسمع فيه

وفي كل هذه المعارك الطويلة - بين العلم والكنيسة، وبين الفرنسيين والإنجليز، وبين شامبليون ويونج - كان هناك صوت غائب باستمرار.

الصوت المصري.

ليس فقط الأقباط الذين كانوا يحملون المفتاح الصوتي في أفواههم. بل أيضاً العلماء المصريون الذين حاولوا أن يُعيدوا لأنفسهم حق القراءة.

في منتصف القرن التاسع عشر، كان رفاعة الطهطاوي يدرس في باريس. رأى في متحف اللوفر تاريخ أجداده معروضاً في قاعات يصفها بالدهشة. وعاد ليَؤسّس "مدرسة الألسن" وليبدأ مشروع تعريب التاريخ المصري وربطه بهوية وطنية حديثة. كان يقوم بما يشبه ما فعله الفردوسي في فارس - لكن متأخراً وبظروف مختلفة.

لم يكن مشروع الطهطاوي مجرد ترجمة، بل كان محاولة لقول: هذا التاريخ يخصنا، ونحن نملك أدوات قراءته بلغتنا.

وبعده بجيل، جاء أحمد كمال باشا. أول عالم مصريات مصري بالمعنى الحقيقي للكلمة.

أحمد كمال - الفردوسي الذي لم تُقرأ شاهنامته.

رأينا في رحلة الموت كيف أن مصر لم يظهر فيها فردوسي يبني جسراً بين الماضي والحاضر. قلنا إن الجسر لم يُبنَ.

لكننا لم نقل الحقيقة كاملة.

لأن الجسر بُني. بيدٍ واحدة. دون دعم. دون اعتراف.

أحمد كمال باشا (١٨٥١-١٩٢٣) قضى حياته في مشروع واحد لم يدعمه أحد: بناء قواميس تربط الهيروغليفية بالقبطية والعربية والفرنسية والإنجليزية في آنٍ واحد. خمس لغات. جسر واحد. عمر بأكمله.

لم يكن هذا مشروعاً لغوياً بارداً. كان إعلاناً: الحضارة المصرية واحدة عبر كل لغاتها. وأبناؤها - من يتكلم القبطية في الكنيسة، ومن يتكلم العربية في السوق، ومن يقرأ الهيروغليفية في الجامعة - كلهم أحفاد شعب واحد يحمل ذاكرة واحدة.

لكنه واجه ما لا يواجهه أحد في مصادر المصريات الغربية بهذه الصراحة:

المؤسسة العلمية الأوروبية في نهايات القرن التاسع عشر كانت تنظر إلى المصريات كميدانها الخاص. الفرنسيون والإنجليز والألمان يحفرون في أرض مصر، ويكتبون عنها بلغاتهم، ويُعرّفون تاريخها لجمهورهم. عالِم مصري يريد أن يشارك كان يُواجه في أحسن الأحوال تجاهلاً مهذّباً.

وواجه أيضاً ما هو أشد: دولة مصرية لم تُقنع بعد أن الهيروغليفية ليست تاريخ الأجانب بل تاريخها هي.

وهكذا، مات أحمد كمال وقواميسه الكبرى لم تُنشر. جزء واحد فقط رأى النور. والبقية؟ مخطوطات تنتظر.

شاهنامة مصرية لم تُقرأ.

جسر بُني بالكامل - ولم يعبر عليه أحد.

الاستعمار الثقافي - حين تُسرق حجارة ثم يُسرق الحق في تفسيرها

قراصنة ببزات دبلوماسية!

لم تكن القنصليات الأجنبية في قاهرة القرن التاسع عشر مجرد مكاتب للسياسة، بل كانت "غرف عمليات" لنهب الذاكرة. هنا نلتقي بـ برناردينو دروفيتي (ظل فرنسا) وهنري سالت (عين إنجلترا)؛ رجلان لم يأتيا لتمثيل دولهما فحسب، بل جاءا لملء متاحف أوروبا بـ "أشلاء" الحضارة المصرية.

كان دروفيتي "تاجر البرديات" الذي لا يشبع، يبيع تاريخنا بالمزايدة لملك سردينيا تارة ولشارل العاشر تارة أخرى. أما سالت، فقد كان يملك "العضلة" الإيطالية العملاقة جيوفاني بيلزوني؛ ذلك المصارع الذي خرج من حلبات السيرك ليزيح تيجان الملوك المصريين من مرقدهم، وليشحن "رأس ممنون" ومسلات "فيلة" فوق سفنٍ تمخر عباب البحر نحو ضباب لندن.

المفارقة المضحكة المبكية: "لصوصٌ" باسم الحفاظ على الأثر!

في تلك الفترة، وُلدت قاعدة أخلاقية عجيبة صاغها "الغزاة المثقفون": "نحن نسرقكم لنحميكم!".

حين بدأ شامبليون نفسه يقتطع النقوش البارزة من مقبرة "سيتي الأول" ليحلي بها جدران اللوفر، واجهه الإنجليز باحتجاج "أخلاقي" زائف، فرد عليهم باستعلاء فرنسي: "أنا أنقلها لأحافظ عليها لا لأبيعها!".

يا لها من مكيافيللية ناعمة؛ فالحجر الذي صمد آلاف السنين أمام عواصف الصحراء والأمطار، فجأة أصبح "هشاً" ولا يحميه إلا النقل إلى أقبية باريس الباردة! لقد كان صراعاً على "السيادة العلمية" يتخفى خلف ستار "العشق الأثري"، لدرجة أن الباحثين البريطانيين كانوا يختبئون في دهاليز المقابر كلما اقترب شامبليون، خوفاً من أن "يسرق" اكتشافاتهم أو يدعي فضلها لنفسه.

بين مطرقة القناصل وسندان "الباشا"

وسط هذا النهب المنظم، كان محمد علي باشا، مؤسس مصر الحديثة، ينظر إلى آثارنا كـ "عملة سياسية". كان يمنح المسلات والتماثيل كهدايا لكسب ود القوى العظمى.

ورغم صدور مرسوم عام ١٨٣٥ الذي يمنع تهريب الآثار كبداية لوعي جنيني بقيمة التراث، إلا أن يد "الباشا" كانت لا تزال تمتد لتعطي "مسلة الأقصر" لفرنسا، لتنتصب في ميدان الكونكورد وسط مائتي ألف متفرج، تاركةً خلفها مكاناً فارغاً في قلب الأقصر، وشاهداً حياً على زمنٍ كانت فيه سيادة الأمم تُقاس بما تنهبه من ذاكرة الآخرين.

خلاصة المشهد:

لم تكن مصر في تلك الأيام "وطناً"، بل كانت "مشاعاً" في عيون الاستعمار الرومانسي. كان "الغرب" يرى في الشرق متحفاً مفتوحاً بلا صاحب، فاستخدموا "إزميل" العلم ليقتلعوا به جذورنا، مدعين أنهم يمنحوننا "الخلود" في متاحفهم، بينما كانوا في الحقيقة يفرغون البيت من أصحابه.

ما رأيناه في هذا الفصل - من ترجمة "نتر" بكلمة "إله" إلى تجاهل مخصص لوحة مرنبتاح، إلى إهمال صوت أحمد كمال - ليس سلسلة من الأخطاء العلمية العرضية.

هو نمط. نمط ممنهج لاحتكار الحق في القول عن الماضي المصري.

علماء الغرب لم يُخطئوا فقط في الترجمة. فعلوا شيئاً أعمق: قرروا أن الهيروغليفية تُقرأ بلغاتهم لجمهورهم بمعاييرهم. وأن أي صوت آخر - مصري أو قبطي أو عربي - يجب أن يمر عبر مصفاتهم لكي يُقبل.

الاستعمار الحقيقي ليس فقط أخذ الحجر - حجر رشيد في لندن، ومسلة الأقصر في باريس، ونقوش مقبرة سيتوس الأول في اللوفر. الاستعمار الحقيقي هو ما قاله شامبليون لمنافسه الإنجليزي بونومي بصفاقة تامة حين اعترض على سرقته لنقوش المقابر: "لا أعترف بأي سلطة في مصر إلا سلطة الباشا." وكأن الباشا - الذي كان يهب الآثار ليكسب ودّ الأجانب - كان يمثّل المصريين.

لكن - وهذا ما يُنصف هذه القصة من طرفيها - لم يكن الاستشراق صوتاً أحادياً. كان هناك صوت نيبور الذي قال ابدأوا بالقبطية. وكان هناك يونج الذي أقرّ بما لا يملكه ليونج الفيزيائي الهاوي. وكان هناك جاردينر الذي نشر معاييره الموحدة مفتوحة للجميع.

لكن الصوت الغائب دائماً الغائب - كان الصوت المصري الأصيل. صوت أحمد كمال وقواميسه. صوت الكاهن القبطي الذي علّم شامبليون القبطية ولم يُذكر اسمه في أي مرجع. صوت المصريين الذين حملوا الحجارة وحفروا القبور ومهّدوا الطريق للاكتشاف - ثم وقفوا في الخلف ينظرون.

خارج الأوراق.. داخل الحناجر

إن الحقيقة التي يجب أن نجهر بها هنا هي أن ما مات في مصر عبر القرون لم يكن "اللغة"، بل كان "الثوب" الذي ترتديه. لقد مات الخط الهيروغليفي المقدس بانغلاق المعابد، وانزوى الخط الهيراطيقي الإداري، وذبل الديموطيقي الشعبي، ثم تراجع القبطي -في طوره الأخير- ليعتصم بالمحاريب والصلوات، ليتصدر اللسان العربي المشهد.

لكن (رنكيمة) -الاسم العتيق للسان المصري- لم تذهب إلى القبر كما ظن علماء الغرب.

لقد فعل الغرب المستحيل ليحصل على الحجر، ونجح في احتكار التفسير، لكنه وقف عاجزاً أمام (الحنجرة). فالمصري الذي لا يعرف اليوم كيف يفك شفرة الرموز في المتاحف، ينطق بها بالفطرة كل صباح؛ حين ينادي طفله، أو يصف مذاق طعامه، أو يشكو مرارة وجعه. إن اللغة المصرية لم تكتشفها ريشة شامبليون في باريس، بل حافظت عليها شفاه الفلاحين في حقول الصعيد ونجوع الدلتا.

لقد بقيت "الرنكيمة" حية، نابضة في عروق اللهجة، مختبئة في أكثر من اثني عشر ألف كلمة تجري على ألسنتنا اليوم، وكأنها شيفرة سرية ورثناها جينياً، لا تتبدل بتبدل الخطوط ولا بموت الأبجديات. إنها "اللغة المستمرة" التي لم تستطع أي سلطة -أكاديمية كانت أم استعمارية- أن تسكت صباها.

خاتمة الرحلة: حين تُعاد الكلمة إلى أصحابها

في مشهد يستحق التأمل الطويل، أعلن المتحف البريطاني عام ٢٠٢٢ - في الذكرى المئوية الثانية لإعلان شامبليون فك الرموز - أنه لن يُعيد حجر رشيد إلى مصر.

قالت الجهة البريطانية إن الحجر "موروث للإنسانية جمعاء".

وردّت الجهة المصرية: الإنسانية جمعاء لم تمتلكه أصلاً. امتلكته مصر. ثم سُرق في حرب.

هذا النقاش - الذي تشهده اليوم متاحف لندن وباريس وبرلين في مواجهة مطالبات الدول الأصلية - هو الامتداد الطبيعي لكل ما رأيناه. الحجر كان غنيمة حرب. والتفسير كان احتكاراً ثقافياً. والاعتراف بأن المصريين يملكون الحق في تاريخهم - الحق في قراءته وتفسيره وإعادة روايته هو ما لم يحدث بعد بالشكل الكافي.

لكنه بدأ.

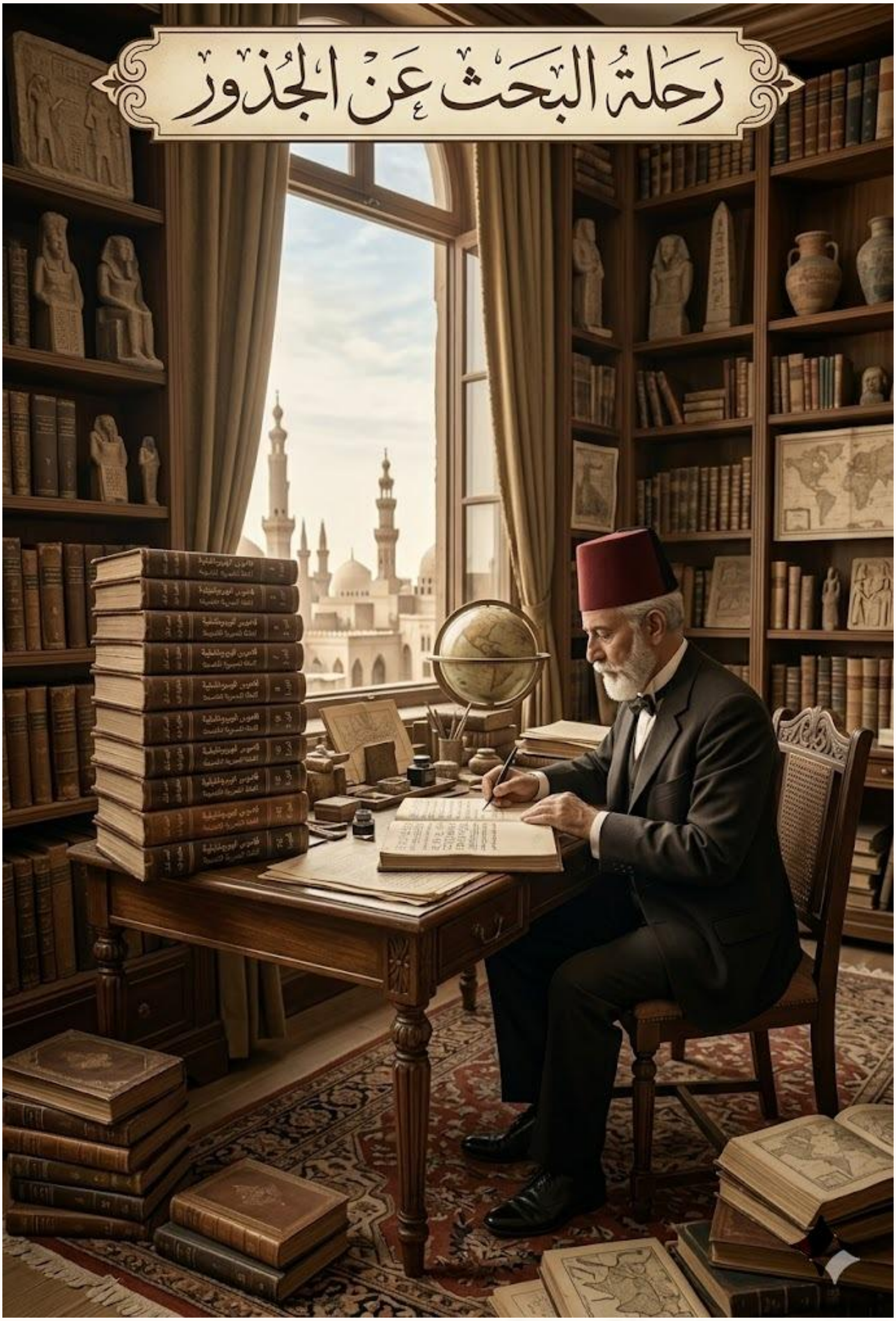
في الجامعات المصرية التي تدرّس المصريات بالعربية لا بالإنجليزية. وفي الباحثين الذين يُعيدون قراءة أحمد كمال وينشرون قواميسه المخطوطة. وفي كل مصري يقف أمام جدران الكرنك ويُقرّر أنه لا يقف أمام تراث الغرباء بل أمام كلام أجداده.

هذه الاستعادة - البطيئة والجزئية والمستمرة - هي البعث الحقيقي.

ليس بعث اللغة الميتة. بل بعث الحق في قراءتها.

وفي الباب التالي - رحلة الاستمرار - سنكتشف أن اللغة المصرية لم تمت أصلاً. إنها تجري في الأفواه منذ آلاف السنين، بأقمصة مختلفة، وصوت واحد. وسنسأل: ما الذي يعنيه أن يكتشف المصري اليوم أن ١٢،٠٠٠ كلمة في لهجته اليومية تحمل جذوراً تعود إلى ما قبل الهيروغليفية نفسها؟

رحلة البحث عن الجذور



الفصل الأول: الرجل الذي قرأ لغة اجداده

"واعلموا أيها السادة أن كثرة مطالعتي في اللغة المصرية القديمة منذ كنت في الثامنة عشرة من عمري إلى أن بلغت الستين مهدت لي سبيل الوصول إلى اكتشاف غريب مفيد ألا وهو أن اللغة العربية واللغة المصرية القديمة من أصل واحد" أحمد كمال باشا - محاضرة ألقاها بمدرسة المعلمين الناصرية سنة ١٩١٤

"أتنبأ مقدماً أن الدهشة ستعم ذات يوم مجال البحث اللغوي لدى تبين مدى عمق الوشائج العائلية الوثيقة التي تربط اللغة المصرية بأخواتها الساميات " هنري بروجش

هذه الكلمات، المليئة بالحدس العلمي الصادق، نطق بها العالم الألماني الكبير هنري بروجش في عام ١٨٦٧. لقد رأى بروجش خيطاً ذهبياً مدفوناً تحت رمال الافكار، خيطاً يربط لغة المصريين القدماء بلغات الصحراء والشام. لكن بروجش كان يتنبأ، كان يرى الأفق من بعيد.

أما الرجل الذي كان مقدراً له أن يمسك بهذا الخيط بيديه، ويحوله من نبوءة إلى حقيقة، كان تلميذه المصري، أحمد كمال. هو من كان سيعيش هذه الدهشة، وسيدفع ثمنها غالياً.

رحيل شيخ الآثاريين المصريين

في عام ١٩٢٣، مات رجل في القاهرة وهو يحمل في يده مفتاحاً.

لم يكن مفتاحاً من حديد. كان ثلاثة وعشرين مجلداً مخطوطاً، أنفق فيها ما يقارب ثلث عمره، سطراً بسطر، ورمزاً برمز، وهو يحلم بأن يكون هذا القاموس جسراً. جسراً بين لغة أمة ونفس الأمة التي نسيتها.

كان حرف «السين» وحده يحتل ألفًا وسبعين صفحة. جمع فيه كمال أكثر من أربعة آلاف كلمة مصرية قديمة مع مقابلاتها العربية والقبطية والعبرية، مع شرح تطور الصوت والمعنى عبر الزمن. لم يكن قاموسًا عاديًا، بل كان «خريطة جينية» للغة، يُظهر كيف انتقلت الكلمات من ضفة النيل إلى صحراء الجزيرة العربية وعادة.

لم يُنشر القاموس في حياته.

انتظر ثلاثة وسبعين سنة قبل أن يرى النور، جزءاً واحداً فقط.

اسم الرجل: أحمد كمال باشا.

الفضول الذي لا يُغفر

ولد أحمد كمال عام ١٨٥١ في القاهرة، لعائلة مصرية عادية. لم يكن من أسرة نبيلة ولا من بيت نفوذ. كان مصرياً عادياً بفضول غير عادي.

في الثامنة عشرة من عمره، وقع في غرام الهيروغليفية. درس على يد العالم الألماني هنري بروجش، تعلم المنهج، أتقن اللغة، وأصبح واحداً من أرسخ الناس معرفة بها في مصر كلها.

لكنه لاحظ شيئاً لم يلاحظه أساتذته الأوروبيون، أو ربما لاحظوه وآثروا الصمت.

لاحظ أن هذه اللغة ليست غريبة.

حين يقرأ نصاً هيروغليفياً، تمر عليه كلمات تشعر وكأنها تنتمي إلى شيء يعرفه. جذور تشبه جذوراً عربية. بنى نحوية تشبه ما تعلمه في الكتّاب. أصوات تخرج من نفس المخارج.

بعد ستة وثلاثين سنة من الدراسة والمقارنة، توصل إلى ما سماه "اكتشافاً غريباً مفيداً":

"اللغة العربية واللغة المصرية القديمة من أصل واحد."

في أوراقه المخطوطة، سجّل كمال عشرات الأمثلة التي لا تُنسى. فكلمة «نفر» في المصرية القديمة (التي تعني الشاب أو الرجل الجميل) تطابق جذرها مع «نفر» العربية. وكلمة «مر» المصرية (الحب أو الرغبة) تتطابق مع «مرّ» العربية في معنى الحب الشديد. أما «حب» المصرية القديمة (القلب) فهي نفسها «حب» العربية. حتى صيغة المثنى النادرة في العربية (كتابان) لها مقابلها في المصرية (كتابي). كان كمال يجمع هذه الأمثلة كمن يجمع قطع اللغز، ليَثبت أن الشبه ليس صدفة، بل هو دم واحد يجري في عروق لغتين.

لم يكن هذا شعوراً. كان تحليلاً لغوياً دقيقاً. كلتا اللغتين تعتمدان على الجذور الساكنة. تشتركان في الضمائر المتصلة. تستخدمان التاء علامة للتأنيث. وكلتيهما تملكان صيغة المثنى النادرة.

جملة واحدة بسيطة، لكنها كانت تعني شيئاً هائلاً: مصر لم تكن يوماً منفصلة عن محيطها. المصريون المحدثون ليسوا غرباء عن حضارتهم القديمة. هناك خيط يمتد، خفي لكن حي.

ولم يكن حدس كمال هذا نابعاً من عاطفة قومية عابرة، بل كان ثمرة تطبيق صارم لأرقى مناهج عصره؛ (علم فقه اللغة المقارن). وبينما كانت المدرسة الفرنسية غارقة في "تاريخ الحجر"، كان كمال يغوص في "تاريخ الصوت"، مستخدماً مبضع المدرسة الألمانية -التي تعلم فيها- ليشرّح جسد الكلمات.

لقد آمن كمال بقانون (الصدى والمرآة) -أو ما يُعرف علمياً بالقلب والإبدال- وهو القانون الذي يفسر كيف تتبادل الحروف "الأشقاء" أماكنها أو مخارجها حين تنتقل الكلمة من لسان إلى لسان. فكما تتحول السين في (سلام) العربية إلى شين في (شالوم) العبرية، رأى كمال بعينه الخبيرة كيف تتحول الثاء في (ثور) العربية إلى سين في (سور) المصرية القديمة.

لقد كانت الحروف عند كمال "ترقص"؛ فتارة يسبق بعضها بعضاً (كالقلب في جَذَب وجَبَذ)، وتارة يستعير الحرف مخرج شقيقه. لم يكن يجمع كلمات متشابهة بالصدفة، بل كان يطبق "قانون الجاذبية اللغوية" الذي وضعه علماء الألسن الألمان، لكنه وجهه نحو وجهة كانت "محرمة" أكاديمياً في ذلك الوقت: وجهة اللسان العربي. لقد كان كمال يقول لأساتذته الأوروبيين بلسان الحال: (أنا لا أخترع منهجاً، أنا أطبق منهجكم الذي تفاخرون به، لكنني أملكه بشجاعة لا تملكونها).

لماذا العربية بالذات؟ سياق يتجاوز القومية

وهنا، يجب أن نتوقف لندرك عبقرية كمال التي تجاوزت عصره. لم يكن الرجل مدفوعاً بحماس قومي عربي، بل بمنطق علمي صارم. لقد أدرك ما أكده علم اللغة لاحقاً: أن اللغة المصرية القديمة لم تكن لغة معزولة في إفريقيا، بل كانت عضواً أصيلاً في عائلة لغوية مترامية الأطراف تُعرف اليوم بالأسرة "الأفروآسيوية". هذه الأسرة تضم تحت مظلتها فروعاً متعددة، أهمها: الفرع "المصري" (بكل أطواره)، والفرع "السامي" (الذي يضم الأكادية والعبرية والآرامية والعربية)، والفرع "الأمازيغي"، والفرع "الكوشي" (في القرن الإفريقي)، والفرع "التشادي".

ما فعله كمال هو أنه أخذ "العربية" - باعتبارها العضو الأكثر ثراءَ وحيوية وبقاءَ من الفرع السامي - واستخدمها كـ "مرآة" ليكشف بها عن ملامح شقيقتها الكبرى "المصرية". لم يكن يقول إن المصرية "أصلها" عربي، بل كان يقول إنهما "بنات أصل واحد". وبهذا، لم يكن كمال

"عروبياً" بالمعنى السياسي، بل كان "أفروآسيوياً" بالمعنى العلمي، سابقاً بذلك أستاذه بروجش ومعظم علماء عصره.

لكن هذا الاختيار الواعي للعربية كان يحمل في طياته قطيعة أخرى لا تقل خطورة. فالمدرسة الأوروبية، وعلى رأسها شامبليون، بنت منهجها على فكرة أن "القبطية" هي الجسر الوحيد للهيروغليفية. وبما أن القبطية كانت لغة طقسية مسيحية، فقد كان هذا المنهج يرضي الكنيسة من جهة، ويبقي مصر القديمة في إطار "شرقي-مسيحي" تحت وصاية أوروبا من جهة أخرى.

لم يرفض كمال القبطية، بل أتقنها مثل أستاذه بروجش. لكنه كان يرى فيها "أختاً كبرى" للمصرية، بينما العربية هي "الابنة الصغرى" الأكثر حيوية واتساعاً. لقد اكتشف كمال أن القبطية وحدها لا تكفي لفك شيفرة "روح" اللغة، لأنها لغة ماتت كلغة شعب وتحجرت في الطقوس. بينما العربية كانت لغة حية، تنبض بملايين الأفواه، وتحتوي في جذرها الثلاثي على مفتاح آلاف الكلمات التي ضاعت في متاهات الزمن. كان كمال يقول ضمنياً: (القبطية هي الجثة التي نشرحها، والعربية هي الدم الذي يجري في عروقنا).

ضريبة الشغف وفخ الكمال:

ولأن الأمانة العلمية تقتضي ألا ننصب تمثالاً منزهًا عن الخطأ، يجب أن نعترف أن كمال - في غمرة شغفه لربط ما انقطع- قد سقط أحياناً في (فخ المبالغة). لقد كان كمن وجد خيطاً حريرياً يربط بين ضفتين، فأراد من شدة لهفته أن يجعل كل خيوط العالم تمر عبر هذا الجسر.

أخذ عليه أحياناً أنه استخدم قانون (القلب والإبدال) بحرية مفرطة، محاولاً قسر بعض الكلمات على التشابه حتى وإن تباعدت بينها القرون. عاتبه خصومه -وبعض محبيه- لأنه أغفل أحياناً الفجوة الزمنية الهائلة بين مصر القديمة والعربية الفصحى، أو لأنه لم يوثق في هوامشه كل المراجع الأوروبية التي استقى منها أدواته.

لكن، أليست هذه هي ضريبة الرواد؟ إن "عثرات" أحمد كمال هي عثرات الفارس الذي يركض في أرض لم يطأها أحد قبله. وبينما كان زملاؤه الأوروبيون -أمثال (جاردينر) و(إرمان)- يدرسون المصرية كلغة "ميتة" محنطة في المتاحف، كان كمال يراها "نبضاً حياً"

في عروق شعبه. لقد أخطأ في بعض "الفروع" ليصيب في "الأصل" العظيم: وهو أن مصر لم تكن يوماً جزيرة معزولة، بل كانت القلب النابض لنسيج حضاري واحد.

الكتاب الذي أزعج الجميع

في عام ١٨٨٥، أصدر أحمد كمال كتابه "الفرائد البهية في قواعد اللغة الهيروغليفية."

لم يكن هذا مجرد كتاب. كان إعلاناً.

لأول مرة في التاريخ، كُتب كتاب متكامل يشرح قواعد الهيروغليفية باللغة العربية، دون حرف لاتيني واحد. شرح الأصوات بمقابلات عربية مباشرة. بنى القواعد بأدوات النحو العربي التي يعرفها كل طالب. قدّم نصوصاً هيروغليفية مع تحليل عربي سطراً بسطر.

كان يقول بوضوح: لا يحتاج المصري إلى وسيط أوروبي ليفهم تاريخه.

لم يكن كمال في هذا العمل يترجم (كلمات) فحسب، بل كان يثبت (وحدة المنطق العقلاني) بين المصري القديم والمصري الحديث. لقد جعل الهيروغليفية تبدو كـ (أخت كبرى للعربية، وليست عدواً أو لغةً أعجمية غريبة. بهذا الفعل، ألغى الغربة النفسية؛ فالمصري الذي يقرأ قواعد لغته القديمة بأدواته النحوية المألوفة، يكتشف أن أجداده لم يكونوا يفكرون بطريقة مختلفة عنه، بل كانوا يستخدمون نفس الشيفرة العقلية التي ورثها هو في جيناته.

في مقدمة الكتاب، كتب جملته الخطيرة: "أحببت أن أعمل أجرومية بالعربية ليسهل لأبناء وطني تناولها."

لم يكن يكتب كتاباً. كان يقول: هذه الحضارة ملكنا. ندرسها بلغتنا. لأبنائنا. لا للأوروبيين.

المواجهة الصامتة مع شامبليون

بهذا الفعل، لم يكن كمال يكتب مجرد كتاب مدرسي، بل كان يخوض مواجهة صامتة مع ظل "شامبليون" نفسه. فالمدرسة الفرنسية التي تأسست على يد شامبليون كانت ترى الهيروغليفية من خلال "نافذة" واحدة فقط: النافذة اليونانية والقبطية. لقد تم بناء علم المصريات بأكمله على فكرة أن الجسر الوحيد لفهم مصر القديمة يمر عبر أوروبا.

أما كمال، فقد فتح نافذة أخرى، نافذة شرقية، كانت مهملة تماماً. كأنه كان يقول للعالم: "أنتم تنظرون إلى جدتي من خلال عيون زوج ابنتها اليوناني، أما أنا فأنظر إليها من خلال عيون اختها الصغري العربية. كلانا يرى ملامحها، لكنني أرى الشبه العائلي الذي لا ترونه أنتم". لقد كان كتابه بمثابة إعلان استقلال منهجي عن مدرسة شامبليون، وهذا بالضبط ما لم يكن ليَغفر له.

الحلقة المغلقة

لكن مصر كانت تحت الاحتلال. ومصلحة الآثار كانت فرنسية بالكامل.

أحمد كمال، رغم تدريبه الرفيع ومعرفته العميقة، لم يستطع أن يعمل في مصلحة الآثار. كانت حكراً على الأجانب. اضطر للعمل مترجماً في وزارة المالية. ثم وصل إلى المتحف من الباب الخلفي، كاتباً ومترجماً، يُسمح له بأن يكون فنياً ممتازاً يحفر ويوثق وينقل المومياوات، لكن لا يُسمح له بأن يكون مفكراً ينتج معرفة أصيلة.

سُمح له بأن يخدم العلم. لم يُسمح له بأن يمتلكه.

الضربة التي جاءت من باريس

في عام ١٩١٤، نشر كمال مقالته الصريحة يعلن فيها أن اللغتين المصرية والعربية من أصل واحد.

لم يستطع جورج دارسي، نائب مدير مصلحة الآثار الفرنسي، السكوت.

هاجمه علناً. اتهمه بعدم الاتساق العلمي. قال إنه يبالغ. قال إنه يتجاهل السياق التاريخي.

لكن الهجوم الحقيقي لم يكن في الحجج، بل في النبرة. كان دارسي يقول لزملائه الأوروبيين، بكلام أو بدونه: "احذروا من هذا الصوت. لا تأخذوه على محمل الجد."

كان جورج دارسي يدرك، بوعي المستعمر الحذر، خطورة ما يفعله كمال. فالمصري الذي يقرأ (الرنكيمة) -اللسان المصري- بلسانه العربي، لن يظل مجرد (فني) يحفر الأرض تحت إشراف الأجانب، بل سيتحول فجأة إلى (صاحب بيت) عاد ليطالب بحقه في الميراث. لم

يكن الهجوم على كمال نقاشاً لغوياً، بل كان محاولة لإبقاء الحجر صامتاً إلا بلغة المستعمر، ليبقى المصري مجرد عامل في حضارته، لا وريثاً شرعياً لها.

ردّ كمال في عام ١٩١٧ في نشرة المعهد المصري، مضطراً أن يكتب بالفرنسية، لغة خصمه، في مجلة يهيمن عليها خصمه، ليَثبت أنه يستحق أن يُسمع.

كتب: "في نقده، لم يكتفِ السيد دارسي بتقديم ملاحظات علمية، بل وجّه هجمات حادة جداً، حذّر منها علماء المصريات من أفكاري."

كان يفهم اللعبة. لم يكن نقاشاً علمياً. كان إسكاتاً.

اللجنة الثلاثية

بحلول عام ١٩٢٠، أنهى كمال معظم قاموسه. ثلاثة وعشرون مجلداً ضخماً. حرف السين وحده وصل إلى ألف وسبعين صفحة.

قررت وزارة المعارف المصرية أن تطبعه. بدا أن العدالة آتية أخيراً.

لكن البيروقراطية اتخذت إجراءً مختلفاً. أرسلت مجلداً واحداً إلى لجنة تقييم. وكانت اللجنة تتألف من ثلاثة أشخاص: بريطاني يمثل سلطة الاحتلال، وفرنسي هو بيير لاكو مدير مصلحة الآثار، وأمريكي من جامعة هارفارد.

اثنان من ثلاثة كانا خصمين لكمال منذ البداية.

جاءت النتائج كاشفة. البريطاني صمت، وهو سلاح من نوع خاص. الأمريكي قال إن القاموس مفيد جداً وينبغي نشره. أما الفرنسي لاكو، فرفض رفضاً قاطعاً. قال إن الفرنسية تحتاج إلى ضبط، وهي حجة سخيفة ممن عمل كمال مترجماً لكبار علماء الفرنسية لعقود طويلة.
وهنا تجلت (سلطة الاحتلال المعرفي) في أبهى صور الكوميديا السوداء؛ فالرجل الذي أفنى عمره في فك رموز أعقد لغات العالم القديم، يُتّهم من قبل (بيير لاكو) بالعجز عن ضبط لغة المستعمر الفرنسية! لم يكن لاكو مهتماً بجودة الصياغة، بل كان يمارس (فيتو فكري)؛ فقبول القاموس يعني الاعتراف بالخيط الخفي الذي يربط القروي المصري بالفرعون الملك، وهو اعتراف كان سيهدم السردية الاستعمارية التي ترى في مصر (تركة بلا صاحب).

لم يُنشر شيء. مات أحمد كمال عام ١٩٢٣ ولم يرَ قاموسه يُطبع.

لم يكن موت كمال نهاية للمشروع، بل كان دخولاً في حالة (سبات ملكي)؛ تماماً كالمومياوات التي أفنى كمال عمره في حمايتها ونقلها. ظلت تلك المجلدات الثلاثة والعشرون تنتظر في صمت مريب (لحظة البعث)؛ اللحظة التي يكون فيها الوعي المصري قد استرد عافيته بما يكفي ليستعيد ميراثه من أدراج النسيان، ليتحول القاموس من ورق مُصفر إلى (بيان استرداد) يُعلن مائة عام من الصمود.

لكن الأدهى من رفض المستعمر، كان صمت "المثقف المصري" نفسه. ففي الوقت الذي كان فيه كمال يدفع ثمن جرأته، كانت النخبة المصرية المتفرنسة - التي تخرجت في جامعات باريس وعادت تحلم ببناء مصر على النموذج الأوروبي - تنظر إلى مشروعه بعين الريبة. كانوا يرون في هوسه بالعربية "رجعية" بدوية، وفي دفاعه عن الهيروغليفية "تصلباً" لا يتناسب مع روح العصر.

هؤلاء لم يكونوا خونة بالمعنى السياسي، لكنهم كانوا أسرى "الاستعمار المعرفي". لقد تبنوا مبدأ "التابولا رازا" (اللوح الفارغ)، معتقدين أن بناء مصر الحديثة يستلزم هدم كل جسور الماضي، والبدء من الصفر على الطريقة الأوروبية. لم يدركوا أن كمال لم يكن يدعوهم للعودة إلى الماضي، بل كان يمنحهم أدوات لاستلام زمام الحاضر. وهكذا، وقف كمال وحيداً بين سندان المستعمر ومطرقة المتغربين، يحمل قوساً بلا وتر، ويصرخ في وادٍ لا يسمعه أحد.

ما الذي كان يخيفهم حقاً؟

لم يكن العلم هو المشكلة.

المشكلة كانت أن قبول منهج كمال كان سيعني شيئاً واحداً: الاعتراف بأن المصريين المحدثين لديهم صلة حقيقية، لغوية وثقافية، بحضارتهم القديمة. وهذا يعني أنهم لا يحتاجون إلى وسيط أوروبي. لا يحتاجون إلى إذن. لا يحتاجون إلى شامبليون آخر ليأتيهم بتاريخهم على طبق.

اليوم، بعد مائة عام، يؤكد علم اللغة المقارن أن كمال كان على حق في الاتجاه العام، وإن كان قد بالغ في بعض التفاصيل. اللغة المصرية القديمة تُصنَّف اليوم ضمن الأسرة الأفروآسيوية، وتُعتبر شقيقة للعربية. لم يعد أحد ينكر الوشائج العائلية، لكن الغريب أن هذا الاعتراف العلمي جاء متأخراً، وبعد أن دُفن عمل كمال في أدراج المتاحف لعقود.

الاستعمار لا يأخذ الأرض فقط. يأخذ الحق في رواية التاريخ. ويجعلك تشك في أنك تملكه أصلاً.

لماذا كان كمال وحيداً؟

"عندما كنتُ أتعلّم اللغة المصرية القديمة في جامعة القاهرة، كنت أستعين في معظم الأحايين بكتاب 'النحو المصري القديم' من تأليف جاردنر، وكنتُ أرى بوضوح أن هناك أوجه شبه كثيرة بين هذه اللغة وبين اللغة العربية، وكانت نتيجة هذا الشعور أني انتهيتُ مع نفسي إلى أن اللغة المصرية القديمة إنّما يجب عند دراستها في مصر أن تُقارَن بالعربية التي حلّت محلّها عندنا وأنْ تُقَرّب منها ومن قواعدها'. عبد المحسن بكير

وجد كمال نفسه في أخطر موقع يمكن أن يقف فيه مفكر: (منطقة العدم) بين قوتين كلاهما يرفضه. فالمستعمر كان يريد تجريد التاريخ المصري من أصحابه ليمتلكه هو، والنخبة المتغربة كانت تريد التخلص من (عبء) الماضي لتلتحق بقطار أوروبا.

وقف كمال وحيداً ليعلن الحقيقة الأكثر راديكالية: (إننا لا نحتاج لاستئذان أحد لنكون أنفسنا). كان كمال يثبت أن الهوية المصرية أصيلة، أفروآسيوية، ومرتبطة بجذرها العربي، وهذا ما لم يغفره له الطرفان؛ فالمستعمر رأى فيه تهديداً لاحتكاره، والمتغرب رأى فيه عائقاً أمام (حلم التفرنج). وهكذا، صار الصمت حول كمال هو (الاتفاق الضمني) الوحيد بين الخصوم.

باشوية بلا تمكين: الوداع المكسور

في أواخر رحلته، نال أحمد كمال لقب "الباشا" بمرسوم ملكي، لكنه كان لقباً يشبه "النيشان" المعلق على صدر سجين. لقد اعترفوا بجهوده كأمين للمتحف ومسؤول عن نقل المومياوات، لكنهم رفضوا الاعتراف بعقله كمصدر للمعرفة. كان اللقب "اعترافاً بلا تمكين"؛ تكريماً لـ (الفني المخلص) وإقصاءً لـ (المفكر المتمرد). وفي عام ١٩٢٣، نفس العام الذي شهد رحيله،

توقفت كل تروس المطابع، وأحيل قاموسه إلى "لجان الدراسة" التي لا تنتهي، ليطويه النسيان المتعمد، ويموت كمال وحيداً، مكسور القلب، بجوار قاموسه اليتيم.

اغتيال المدرسة الوطنية

لكن الفجيعة الكبرى لم تكن في موت كمال، بل في نجاح (المحاة الاستعمارية). لقد تمكن (لاكو) و(فيرث) من هندسة عقول الأجيال التالية لدرجة أن تلاميذ كمال أنفسهم -عن غير قصد- أكملوا عمل جلاديه.

خذ مثلاً القامة الكبيرة (سليم حسن)؛ لقد نجح في استرداد (المناصب) كأول وكيل مصري لمصلحة الآثار، لكنه عاد من أوروبا محملاً بـ (المنطق الأوروبي). كتب موسوعته بالعربية، نعم، لكن بروح غربية ترى في مصر القديمة كائناً منفصلاً.

أما (عبد المحسن بكير)، فقد كان اعترافه في مقدمة كتابه (قواعد اللغة المصرية) بمثابة شهادة وفاة للمدرسة الوطنية؛ فقد اضطر أن (يعيد اكتشاف) صلة المصرية بالعربية من الصفر عبر بوابة (جاردينر) البريطانية، دون أن يدرك أن أستاذه كمال قد قدم له هذا المفتاح على طبق من ذهب قبل سبعين عاماً. لقد نجح القمع في جعل الحقيقة (يتيمة)، تضطر لقطع رحلة شاقة إلى لندن أو باريس لتعود إلينا بختم أجنبي، بينما كانت نائمة في أدراج القاهرة.

وحتى حين جاءت ثورة ١٩٥٢، حاملةً شعارات القومية والبحث عن الجذور، ظلت مدرسة كمال (محظورة) بشكل غير معلن. كانت الدولة تبحث عن (الرمز) لا (المنهج)؛ أرادت تمثال رمسيس في الميدان، لكنها لم تجرؤ على نبش (قاموس كمال) الذي يفكك المنهج اللغوي الاستعماري.

لقد كان هؤلاء العلماء الرواد أسرى لنموذج (جاردينر) و(برلين)؛ لأن شرعيتهم العلمية كانت مستمدة من إتقان (أدوات المنتصر). فكان إحياء منهج كمال يعني تقويضاً لأسس وجودهم الأكاديمي. وهكذا، ربحنا السيادة على الأرض، وخسرنا نصف قرن من الاستقلال الفكري، ليبقى قاموس كمال هو (البحث المؤجل) الذي انتظر حتى عام ٢٠٢٤ ليَعلن أن الضحية قد تتبنى منطق جلادها، لكن الحقيقة لا تموت أبداً.

الانتصار المتأخر

في عام ٢٠٢٠، تبرع حفيد أحمد كمال بالمجلدات كاملة لمكتبة الإسكندرية.

في عام ٢٠٢٤، فاز مشروع حفظ القاموس ورقمنته بجائزة إيكروم الشارقة الدولية للتراث الثقافي.

مائة سنة بعد وفاته، اعترف العالم بما رفض الاعتراف به في حياته.

جورج دارسي قال إنه يبالغ. العلم الحديث يقول إنه كان محتاطاً أكثر مما ينبغي. الحقيقة كانت أكبر مما قاله.

رحلة البحث عن الجذور

لكن "رحلة البحث عن الجذور" التي قادها كمال لم تكن رحلة لغوية بحتة. لقد كان يبحث عن "الحمض النووي" الثقافي الذي يثبت أن المصري المعاصر ليس غريباً في أرضه. كان يبحث عن "الجذر" في العادات والأخلاق والطبائع.

فحين يكتشف أن كلمة "أخ" في المصرية القديمة (سن) تشبه الصوت العربي، أو أن فكرة "الميزان" في يوم الحساب المصري تسبق الأديان التوحيدية، فهو لا يثبت تشابهاً لغوياً، بل يثبت استمرارية الوعي. هذا هو الجوهر الحقيقي لمشروعه: إثبات أن "رانكيمة" لم تكن مجرد لغة تموت، بل كانت "قاعدة بيانات" ضخمة للروح المصرية، تسربت عبر الزمن إلى الضمير الجمعي، بغض النظر عن الثوب الذي ترتديه.

تأمل ختامي

حين تقف أمام نقش هيروغليفي على جدار معبد قديم، لا تشعر بأنك زائر أجنبي ينظر إلى لغة لا تعنيه.

فكّر في رجل أمضى ستة وثلاثين سنة يثبت أن هذه اللغة ليست غريبة. أن جذرها موجود في الكلمات التي تنطقها كل يوم. أن الخيط لم ينقطع.

الاستعمار نجح في قطع الخيط الظاهر. لكنه لم ينجح في قطع الخيط الخفي. لأن الخيط الخفي لا يُقطع بمرسوم، ولا يُنسى بقرار.

بقي في اللغة. في الأصوات. في طريقة بناء الجملة.

وبقي في قاموس انتظر مائة سنة ليَقرأ.

الفصل الثاني: أختان لا غريبتان

في مكان ما على ضفة النيل، قبل ثلاثة آلاف سنة، وقف كاهن أمام إناء فخاري مليء بالماء. رفع يده، نطق كلمة، وسكب الماء على المذبح.

الكلمة التي نطقها كانت تُكتب هكذا في الهيروغليفية: mw ننطقها تقريباً: "مو".

الآن، في قرية في الصعيد أو في شارع في القاهرة، يصرخ طفل على أمه: "أنا عايز موية!" من الغريب ان نفس الكلمة "موية" تطلق على الماء في جزيرة العرب. هذا لا يعني بالضرورة أن العرب استعاروا الكلمة من المصريين، بل يعني أن الأختين (المصرية والعربية) ورثتا هذا الجذر من أمهما القديمة، وإن اختلفت رحلتهما بعد ذلك. وربما يكون حدث ذلك بالفعل.

ثلاثة آلاف سنة. كاهن وطفل. معبد وشارع. لغتان تبدوان مختلفتين تماماً.

والكلمة واحدة.

رحلة الكلمة

لم تقفز الكلمة من فم الكاهن إلى فم الطفل دفعة واحدة. سافرت ببطء، كما يسافر النيل، متغيرة الشكل محتفظة بالروح.

في العصر القبطي، حين تخلى المصريون عن الهيروغليفية وكتبوا لغتهم بالحروف اليونانية، ظلت الكلمة موجودة. أصبحت تُكتب هكذا: ⲘⲞⲞⲨ، وتُنطق "موي".

ثم جاء الإسلام، وجاءت العربية لغةً للدين والدولة. وتبنّاها المصريون. لكن الكلمة لم تمت. تشرّبت في العربية، التقت بجذر عربي قريب منها، وخرجت بصورة جديدة: ماء.

لكن في الصعيد، حيث يحتفظ الناس بالقديم أطول من غيرهم، ظلت قريبة من صورتها الأصلية: موية.

ثلاثة أشكال. ثلاثة عصور. جوهر واحد.

ولا تقتصر الأمثلة على كلمة «ماء». فكلمة «ابن» في المصرية القديمة (zꜣ) لها صدى واضح في «ابن» العربية. وكلمة «أب» (it) تطابق «أب» تمامًا. أما الفعل «رأى» فكان يُنطق في

المصرية «ماء» (mꜣꜣ) ولا يزال المصري يقول «شاف» أو «ما شافش» بنفس الجذر الصوتي. حتى الضمير «أنا» (ink) يشبه «أنا» في اللهجة المصرية. كل هذه الكلمات ليست مجرد تشابه سطحي؛ إنها اللبنات الأولى التي بنت بها اللغتان عالمهما.

لماذا لم تختفِ؟

هنا يكمن السر.

الكلمات الأساسية، تلك التي يحتاجها الإنسان كل يوم، لغذائه وبيته وجسده وطبيعته، هي الأصعب موتاً في تاريخ اللغات. يمكن أن تختفي كلمات الملوك والطقوس والفلسفة. لكن كلمة "ماء" لا تختفي. لأن الإنسان يحتاجها كل ساعة.

المصريون حين تركوا الهيروغليفية واعتنقوا القبطية ثم العربية، لم يتركوا معها كل شيء. تركوا الشكل وأبقوا على الروح. وهذه الروح كانت مخبأة في الكلمات الأساسية، تلك التي لا يمكن لأحد أن يأمرك بنسيانها لأنك تنطقها قبل أن تفكر.

الواحة التي لم تتحرك

خذ كلمة أخرى: الواحة.

المصري القديم كان يكتبها: wḥꜣ.t، وينطقها شيئاً قريباً من "ويحات".

في العصر القبطي أصبحت: ⲟⲩⲁϩ "واح".

واليوم نقول: واحة.

الكلمة لم تتحرك من مكانها تقريباً. وهذا منطقي. لأن الواحة نفسها لم تتحرك. ظلت في نفس البقعة من الصحراء، تُسقي نفس الناس، وتُسمى بنفس الاسم، عبر كل الغزوات والفتوحات والتحولات.

الجغرافيا أحياناً تحفظ اللغة أكثر من الكتب.

أختان من جدة واحدة

لكن الأمر أعمق من مجرد كلمات بقيت.

المصرية والعربية ليستا لغتين إحداهما أم والأخرى ابنة. هما أختان. وُلدتا من أم واحدة قديمة جداً، أقدم من الأهرامات، أقدم من الكتابة نفسها.

قبل اثني عشر ألف سنة، في زمن كانت فيه الصحراء الكبرى خضراء ومليئة بالحياة، كانت هناك مجموعات بشرية تتحدث لغة مشتركة. لم تكن مصر ولا العربية ولا العبرية. كانت شيئاً قبل كل هذا.

مع الزمن، تفرق هؤلاء الناس. بعضهم بقي على ضفاف النيل وطوّر ما أصبح المصرية القديمة. بعضهم اتجه شمالاً وشرقاً وطوّر ما أصبح العربية والعبرية والآرامية. بعضهم ذهب جنوباً وطوّر لغات القرن الأفريقي.

كل هذه اللغات أخوات. لا تتكلمن اليوم بنفس الكلمات، لكنهن يتنفسن بنفس الطريقة.

اليوم يتفق معظم علماء اللغة على أن المصرية القديمة والعربية تنتميان إلى الأسرة الأفروآسيوية ، وأن لهما أصلًا مشتركًا يعود إلى ما قبل ١٠،٠٠٠ سنة. لكن العلماء يختلفون في التفاصيل: هل كانت الصلة مباشرة أم غير مباشرة؟ هل كانت العربية متأثرة بالمصرية أم العكس؟ أحمد كمال كان رائدًا في طرح هذا السؤال، لكنه لم يكن الوحيد. ما فعله هو أنه جعل المصري ينظر إلى لغته القديمة من داخلها، لا من خارجها.

لم يكن هذا الكشف مجرد حدس عابر. لقد كان قلب مشروع أحمد كمال باشا الذي تحدثنا عنه في الفصل السابق. كمال هو من قضى ستة وثلاثين سنة يجمع الأدلة على هذه "الأخوة"، مُستخدمًا المنهج العلمي الألماني (فقه اللغة المقارن) ليَثبت أن ما نشعر به كغريزة هو في الحقيقة حقيقة لغوية مدعومة بآلاف من البراهين. لم يكن كمال يخترع صلة، بل كان يكشف صلة كانت موجودة لكن أحداً لم يجرؤ على الإعلان عنها.

ما الذي يجمعهما رغم الفراق؟

ودون أن نعيد هنا شرح نظرية "الأسرة الأفروآسيوية" التي أشرنا إليها في الفصل السابق، يكفي أن نتوقف عند ثلاث سمات جوهرية تثبت بجلاء أن هاتين اللغتين ليستا غريبتين:

الأصوات الحلقية: تلك الأصوات الغريبة التي لا توجد في اللغات الأوروبية، الحاء والعين والغين والقاف. هذه الأصوات موروث مشترك. حنجرة المصري المعاصر تنتج نفس الأصوات

التي كان يُخرجها الكاهن المصري القديم. بل هي نفس الأصوات التي يُخرجها العربي والعبري.

بنية الجذر: كلتا اللغتين تبنيان كلماتها على جذور ساكنة. ك-ت-ب في العربية تعطيك كتب وكاتب وكتاب ومكتبة. نفس المنطق كان يعمل في الهيروغليفية. هذا ليس تشابهاً سطحياً. هو طريقة تفكير مشتركة، طريقة يبني بها الإنسان المعنى من مادة صوتية.

علامة التأنيث: كلتا اللغتين تُؤنث بالتاء. في العربية: مُعلّم ومُعلّمة. في المصرية القديمة نفس المنطق بالضبط. وهذا بالذات نادر جداً في لغات العالم. التاء علامة الأنوثة ليست صدفة مشتركة، هي ميراث من الجدة نفسها.

استعادة "حور" من "هورس"

وهنا تكمن المفارقة؛ فحين نستمع اليوم إلى التراجم الغربية للهيروغليفية، تشعر آذاننا بغربة مريبة، وكأننا نسمع لغة من كوكب آخر. والسبب بسيط: الغربيون (غرّبوا) هذه الأصوات لأن حناجرهم لا تعرف الحاء والعين والقاف. فجعلوا من (حور) المصري (هورس)، ومن (تحوت) (توت). لقد نزعوا من اللغة "ملحها" الحلقي الأصيل. لكن الحقيقة أن حنجرة المصري المعاصر هي المختبر الوحيد القادر على نطق الهيروغليفية كما كانت؛ لأننا نملك نفس (مخارج الحروف) التي تشترك فيها العربية والمصرية القديمة كأخوات من رحم واحدة.

استعادة الأسماء: من "إيزيس" اليونانية إلى "عزة" المصرية

لا يتوقف التغريب عند "الحنجرة" فحسب، بل امتد ليشمل "هيكل الاسم" نفسه. فما نعرفه اليوم من أسماء الآلهة المصرية هي في الحقيقة (نسخ يونانية) مُعدلة لتناسب أذن الرجل الإغريقي.

لقد أضاف اليونانيون أداة التعريف أو لاحقة الرفع (يس - is/os) إلى نهاية الأسماء المصرية، فحولوا "أست" (أو إيزة/عزة) إلى "إيزيس"، وحولوا "أوزير" إلى "أوزيريس".

فـ "إيزيس" في حقيقتها المصرية هي "إيزة" أو "عزة"؛ وهو اسم لا يزال ينبض في بيوتنا حتى اليوم، ويحمل معنى "العزيزة" أو "ذات الكرسي/العرش".

و "أوزيريس" هو في الأصل "أوزير"؛ وهو اللفظ الذي نجد صداه في كلمة "وزير"؛ أي من يملك التدبير والمسؤولية.

حين نزيل هذه "السين" اليونانية الدخيلة، نكتشف أننا لا ننطق أسماء تاريخية ميتة، بل ننطق أسماء أخواتنا وجيراننا ومناصبنا الحالية. لقد كان اليونانيون يضعون "قناعاً" على وجه الأسماء المصرية، وأحمد كمال باشا -ومن سار على دربه- كان يحاول نزع هذا القناع لنرى ملامحنا الأصلية خلفه.

من حقول مصر إلى صفحات الكتاب المقدس: كلمات سافرت بعيداً

ولم تكن المصرية مجرد أخت كبرى تحتفظ بإرثها، بل كانت أيضاً "أختاً كريمة" منحت الكثير من كنوزها اللغوية لجيرانها. لقد كان تأثير وادي النيل الثقافي والسياسي هائلاً لدرجة أن الكثير من الكلمات المصرية الأصل سافرت شرقاً واستقرت في اللغات السامية الشقيقة، حتى أنها وجدت طريقها إلى صفحات الكتاب المقدس نفسه.

فكلمة "يَمّ" التي تعني "بحر" أو "ماء" في العبرية التوراتية واللغات السامية، يرى معظم اللغويين أن أصلها هو الكلمة المصرية القديمة "يم" التي تعني نفس الشيء. إن "اليمّ" الذي انشق لموسى كان يحمل اسماً مصرياً خالصاً.

والأمر الأكثر إثارة هو قصة "التابوت" الذي وُضع فيه الطفل موسى. الكلمة المستخدمة في النص العبري هي "تيباه" (Tebah)، وهي كلمة فريدة لا جذر سامي معروف لها. اليوم، يتفق العلماء على أنها اقتباس مباشر من الكلمة المصرية "دجيبات" (djebat) التي تعني "صندوق" أو "تابوت". لقد نجا موسى في صندوق كان يحمل اسماً مصرياً.

هذه الكلمات المسافرة تثبت أن العلاقة بين مصر وجيرانها لم تكن علاقة قطيعة أو عداء، بل كانت علاقة تأثير وتأثر عميقة، وأن صوت مصر كان مسموعاً ومقتبساً حتى في قلب النصوص التي بدت وكأنها تروي قصة مختلفة.

الخيط الذي لم ينقطع

حين دخل العرب مصر في القرن السابع الميلادي، لم يأتوا إلى أرض غريبة عليهم لغوياً في عمقها. جاءوا بلغة شقيقة تحمل نفس البنية، نفس الأصوات، نفس منطق تركيب الكلمة.

ربما هذا جزء من السر. سر لماذا تعرّبت مصر بسرعة لم تتعرب بها فارس مثلاً. ليس لأن المصريين أضعف. بل لأن العربية لم تكن غريبة تماماً عن حناجرهم. كانت تشبه شيئاً كانوا يعرفونه في مكان ما، في عمق اللسان.

صحيح أن التعريب كان أسرع في مصر، لكن ذلك لا يعني أن اللغة القديمة استمرت دون انقطاع كامل. حدثت فجوة زمنية طويلة، وتأثرت اللهجة المصرية بموجات فارسية ويونانية وتركية ولاتينية. الذي بقي ليس «اللغة» كاملة، بل «النواة» الأساسية: الكلمات اليومية، والأصوات الحلقية، وبنية الجملة. هذه النواة هي ما جعل العربية تبدو «مألوفة» للمصري، فاستقبلتها كأخت عادت بعد غياب طويل، لا كغريبة فرضت نفسها.

اللغة الجديدة لم تطرد القديمة، بل استقبلت ما بقي منها. وما بقي منها ليس قليلاً.

أبعد من الكلمات: حين نتحدث الهيروغليفية دون أن ندري

لكن الإرث الذي بقي لا يقتصر على المفردات، بل هو محفور في "هيكل" لهجتنا اليومية، في الطريقة التي نبني بها جملنا دون وعي منا. نحن لا ننطق كلمات مصرية قديمة فحسب، بل "نفكر" أحياناً بمنطقها النحوي.

خذ مثلاً طريقة النفي في العامية المصرية. حين نريد أن ننفي فعلاً في الماضي، نقول: "ما أكلتش". هذه الصيغة الفريدة (ما...ش) التي تحيط بالفعل، ليست موجودة في العربية الفصحى، بل هي نسخة شبه مطابقة لطريقة النفي في اللغة المصرية القديمة المتأخرة والقبطية، التي كانت تستخدم أداة نفي قبل الفعل وأداة أخرى بعده. سنتعرض لذلك بشيء من التفصيل في رحلة الاستمرار.

والأمر لا يتوقف هنا. حين يقول المصري اليوم: "الولد كتابه" بدلاً من "كتاب الولد"، فإنه يستخدم صيغة الملكية التي كانت سائدة في المصرية القديمة، حيث يأتي المالك أولاً ثم المملوك. وحين تقول الأم لطفلها غاضبة: "أنت الأكل أكلته؟" بتقديم المفعول به ("الأكل") وتكرار الفعل، فإنها تستخدم بنية جملة كانت شائعة جداً في النصوص الهيروغليفية للتأكيد.

إننا في كل يوم، في أكثر محادثاتنا عفوية، ننسج جملاً تحمل "البصمة الوراثية" للغة أجدادنا. لم نرث الكلمات فقط، بل ورثنا "الخوارزمية" التي ترتب بها هذه الكلمات.

لكن لنكن حذرين. ليس كل كلمة في العامية المصرية فرعونية الأصل، وليس كل تشابه لغوي دليلاً على القرابة. المغالاة في البحث عن الجذور قد تؤدي إلى نتائج مضحكة مثلما تؤدي إلى نتائج مبكية. الذي يهمنا هنا ليس جمع أكبر عدد من الكلمات "الشبيهة"، بل إثبات أن "البنية" العميقة للغة حية في حناجرنا، وأن "الخيط" لم ينقطع. أما التفاصيل الدقيقة، فهي تترك لأهل الاختصاص.

تأمل ختامي

في المرة القادمة التي تشرب فيها كوباً من الماء، تذكر أن الكلمة التي تنطقها الآن نطقها إنسان قبلك بثلاثة آلاف سنة، على ضفة نفس النهر، في نفس الحر، بنفس الظمأ.

الكلمات الأساسية لا تموت. تتغير ثيابها وتبقى.

وما بقي بيننا وبين تلك اللغة القديمة ليس أثراً في متحف. هو شيء حي في حناجرنا، نُخرجه كل يوم دون أن نعرف أننا نحمل هذا الميراث كله في صوت واحد بسيط.

ماء.

الفصل الثالث: لماذا يتكلم الجنوب بطريقة والشمال بأخرى؟

لو جلست في مقهى في القاهرة وسمعت رجلاً من أسوان يتحدث، ستشعر بشيء غريب.

اللغة واحدة. المفردات متقاربة. لكن هناك شيء في النغمة، في طريقة خروج الكلمات، يجعلك تشعر أن هذا الرجل يحمل شيئاً مختلفاً. كأن في صوته ثقلاً قديماً لا تجده في صوت أبن الدلتا.

لن تستطيع أن تصفه بدقة. لكنك ستحسه.

هذا الإحساس ليس وهماً. وليس مجرد فرق بين ريف ومدينة، أو بين شمال وجنوب عادي. ما تسمعه هو صدى شيء أقدم بكثير مما تتخيل.

القاف والجيم: حرفان يرويان تاريخاً

في الدلتا وفي القاهرة، حين يقول الناس "قلب" ينطقونها "ألب". القاف تتحول إلى همزة، إلى نفس خفيف يكاد يكون صمتاً.

في الصعيد، نفس الكلمة تخرج "جَلب". القاف تتحول إلى جيم، صوت أثقل، أكثر وضوحاً، يخرج من عمق الحلق.

هذا الفرق بين "ألب" و"جَلب" يبدو بسيطاً. لكنه واحد من أكثر الأسرار اللغوية إثارة في تاريخ مصر.

لأن هذا الفرق ليس وليد القرن الماضي. ولا وليد الفتح الإسلامي. ولا وليد المسيحية. هو أقدم من كل هذا.

حين كانت مصر أرضين

منذ فجر التاريخ، عرف المصريون أنهم يعيشون في بلدين في بلد واحد.

مصر السفلى في الشمال، حيث الدلتا المتفرعة، والبحر القريب، والتجارة مع الشام وكريت وقبرص. أرض مفتوحة على العالم، تستقبل وتعطي.

مصر العليا في الجنوب، حيث الوادي الضيق المحاط بالصحراء تحفها الجبال من الجانبين، والنوبة في الأفق، والشمس أكثر حدة، والصوت أكثر عمقاً. أرض تحتفظ وتحفظ.

لم يكن هذا الانقسام سياسياً فقط. كان جغرافياً في جوهره. النيل في الجنوب نهر واحد ضيق، يجمع الناس على ضفتيه ويحتفظ بهم في مكانهم. أما في الشمال فيتفرع إلى أذرع متعددة، يفتح الأرض، ويفتح معها اللغة والنغمة والتأثير.

لم يكن هذا الانقسام مجرد فرضية نستنتجها من الجغرافيا. النقوش المصرية القديمة نفسها تشهد عليه. في نصوص الدولة القديمة من منف (الشمال)، نجد أن كلمة «قلب» تُكتب وتُنطق بطريقة تميل إلى تبسيط بعض الأصوات الحلقية. أما في نصوص طيبة (الجنوب) في عصر الدولة الوسطى، فيظهر الحرف نفسه بنطق أثقل وأكثر احتفاظًا بالمخرج الحلقي. هذا الفرق الذي سجّله النقّاشون أنفسهم على جدران المعابد يثبت أن الانقسام لم يكن وليد الفتح العربي، بل كان موجودًا قبل أن تُكتب أول بردية.

الجغرافيا تصنع اللغة بقدر ما تصنع الإنسان.

الشمال يستقبل والجنوب يحتفظ

حين جاء الهكسوس من الشرق وأقاموا دولتهم في الدلتا، تأثر الشمال ولم يتأثر الجنوب بنفس القدر. حين جاء الإغريق وأسسوا الإسكندرية، ازدهرت الدلتا بلغة جديدة وظل الصعيد في عالمه. حين جاء العرب، تعرّبت القاهرة والدلتا أسرع بكثير مما تعرّب الصعيد.

هذا النمط تكرر عبر كل التاريخ. الشمال بوابة. الجنوب خزانة.

وهذا التكرار ترك أثراً في اللسان نفسه.

الجنوب احتفظ بأصوات أثقل وأقدم. أصوات تخرج من أعمق في الحلق. أصوات تشبه ما كان ينطق به المصريون القدماء أكثر مما تشبهه لهجة الشمال المتأثرة بكل من مر عليها.

الجيم الصعيدية ليست مجرد لهجة. هي أثر.

ان النيل في الجنوب ليس مجرد مجرى مائي، بل هو (قيدٌ حنون). الجبال تحاصر الوادي، فتجبر الناس على الالتصاق ببعضهم وبلسانهم؛ لذا كان الجنوب دائماً (خزانة الذاكرة). أما في الشمال، فإن النيل يسترخي، يتفرع، يفتح ذراعيه للبحر والمتوسط؛ فتصبح اللغة هناك

مثل الماء، تتشكل بإناء كل قادم جديد. لذا، فإن (خفة) لسان أهل الدلتا هي ضريبة الانفتاح، و(ثقل) لسان أهل الصعيد هو ثمن الوفاء للجذر.

القبطية شاهدة

في العصر القبطي، حين كتب المصريون لغتهم بالحروف اليونانية، لم تكن هناك لهجة واحدة. كانت هناك لهجات عدة، لكن اثنتين كانتا الأهم.

البحيرية في الشمال، لهجة الدلتا، أقرب في بعض أصواتها إلى اللغات المجاورة من الشمال والشرق.

الصعيدية في الجنوب، أكثر محافظة، أكثر التصاقاً بالأصوات القديمة، أثقل في نغمتها وأعمق في مخارج حروفها.

نفس الانقسام. نفس الخط الفاصل. نفس الجنوب يحتفظ والشمال يتأثر.

تؤكد الدراسات اللغوية الحديثة (مثل أعمال جيمس ألين وأنطونيو لوبيرينو) أن اللهجة البحيرية (شمالية) كانت أكثر تأثرَا بالتفاعل مع اللغات الشمالية الشرقية، بينما كانت اللهجة الصعيدية (جنوبية) أكثر محافظة على الأصوات الحلقية القديمة للمصرية. هذا الانقسام ليس مجرد «لهجة إقليمية»، بل هو استمرار حي للتباين الذي كان موجوداً داخل «الرنكيمة» نفسها قبل أربعة آلاف سنة.

والآن، بعد أن جاءت العربية وحلت محل القبطية، أعاد الانقسام نفسه إنتاج نفسه مرة أخرى. القاهرة والدلتا طوّرا لهجة أخف وأكثر انفتاحاً. والصعيد احتفظ بجيمه الثقيلة القديمة.

الجغرافيا لا تنسى. والنهر يُعلّم اللسان قبل أن يُعلّمه المدرسة.

وهنا نلمس عبقرية أحمد كمال باشا التي تحدثنا عنها في الفصل الأول. فبينما كان خصومه يتهمونه بـ "المبالغة" حين قال إن العربية والمصرية من أصل واحد، كان كمال يرى أبعد منهم. لم يكن يرى فقط تشابهاً في الكلمات، بل كان يرى أن البنية العميقة للغة - تلك التي تتحكم في طريقة نطق الحروف وتركيب الجمل - هي نفسها. وهذا الفصل يقدم الدليل الحي على صحة حدسه: الانقسام بين الشمال والجنوب في اللهجة المصرية اليوم

هو صدى لانقسام كان موجوداً قبل آلاف السنين، حين كانت المصرية القديمة نفسها تتحدث بلهجتين مختلفتين.

وهذا الانقسام الداخلي داخل المصرية يعكس تمامًا ما نجده في بقية الأسرة الأفروآسيوية: فاللغات الشرق اوسطية أيضًا تختلف بين شمالها (الآرامية والعبرية) وجنوبها (العربية الفصحى القديمة) في الأصوات الحلقية. كأن الجغرافيا في كل مكان تصنع نفس النمط: المناطق المفتوحة تُرقق، والمناطق المغلقة تحافظ.

أبعد من القاف: موسيقى الكلام وسرعة الإيقاع

لكن قصة الانقسام لا تُروى بحرف القاف وحده. إنها منسوجة في "موسيقى" اللهجة نفسها. استمع جيداً إلى لهجة أهل الشمال، في القاهرة والدلتا، وستجد إيقاعاً سريعاً، متدفقاً، فيه ميل لاختصار الكلمات و"أكل" بعض الحروف. إنها لهجة مدينة لا تتوقف، ولهجة حقول منبسطة يضيع فيها الصوت بسهولة، فتجبر المتكلم على السرعة والوضوح المباشر. إنها لغة "الإنجاز".

الآن، انتقل جنوباً. استمع إلى رجل من قنا أو الأقصر. ستجد الإيقاع قد تباطأ. هناك تمهّل، ومدّ في حروف العلة، وتفخيم في المخارج. كأن كل كلمة تأخذ وقتها لتخرج، محملة بوزنها الكامل. إنها لهجة مجتمعات أكثر استقراراً وترابطاً، حيث للكلام وقاره، وحيث لا يضيع الصوت في صخب المدينة بل يتردد صداه بين الجبال والنهر. إنها لغة "الحضور" لا "الإنجاز".

ومع ذلك، ليس الشمال «خاليًا» من الذاكرة. فبعض الأصوات والتراكيب القديمة بقيت في اللهجة الدلتا أكثر مما بقيت في الصعيد، مثل بعض أشكال الجمل المعقدة التي ورثتها العامية المصرية من المصرية المتأخرة. الفرق ليس «شمال ينسى وجنوب يحتفظ» فقط، بل هو «شمال يتفاعل وجنوب يحافظ» - وكلاهما يحمل جزءاَ من التراث.

هذا الفرق في "الموسيقى" بين الشمال والجنوب هو أيضاً إرث قديم. اللهجة البحيرية الشمالية كانت تُعرف بإيقاعها الأسرع، بينما كانت الصعيدية الجنوبية تُعرف ببطئها ووقارها. مرة أخرى، الجغرافيا والمجتمع يرسمان نغمة اللسان.

لماذا الجيم في الجنوب تحديداً؟

هنا يكمن السر الأجمل.

الجيم الصعيدية، ذلك الصوت الثقيل الذي يميز لهجة أسوان وقنا والأقصر، يشبه كثيراً ما يعتقد اللغويون أنه كان النطق الأصلي للقاف في المصرية القديمة والعربية الفصحى القديمة.

بمعنى آخر: الصعيدي حين يقول "جَلب" ربما يكون أقرب إلى النطق الأصلي الذي كان يستخدمه الإنسان في هذه المنطقة من الأرض منذ آلاف السنين، أكثر من القاهري الذي يقول "ألب".

الجنوب لم يبتكر شيئاً جديداً. الجنوب احتفظ بشيء قديم.

وهذا الاحتفاظ ليس عيباً ولا تخلفاً. هو ذاكرة.

والمفاجأة التي قد تذهل القاهريّ؛ ان العلم يخبرنا أن (الجيم الصعيدية) المعطشة هي الأقرب لنطق (القاف) الملكية في العصور الفرعونية الزاهرة، وهي ذاتها (القاف) التي نطق بها العرب الأوائل في باديتهم.

حين يقول الصعيدي 'جَلب'، هو لا يخطئ في النحو، بل يمارس أمانة تاريخية عفوية. إنه ينطق الصوت بمخرجه الأصيل الذي لم تلوثه (رقة) الحواضر ولا (ميوعة) الألسن الدخيلة. إنها الجيم التي صمدت أمام اليونانية والرومانية والفرنسية، وبقيت تشبه صلابة الجرانيت في محاجر أسوان.

بل إن بعض مناطق الصعيد - كالأقصر وقنا - تحتفظ بظاهرة أعمق: قلب القاف إلى "چ" (تعطيش الجيم) في بعض الكلمات. يقولون "چمل" بدلاً من "جمل"، و"چبل" بدلاً من "جبل". هذه الظاهرة موجودة أيضاً في بعض اللهجات العربية القديمة، وفي اللغة الكنعانية القديمة. والصعيد يحتفظ بها كأثر حفري حي، بينما فقدتها باقي اللهجات المصرية والعربية.

الثابت الوحيد في التاريخ المصري

الملوك تغيروا. الأديان تغيرت. اللغات تغيرت. حتى مجرى النيل تغير قليلاً طُمست بعض فروعه وجفت عبر آلاف السنين.

لكن الانقسام بين الشمال والجنوب لم يتغير.

كان موجوداً قبل الأسرات حين كانت ثقافة نقادة والبداري في الجنوب مختلفة عن ثقافة حضارة مرمدة بني سلامة، وحضارة الفيوم، وحضارة العمري، وحضارة بوتو-المعادي في الشمال. وكان موجوداً حين وحّد مينا مصر وجمع التاجين. وكان موجوداً في عصر الرومان حين كانت الإسكندرية عالمية والصعيد محافظاً. وهو موجود اليوم حين تسمع الفرق بين صوت القاهرة وصوت أسوان.

هذا الثابت الوحيد ليس ملكاً ولا ديناً ولا لغة. هو النهر نفسه، ضيقاً في الجنوب ومتفرعاً في الشمال، يصنع من طبيعته طبيعة الناس الذين يعيشون على ضفتيه.

هذا الانقسام ليس وليد الصدفة، بل هو صدى لصراع الهويات الأول قبل مينا وتوحيد القطرين. فمنذ فجر الزمان، كانت حضارة (نقادة) في الجنوب تميل للحشد والقوة والمركزية، بينما كانت حضارات الشمال مثل (مرمدة بني سلامة) تميل للاستقرار الهادئ والتبادل.

مينا لم يوحد الأرض فقط، بل حاول توحيد (اللسانين)، لكن الجغرافيا كانت أقوى من التاج. ظلت (الرنكيمة) الجنوبية محتفظة بوقارها، وظلت (البحيرية) الشمالية مائلة للرشاقة. واليوم، حين تسمع التباين بين لهجة 'قنا' ولهجة 'المنصورة'، فأنت في الحقيقة تستمع إلى حوار مستمر منذ سبعة آلاف عام بين حضارتين صهرهما النيل ولم يمحُ تفردهما.

حين يلتقي النقيضان: خط برزخ المنيا

وإذا كان هذا الانقسام حقيقة جغرافية وتاريخية، فلا بد أن يكون له "خط تماس" يمكن رؤيته على الخريطة اللغوية اليوم. وهذا الخط موجود بالفعل. إنه يمر عبر محافظة المنيا، "بوابة الصعيد".

المنيا هي "البرزخ" اللغوي الذي يلتقي فيه النقيضان. في شمال المنيا، لا تزال القاف القاهرية هي السائدة. كلما اتجهت جنوباً داخل المحافظة نفسها، تبدأ "الجيم" الصعيدية في الظهور خجولة، ثم تزداد قوة حتى تصبح هي القاعدة في أسيوط وسوهاج وما بعدهما.

إن المرور عبر المنيا يشبه مشاهدة فيلم بالتصوير البطيء لتحول اللهجة. إنها تثبت أن هذا الانقسام ليس مجرد فكرة نظرية، بل هو حقيقة تتجسد قرية بقرية، ومركزاً بمركز، على أرض الواقع. إنها الحدود الحقيقية بين مصر العليا ومصر السفلى، التي لم ترسمها السياسة، بل رسمها اللسان.

وإذا كانت المنيا هي "البرزخ" اللغوي اليوم، فالمثير أن مصر القديمة عرفت هذا "الخط" أيضاً. فالفرق بين لهجة الشمال (الدلتا ومنف) ولهجة الجنوب (طيبة) لم يكن حاداً، بل كان هناك نطاق انتقالي يمر عبر منطقة أسيوط والمنيا. الجغرافيا لم تتغير. واللسان لا ينسى طريقه.

تأمل ختامي

في المرة القادمة التي تسمع فيها لهجة صعيدية، لا تسمع فيها مجرد اختلافاً إقليمياً.

اسمع فيها طبقة جيولوجية من الزمن. اسمع فيها جنوباً ظل يحتفظ بما كان ينساه الشمال، عبر كل الغزوات والتحولات والفتوحات.

اسمع فيها النهر الضيق الذي يجمع الناس على ضفتيه ويجعل أصواتهم أكثر عمقاً، وأكثر التصاقاً بشيء قديم جداً لا اسم له إلا الجذر.

الجيم الصعيدية ليست خطأً في النطق. هي رسالة من الماضي لم تصل بعد إلى من يقرأها.

الفصل الرابع: الجسد الباقي

في مكان ما في مصر، الآن، في هذه اللحظة بالذات، يقف رجل على ضفة النيل.

ربما يغسل وجهه. ربما يسقي أرضه. ربما يجلس فقط ينظر إلى الماء كما جلس أجداده ينظرون إليه منذ آلاف السنين.

لا يعرف هذا الرجل أنه يقف في نفس المكان الذي وقف فيه من قبله بثلاثة آلاف سنة. لا يعرف أن الكلمات التي يتمتم بها في الصباح، "ماء" و"أرض" و"شمس"، بعضها يحمل ذاكرة أقدم من الأهرامات. لا يعرف أن الأصوات التي تخرج من حنجرته هي نفس الأصوات التي كانت تخرج من حنجرة الكاهن الذي وقف في هذا المكان قبله.

لكن جسده يعرف. حين يقول المصري «ما شفتش» أو «ما عملتش»، فهو يستخدم صيغة النفي التي كانت موجودة في المصرية المتأخرة والقبطية (ما + فعل + ش). حين يمدّ الصعيدي حرف العين في «عين» أو يثقل الجيم في «جَلب»، فهو يستعيد مخارج حلقية كانت تستخدم في نصوص الأهرام. الجسد لا يقرأ الكتب، لكنه يحفظ الذاكرة في الحنجرة واللسان والإيقاع.

الوهم الذي صُنع بعناية

لو سألت مصرياً عادياً: هل تشعر بصلة بالمصري القديم؟

سيتردد. ربما يقول: "هم أجدادنا طبعاً." لكنك ستحس في صوته شيئاً غير مقتنع. كأنه يقول ذلك لأنه يجب أن يقوله، لا لأنه يشعر به حقاً.

لماذا؟

لأن قرونا من الرسائل المتراكمة أقنعته بأن ثمة قطيعة. أن شعباً جاء ومحا شعباً. أن اللغة الجديدة أسدلت ستاراً على القديمة. أن من يقف اليوم على ضفة النيل هو إنسان آخر، غير من وقف هناك بالأمس البعيد.

هذا الوهم صُنع بعناية. وأُحكم تصميمه.

لكنه وهم.

ما الذي تقوله الأجساد؟

حين يفحص العلماء الحمض النووي لمومياوات مصرية قديمة ويقارنونه بالمصريين المعاصرين، يجدون شيئاً مثيراً.

الاستمرارية.

دراسات الحمض النووي على مومياوات مصرية من عصور مختلفة أظهرت استمرارية جينية واضحة في النواة الأساسية للسكان عبر الزمن، مع وجود تأثيرات خارجية محدودة نسبيًا اندمجت في النسيج البيولوجي المصري دون أن تستبدله. الجينات – مثل اللغة والجغرافيا – تؤكد أن الشعب الذي بنى الأهرامات لم يختفِ، بل امتص الوافدين وأبقى على هويته البيولوجية الأساسية.

ليست استمرارية كاملة بالطبع، لأن لا شيء في التاريخ يبقى بلا تغيير. لكن النواة الجينية الأساسية ظلت. الجسد المصري، في عمقه البيولوجي، هو امتداد طبيعي لمن كان هنا قبله.

الفاتحون مروا. بعضهم ترك أثراً. لكن أحداً لم يستبدل الشعب. الأرض كانت ممتلئة بأناس راسخين في أرضهم، وكل من جاء اندمج بدلاً من أن يحل.

هذا لا يعني أن الجسد المصري بقي «نقياً» تماماً. اندمجت فيه طبقات فارسية ويونانية وعربية وبدوية، لكن هذه الطبقات لم تستبدل النواة الأساسية، بل أضافت إليها كما يضيف الطمي إلى الدلتا دون أن يغير مجرى النهر. الجسد لم يُستبدل؛ هو امتص الجديد وصهره في قالبه القديم.

المصريون لم يذهبوا إلى أي مكان.

إن الاستمرارية الجينية التي يتحدث عنها العلم ليست مجرد أرقام ونسب، بل هي (عناد بيولوجي) مذهل. لقد حاول كل غازٍ أن يترك توقيعه على ملامحنا، لكن الجسد المصري كان يمتص الوافد ويصهره في قالبه الخاص. نحن لسنا (بقايا) حضارة، نحن (الحضارة ذاتها وهي ترتدي ثياب العصر. إن الفلاح الذي يحرث أرضه اليوم في (الشرقية) أو (سوهاج) يحمل في خلاياه (شفرة البقاء) التي جعلت أجداده يبنون الأهرامات؛ جسده ليس مجرد

امتداد لأجداده، بل هو امتداد للأرض نفسها، مرآة حية للطمي الذي يشربه والنيل الذي يسقيه. هو لم يتغير، فقط أدواته هي التي تغيرت.

ثلاثة أثواب وجسد واحد

تخيل رجلاً يعيش في نفس البيت لما يقرب من سبعة الاف سنة.

في الأربع الاف سنة الأولى كان يرتدي ثوباً من الكتان الأبيض، ويكتب على جدران بيته بالهيروغليفية، وينطق اسم الإله بأصوات لا يسمعها أحد الآن.

ثم غيّر ثوبه. ارتدى ثوباً أبسط، وكتب بحروف يونانية، وصلى بالقبطية في كنيسة أقامها فوق معبد قديم.

ثم غيّر ثوبه مرة أخرى. ارتدى العربية وأسلم ومشى في الطرقات ينادي بأسماء جديدة.

لكن الجسد تحت الأثواب الثلاثة كان واحداً.

نفس الأنف. نفس العظام. نفس الحنجرة التي تخرج منها الأصوات الحلقية التي لا تجدها في اللغات الأوروبية. نفس الطريقة التي تُبنى بها الجملة في العمق. نفس الانقسام بين شمال يستقبل وجنوب يحفظ.

تغيير الثوب ليس موتاً. هو تكيف. وهو ما فعله المصري عبر التاريخ أفضل من أي شعب آخر في المنطقة.

لماذا نجح ما لم ينجح في فارس؟

سؤال يطرحه كثيرون: لماذا تعربت مصر بينما لم تتعرب فارس؟

الفرس اعتنقوا الإسلام لكنهم احتفظوا بلغتهم. مصر اعتنقت الإسلام وتعربت. لماذا؟

الجواب ليس في ضعف المصريين أو قوة الفرس. الجواب في القرابة.

حين جاءت العربية إلى مصر، لم تجد أرضاً غريبة تماماً. جاءت إلى شعب تتشابه حنجرته مع الحنجرة العربية. إلى لغة تبني كلماتها بنفس منطق الجذور الساكنة. إلى أصوات حلقية متشابهة. إلى بنية نحوية قريبة.

العربية لم تطرد المصرية. التقت بها في مكان عميق مشترك، فكان الانتقال أسهل وأسرع وأقل إيلاماً مما كان في فارس، حيث اللغة الفارسية من عائلة مختلفة تماماً.

أحمد كمال كان يقول هذا. لم يصدقه أحد في حياته. لكن التاريخ نفسه كان يقوله بصوت أعلى.

إن الفارق بين تجربة مصر وتجربة فارس هو الفارق بين (الانصهار) و (المجاورة). في فارس، اصطدمت العربية ببناء لغوي (هندوأوروبي) غريب عنها تماماً، فظلتا كزيت وماء لا يمتزجان. أما في مصر، فقد كان اللقاء بين (أختين) باعدت بينهما الأيام. لم تكن العربية (إحلالاً) بل كانت (استعادة)؛ لذا لم يجد المصري غضاضة في تبنيها، لأنها كانت تُخرِج من حنجرته نفس الموسيقى القديمة التي تعود عليها. لقد كانت العربية هي (المعطف) الجديد الذي يناسب تماماً قياسات الجسد المصري القديم.

الذاكرة التي لا تُحرق

حرقوا المعابد. أغلقوا الكتب. أسكتوا الكهنة. نسوا القاموس. همشوا العلماء.

لكن لم يستطع أحد أن يحرق الحنجرة.

الذاكرة التي تسكن في طريقة نطق الكلمة، في الثقل الذي يضعه الصعيدي على جيمه، في الكلمات الأساسية التي تمر من جيل إلى جيل دون أن يتوقف أحد ليسألها عن هويتها، هذه الذاكرة لا تحتاج إلى كتب ولا إلى مدارس ولا إلى قرار.

هي تمشي في الكلام العادي. في نداء أم لطفلها. في شتيمة رجل غاضب. في أغنية فلاح في الفجر.

الحضارات لا تموت بالسيف فقط. وهي لا تبقى بالحجر فقط. تبقى بما يتناقله الناس في لحظات لا يفكرون فيها، حين لا يؤدون طقساً ولا يحفظون تاريخاً، بل حين يعيشون فقط.

من نحن إذن؟

لسنا فراعنة. هذه الكلمة حملت معها أحياناً غروراً أجوف أو استعراضاً سياسياً لا علاقة له بالتاريخ الحقيقي.

ولسنا قطيعة كاملة عن الماضي، كما أوهمنا بعضهم.

نحن ما تصنعه آلاف السنين حين تمر على شعب واحد في مكان واحد. نحن طبقات متراكمة لم تمح بعضها بل أضافت بعضها إلى بعض. نحن المصري الفرعوني والقبطي والعربي والإسلامي والمتوسطي والأفريقي، كل هذا في آنٍ واحد، لا تناقض فيه ولا خجل منه.

لا ندعو إلى العودة إلى الماضي، بل إلى استعادة الثقة بأن الماضي جزء منا. ليس لنعيش فيه، بل لنقف على أرض صلبة حين نبني المستقبل.

الهوية المصرية لم تكن يوماً خطاً مستقيماً. كانت دائماً نهراً. يتفرع ويلتقي ويفيض ويجف ويعود. لكنه لا يتوقف. الهوية المصرية ليست (قطعة خشب) يابسة تنكسر مع أول ريح، بل هي (نهر). والنهر لا يعتذر عن تعرجاته، ولا يخجل من الطمي الذي يحمله. نحن لسنا 'متحفاً' يسكنه الموتى، بل نحن 'تيار' يتدفق. إن قوة الهوية المصرية تكمن في قدرتها المذهلة على أن تكون (مصرية قديمة) في الجوهر، (قبطية) في الوجدان، و(عربية) في اللسان، دون أن يشعر المصري بأي انفصام؛ لأنه يدرك بفطرته أن كل هذه الروافد تصب في نفس المجرى العظيم.

خاتمة الرحلة

بدأنا هذه الرحلة بسؤال بسيط: من أين جاءت هذه اللغة المنقوشة على الحجر؟ وكيف ماتت؟ وهل ماتت فعلاً؟

وجدنا في الطريق رجلاً اسمه أحمد كمال أمضى عمره يثبت أنها لم تمت، أن جذرها حي في لغتنا، أن الخيط لم ينقطع.

ووجدنا أن الكلمة البسيطة "ماء" سافرت لسبعة آلاف سنة وما زالت حية في حناجرنا.

ووجدنا أن الجنوب ما زال يحمل في جيمه الثقيلة أثراً من زمن لا يعرف له اسماً.

وفي النهاية وجدنا أن الجسد المصري لم يُستبدل. غيّر ثوبه ثلاث مرات وبقي.

هذا هو جواب السؤال الأعمق الذي لم نسأله صراحة لكنه كان يسري تحت كل فصل في هذا الكتاب:

هل نحن أبناء هذه الأرض حقاً؟

نعم. لم نكن يوماً غير ذلك.

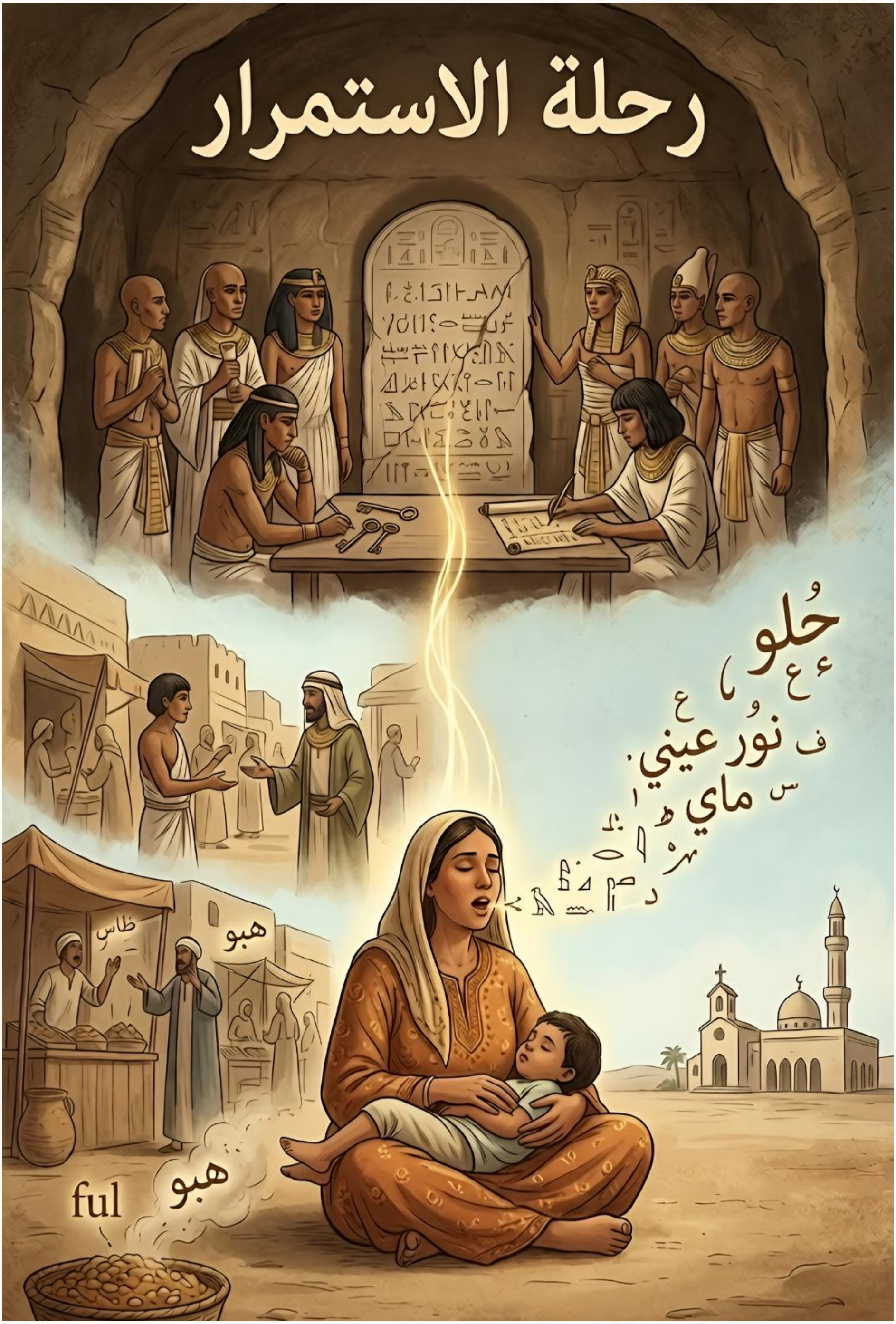
والدليل ليس في المتحف المصري، ولا في وادي الملوك.. الدليل في (نفسك) الذي يخرج الآن، في كلمة 'يا رب' التي تنطقها بصدق، في 'ضحكتك' التي تحمل سخرية المصري القديم من الأقدار، وفي 'صبرك' الذي يشبه صبر النيل على السنين.

وهذا الجسد لا يزال يتحرك. لا يزال يتكلم. لا يزال يبحث عن طريقه. والمستقبل الذي ينتظره ليس محكوماً بالماضي، لكنه لن يكون مستقيماً دون أن يعرف من أين جاء.

وهذا بالضبط ما سنبحث عنه في الرحلة الأخيرة: «رحلة الاستمرار». كيف يتحول هذا الجسد الناطق إلى وعي واعٍ؟ كيف نستعيد الذاكرة دون أن نقع في فخ الوهم أو الاستعراض؟ كيف نجعل هذا الميراث الحي أداة لبناء المستقبل بدلاً من أن يبقى مجرد شعور غامض على ضفة النيل؟

لقد بدأنا رحلتنا من حجر صامت، وانتهينا إلى جسد ناطق. وهذه هي القصة كلها...

رحلة الاستمرار



مقدمة: لم تكن هناك لغة ميتة

طوال أربع كاملة، كنا نتحدث عن موت.

موت الهيروغليفية حين أُغلقت المعابد. موت الكهنة الذين حملوا المفتاح. موت الذاكرة البصرية حين انتقلنا من رسم المعنى إلى تهجئته. وموت القدرة على قراءة ما نُقش على جدراننا لأربعة عشر قرناً.

لكن ثمة شيء لم نقله بالصراحة الكاملة التي يستحقها.

اللغة المصرية لم تمت.

ما مات كان الخط. ما توقف كان الرسم. ما انقطع كان الحرف المنقوش. لكن الصوت - الصوت البشري الحي الذي كان يُنطق به كل تلك الرموز - لم يتوقف يوماً.

في الرحلة السابقة رأينا الجسد: النواة الجينية، الانقسام بين شمال وجنوب، والأختين المصرية والعربية. أما هنا فسنبحث عن الروح التي تسكن هذا الجسد: الكلمات التي بقيت، والتراكيب التي لم تمت، والإيقاع الذي ينبض في لهجتنا اليومية. سنرى كيف تحول «ماء» إلى «موية»، وكيف بقيت «الجيم» الصعيدية شاهدة على أصوات الأجداد، وكيف تتكلم الأمثال والأغاني بلغة لم تُكتب في قواميس.

كان يتواتر من جيل إلى جيل. لا في الكتب، بل في الأفواه. في نداءات الأسواق، وأغاني الحقول، وصلوات الكنائس، ودعاء المصلين، واهازيج المواويل وفي تلك اللهجة البسيطة التي لم يكتبها أحد- لكنها لم تتوقف عن الكلام.

استمع الآن إلى أم في قرية صعيدية تهدهد طفلها: «نام يا حلو، نام يا نور عيني». الكلمة «حلو» هنا ليست عربية فصحى بحتة؛ جذرها يعود إلى «حر» أو «حلو» في المصرية القديمة بمعنى الجميل أو المحبوب. و«نور عيني» تحمل نفس الصورة الشعرية التي كان المصري القديم يستخدمها في أغانيه للمعبود. الأم لا تعرف أنها تُحيي لسان رانكيمة، لكن صوتها يفعل ذلك كل ليلة.

وكان الريف المصري - بعزلته النسبية، وتماسكه الاجتماعي، واعتماده على النقل الشفهي - هو الحاضن الأكبر لهذا الصوت. بينما كانت المدن تتغير بسرعة الغزاة، ظلت القرى تحتفظ ببطء الزمن. والأمهات، هن اللواتي لم يذهبن إلى المدارس لكنهن حفظن الأغاني والنداءات، كن الحارسات الأمينات لهذا الميراث الخفي.

رحلة الاستمرار لا تبحث عن لغة فُقدت. تبحث عن لغة اختبأت - في أفواه الناس العاديين، في بيوتات الصعيد، وعلى شفاه الأمهات حين يُهدّئن أطفالهن في الليل.

وقبل أن نبدأ هذه الرحلة في البحث عن الكلمات المختبئة، استمع للحظة واحدة إلى هذا الهمس الخفي. حين تطلب صحن "فول" في الصباح، أو حين تسمع جدتك تحذر من "الهبو" (الغبار)، أنت لا تستخدم كلمات عربية أصيلة. أنت تنطق، دون أن تدري، بلسان رانكيمة مباشرة ورثتها أباً عن جد عبر مائتي جيل.

لكن دعونا نكون صريحين منذ البداية: ليس كل ما ننطقه في لهجتنا هو مصري قديم. العربية الفصحى هي الأب الشرعي لمعظم مفرداتنا. ما سنبحث عنه هنا هو «البصمة» – تلك الكلمات التي لا جذر عربي واضح لها، والتراكيب التي تخالف قواعد الفصحى، والأصوات التي تشبه ما كان يُنطق قبل آلاف السنين. سنرى كيف تعيش هذه البصمة في الأمثال، في الأغاني الشعبية، في نداءات الأسواق، وحتى في طريقة نفي الفعل («ما شفتش»). هذه الرحلة ليست جمع كلمات «فرعونية» للتباهي، بل هي مطاردة الخيط الحي الذي لم ينقطع.

هذه الكلمات ليست مجرد "آثار" لغوية، بل هي "خلايا حية" من ذاكرة لم تمت. إنها الدليل الصوتي على أن الماضي ليس في المتاحف فقط، بل على مائدتك، وفي الهواء الذي تتنفسه. هذه الرحلة هي رحلة مطاردة هذه الخلايا الحية، لنرى كيف صمدت، وأين تسكن، وماذا تروي لنا عن أنفسنا. إنها البحث عن الدليل القاطع على أن الجسد الذي بقي، والذي تحدثنا عنه، ما زال يتكلم بنفس اللسان القديم، وإن كان بلهجة جديدة.

الفصل الأول: الصوت الذي لم يمت - رانكيمة في حنجرة أحفادها

لا تحتاج أن تعتقد.... تحتاج فقط أن تستمع.

هذا الفصل لا يطلب منك أن تُصدّق نظرية. يطلب منك شيئاً أبسط من ذلك بكثير: أن تتذكر.

تذكّر أول كلمة تعلّمتها وأنت تخطو خطواتك الأولى. حين أمسكت بك أمك من يدها وقالت لك بحنان: "تاتة." اخطُ. تاتة. "تاتا خطي العتبة... تاتة حبة حبة."

في الفصل السابق رأينا «الجسد الباقي» – النواة الجينية التي لم تُستبدل. هنا نرى «الصوت الباقي» الذي يسكن هذا الجسد. الجسد والصوت توأمان: أحدهما يحمل الذاكرة في الدم، والآخر يحملها في الحنجرة. كلاهما يشهدان أن الماضي لم يرحل، بل اختبأ في أكثر الأماكن أمانًا: في أفواهنا.

لم تكن تعلم - ولم تكن هي تعلم - أنها تستدعي فعلاً مصرياً قديماً يعني حرفياً "اخطُ"، ظل حياً في أفواه المصريين منذ ما قبل أن تُبنى الأهرامات، او حتى يوحد مينا القطرين.

وتذكّر حين طلبت الماء فقلت "إمبو". أو حين حذّرتك أمك من شيء مخالف بكلمة "كُخ". أو حين أخافوك من "البعبع".

لم تقرأ هذه الكلمات في كتاب. لم تتعلمها في مدرسة. ورثتها كما تُورَث ملامح الوجه - بلا وعي، وبلا اختيار، وبلا انقطاع.

البرهان الأول: البنية لا تكذب

قبل أي كلمة بعينها، ثمة دليل أعمق وأصعب في الدحض: بنية الجملة المصرية العامية لا تُشبه العربية الفصحى.

في العربية الفصحى تقول: "لم آكل." وفي العامية المصرية تقول: "ماكلتش."

هذه "الشين" في نهاية الفعل عند النفي - "ماكلتش"، "مارحتش"، "ماعرفتش" - ليست عربية. ليس لها مثيل في أي لهجة عربية خارج مصر والبلدان التي تأثرت بها مباشرة. هي بقية من نظام النفي المصري القديم الذي كان يُضاف فيه مقطع صوتي في نهاية الفعل المنفي.

وحين تقول "الراجل ده" بدلاً من "هذا الرجل"، فأنت تضع اسم الإشارة بعد الاسم لا قبله - وهذا نظام مصري قديم وقبطي، لا عربي.

وحين تستخدم "اللي" اسماً موصولاً وحيداً لكل الحالات - "اللي جه"، "اللي راح"، "اللي أنا شايفه" - فأنت تتبع قاعدة مصرية قديمة تختلف جذرياً عن نظام العربية الفصحى المُعقّد في أسماء الموصول.

هذه ليست أمثلة مفردات. هذه بنية تفكير. نظام تشغيل. الكلمات العربية دخلت على هذا النظام وأخضعها له - لم يخضع هو لها.

خذ جملة يومية بسيطة: «ما شفتش الراجل ده اللي جه». هنا «ما...ش» هي صيغة النفي المصرية القديمة، و«اللي» هي اسم الموصول المصري، و «جه» هي صيغة الفعل المصرية المتأخرة. الكلمات عربية، لكن «نظام التشغيل» الذي رتّبها هو مصري قديم. العربية أعطت المفردات، والرنكيمة أعطت الطريقة التي تُرتب بها.

البرهان الثاني: الجدول الذي لا يُدحض

والآن - للقارئ المتشكك - إليك ما يمكن التحقق منه بنفسك في أي معجم قبطي أو دراسة لغوية أفروآسيوية

جدول: رانكيمة في اللهجة المصرية اليومية

جميع الأمثلة في هذا الجدول مستمدة من قواميس قبطية موثوقة مثل قاموس كروم، وقواميس أحمد كمال، ودراسات فولكنر وسبيجلبرج، وأعمال حديثة في علم اللغة المقارن. ليست اختراعًا، بل نتيجة بحث أكاديمي يمكن الرجوع إليه.

الكلمة اليومية	المعنى	الجذر القبطي	المصري القديم	المصدر

إمبو	الماء (لغة الأطفال)	ⲙⲟⲟⲩ (موو)	mw	قاموس كروم القبطي
تاتة	اخطُ / امشِ	(ⲧⲁ تا / ( ) ⲧⲱⲱⲧ	(d3d3 المشي)	أحمد كمال، المعجم المصري
مين؟	من؟	(ⲛⲓⲙ نيم)	nim	قاموس فيكتيوس القبطي
ست	امرأة / سيدة	ⲥϩⲓⲙⲉ (سهيمه)	(s.t أنثى)	أحمد كمال
سي	رجل (كـ"سي السيد")	(ⲥⲁ سا)	(s3 رجل نبيل)	معجم سبيجلبرج
مراتي	زوجتي	ⲙⲣⲓⲧ (مريت)	mri.t (المحبوبة)	فولكنر، معجم المصرية الوسطى
بره	خارج	ⲃⲟⲗ (بول/بره)	(r-bnr نحو الخارج)	قاموس كروم
الغيط	الحقل الزراعي	ϭⲱⲧ (جوت)	(ih.t الحقل)	عكاشة الدالي
ترعة	قناة الري	(ⲧⲟⲣ تور)	(ḥr-t قناة)	المعجم الهيروغليفي لجاردينر
فوطة	منشفة	ⲫⲱⲧ (فوت)	(fꜣy.t قطعة قماش)	لكسيكون بوهايري

قادوس	إناء الماء الفخاري	ⲕⲁⲇⲟⲩⲥ (قاذوس)	qd.t (الجرة)	دراسات ماسبيرو
شراقي	أرض جافة تنتظر الماء	ϣⲁⲣⲱⲕ (شاروك)	šrq (الجفاف)	أحمد كمال
كخ	تحذير من القذارة	ⲕⲁⲕⲉ (كاكه)	kkw (الظلام/القذر)	قاموس كروم
ممّ	طلب الأكل (لغة الأطفال)	ⲙⲟⲩⲙ (موم)	mm (الأكل)	أحمد كمال
فشوش	لاشيء / فراغ	ⲫⲱϣ (فوش)	fšw (الفراغ)	معجم سبيجلبرج
كركر	يضحك بصوت عالٍ	ⲕⲁⲣⲕⲁⲣ (كاركار)	qrqr (الصخب/الضجيج)	فولكنر
بعبع	كائن مخيف في حكايات الأطفال	ⲃⲁⲃⲉ (بابه)	b3b3 (الرعب)	دراسات أيمان شعراوي
زقطط	يقفز من الفرح	ⲍⲁⲕ (زاك)	sqd (القفز)	معجم لامبدين القبطي
جتة	الجسد	ϫⲱⲧ (جوت)	ẖ.t (الجسم)	قاموس كروم
هاتور	شهر نوفمبر في التقويم القبطي	ϩⲁⲑⲱⲣ (حاثور)	Ḥwt-Ḥr (حاتحور)	التقويم القبطي الرسمي

فول	الحبوب المعروفة	ϕελι)فيلي(	pꜣ-rn(الاسم)	دراسات لغوية مقارنة
تمية (تمساح)	التمساح (في الصعيد)	ємсаϩ)إمساح(	msḥ(تمساح)	قاموس كروم

اثنان وعشرون كلمة. اثنان وعشرون جذراً. اثنان وعشرون خيطاً يربط الطفل المصري اليوم بالكاتب الذي نقش على جدران الكرنك.

وهذه ليست القائمة كاملة. تقدير أحمد كمال باشا الذي أمضى عمره في هذا البحث - يصل إلى اثني عشر ألف كلمة في اللهجة المصرية العامية لها جذور في المصرية القديمة أو القبطية.

اثنا عشر ألف كلمة.

وهنا يجب ان نعيد ما قلناه سابقا...

لا يعني هذا الجدول أن كل كلمة في اللهجة المصرية فرعونية الأصل. اللغة العربية الفصحى هي المصدر الأكبر والأهم لمفرداتنا، واللهجة المصرية هي ابنة شرعية للعربية. هذا الجدول يهدف فقط إلى إثبات أن الخيط لم ينقطع، وأن الجسد اللغوي المصري ظل يحتفظ بذاكرته القديمة إلى جانب هويته العربية.

خزائن الذاكرة: أين اختبأت الرنكيمة؟

وكانت خزانة الذاكرة الأكبر هي الأغاني الشعبية والأمثال. في «يا ويلي يا ويلي» أو «اللي باعونا» أو «يا ليل يا عين» نسمع إيقاعاً وتراكيب تشبه ما كان يُغنى في الأعياد المصرية القديمة. الأمثال مثل «اللي في القدر تطلعه المغرفة» أو «ودن من طين وودن من عجين» تحمل صوراً وحكماً موجودة حرفياً في تعاليم بتاح حتب قبل أربعة آلاف سنة. الرنكيمة لم تبقَ في الكتب، بل بقيت في ما يُغنى ويُروى على شفاه الناس.

لكن توقف للحظة وتأمل في طبيعة هذه الكلمات. إنها ليست كلمات عشوائية. إنها تنتمي إلى "خزائن الذاكرة" الأكثر حميمية للإنسان: لغة الطفولة الأولى ("إمبو"، "ممّ"، "كخ")،

جسد الإنسان ("جتة")، العلاقات الأساسية ("ست"، "مراتي")، الطبيعة والزراعة ("الغيط"، "ترعة"، "شراقي")، والمشاعر الفطرية ("كركر"، "زقطط").

لم تبق الرنكيمة في قواميس الفلسفة أو سجلات الحكم، بل بقيت في الأماكن التي لا تصل إليها يد الدولة أو سلطة اللغة الرسمية: علاقة الأم بطفلها، وعلاقة الفلاح بأرضه، وعلاقة الإنسان بجسده. لقد اختبأت في أكثر الأماكن أماناً: الحياة اليومية نفسها.

البرهان الثالث: الأرض نفسها تشهد

لو أردنا دليلاً لا يقبل الجدل، فانظر إلى الخرائط.

الأسماء الجغرافية هي الأكثر مقاومة للتغيير في تاريخ اللغات. لأن الأرض لا تختار اسمها - تتلقاه وتحمله عبر الأجيال حتى حين ينسى الناس أصله.

أسيوط - من "ساوت" المصرية القديمة، بمعنى الحارسة. أسوان - من "سوانو" القبطية، بمعنى منطقة الشلال. الفيوم - من "فيوم" القبطية، وهي من "پايوم" المصرية القديمة، بمعنى البحر أو البحيرة. أخميم - من "خمين" المصرية القديمة، مدينة الإله مين. قنا - من "قني" المصرية القديمة. منف - لا تزال موجودة في اسم "منوف" أو في المنطقة المحيطة بالقاهرة. الأقصر - تقف فوق "واست" أو "طيبة" القديمة، لكن حتى الجدران الداخلية لا تزال تُعرّف بأسمائها القديمة بين أهل المنطقة.

هذه الأسماء لم يُقرّرها أحد. لم يجلس وزير أو ملك ليقول "سنبقي على هذه الأسماء حفاظاً على التراث." بقيت لأن الناس العاديين - الفلاحين والصيادين والتجار - كانوا يتناقلونها جيلاً بعد جيل. الأرض نفسها كانت تُصحّح من يحاول تغيير اسمها.

البرهان الرابع: الزمن الذي لم يتغير

وثمة دليل لم ينتبه إليه كثيرون لأنه أمام أعينهم كل يوم.

المصريون لا يزالون يعيشون بتقويمين في آن واحد: التقويم الميلادي للعمل الرسمي، والتقويم القبطي الفرعوني للزراعة والمناخ والحياة اليومية.

"طوبة يخلّي الصبيّة كركوبة." - يناير البارد يُرعّش الفتيات. "أمشير أبو الزعابيب." - فبراير الممطر العاصف. "هاتور أبو الذهب المنثور." - نوفمبر موسم الذهب.

هذه الأمثال لا تُدرّس في المدارس. لكنها تُقال في كل بيت مصري ريفي حتى اليوم. وهي تحمل أسماء آلهة مصرية قديمة: "هاتور" هي حاتحور إلهة الجمال والخصب. و"أمشير" هو الإله خنسو في صورة من صوره. و"طوبة" مشتقة من "تابي" القبطية.

المصري يُنظّم زراعته وحياته اليومية بتقويم يحمل أسماء آلهة لا يعبدها - لكنه لم يتوقف عن استخدامها لأنها لا تزال تصف الواقع بدقة أكثر من أي تقويم آخر.

البرهان الخامس: الروح لا المعجم

لكن أعمق الأدلة على الاستمرارية ليس في المفردات ولا في الأسماء الجغرافية. أعمقها في شيء يصعب قياسه ويستحيل إنكاره:

طريقة المصري في التفكير بلغته.

المصري لا يقول في المرض " أنا بخير." يقول "الحمد لله على كل حال." لا يرفض طلباً مباشرة. يقول "إن شاء الله" ويترك المعنى معلّقاً. لا يصف حزنه بكلمة واحدة. يُجسّده: "قلبي اتقطع"، "جوفي وجعني"، "الدنيا اسودت في وشي."

هذا الميل إلى التجسيد والاستعارة الحسية في التعبير عن المشاعر - بدلاً من الأوصاف المجردة - هو سمة اللغة المصرية القديمة بامتياز. لغة رسمت المعنى قبل أن تكتبه، ولا تزال في اللاوعي المصري تُفكّر بالصورة قبل الكلمة.

حكمة "بتاح حتب" على لسان جدتك:

وهذه الروح لا تظهر فقط في التعبير عن المشاعر، بل في الحكمة المتوارثة. حين تسمع جدتك تقول لك: "اللي في القدر تطلعه المغرفة"، أو "ودن من طين وودن من عجين"، قد تظن أنها مجرد أمثال شعبية بسيطة. لكن الحقيقة المذهلة أن هاتين الحكمتين (وغيرهما الكثير) موجودتان بمعناهما وصورهما تقريباً في تعاليم الحكيم "بتاح حتب" التي كُتبت قبل أكثر من أربعة آلاف عام.

لم تقرأ جدتك تعاليم بتاح حتب، لكنها ورثت "خلاصة" حكمته عبر سلسلة لا تنقطع من التواتر الشفهي. إن استمرارية "الفكر" أحياناً تكون أقوى وأبقى حتى من استمرارية الكلمة نفسها.

الجسر الذي لم يُبنَ - والجسر الذي كان موجوداً دائماً

في رحلة الموت قلنا إن مصر لم يظهر فيها فردوسي. لم يُبنَ الجسر بين الماضي والحاضر.

لكن هذا الفصل يقول شيئاً مختلفاً:

الجسر كان موجوداً دائماً. لم يُبنَ لأنه لم يكن محتاجاً إلى بناء. كان قائماً - في حنجرة الأم حين تقول "تاتة"، وفي فم الفلاح حين ينادي "حا" على حماره، وفي تحذير الجدة بـ "كخ".

ما كان غائباً ليس الجسر. كان الاعتراف به.

الاعتراف بأن هذه الكلمات ليست "عامية دارجة متردية" كما وصفها بعض الأكاديميين المفتونين بالعربية الفصحى -رغم مالها من تقدير وحب في قلوب الغالبية العظمي منا- بل هي اللغة الحية التي حملت الذاكرة المصرية عبر ألفي سنة من الصمت الرسمي.

الهيروغليفية لم تمت حين أغلقت المعابد. انتقلت من الجدار إلى الإنسان.

ومن الإنسان - جيلاً بعد جيل، بلا وعي ولا خطة ولا مشروع حضاري - إلى الإنسان التالي.

ما الذي يُغيّره هذا الاكتشاف؟

حين يقف المصري اليوم أمام نقش هيروغليفي في متحف أو معبد، غالباً يشعر بشيء مركّب: فخر بحضارة عظيمة، وغربة عن لغة لا يفهمها.

لكن ماذا لو عرف أن الكلمة التي قالها لطفله الليلة قبل النوم مكتوبة على الجدار أمامه؟ ماذا لو عرف أن "إمبو" الذي طلبه طفله كان يُطلب بنفس النطق في هذا المعبد منذ سبعة آلاف سنة؟

لن يشعر بالغربة بنفس الطريقة.

لن ينظر إلى تلك الحجارة كحضارة أجانب - مبهرة ومُستعارة ومُحتكرة من الغرب وإداراته العلمية. سينظر إليها كما ينظر إلى صورة جد لم يلتقِ به، لكن يرى ملامحه في المرآة كل صباح.

وهذا الشعور - هذا التعرف الذي يشبه العودة إلى بيت طال غيابه - هو ما كانت رحلة الاستمرار تسعى إليه منذ سطرها الأول.

خِتام: ليس ماضياً ندرسه

قال المهندس سامح مقار، الذي آمن بهذه الفكرة قبل أن تثبتها البحوث الأكاديمية وضمناها كتابنا:

"رانكيمة ليست ماضياً ندرسه. بل هي نحن، في كل كلمة، وفي كل نبرة، وفي كل صدى يتردد في وادي النيل."

وهو محق.

المصري حين يتحدث عاميته اليومية لا يُميت لغة الأجداد. يُكملها. ولا يُخونها حين يتكلم بالعربية. يُلبسها قميصاً جديداً على نفس الجسد القديم.

اللغة لم تنتهِ في تلك الليلة الصيفية عام ٣٩٤ حين نقش إسمت-آخوم آخر جملة هيروغليفية على عمود معبد فيلة.

اللغة كانت قد غادرت المعبد من زمن. وأخذت مكانها في المكان الوحيد الذي لا يستطيع أي مرسوم إمبراطوري الوصول إليه:

في أفواه الناس.

في الفصل التالي، نسأل السؤال الأكثر جرأة: هل يمكن اليوم - بعد كل هذا - أن يُعاد بناء الجسر الكامل؟ هل يمكن للمصري المعاصر أن يقرأ لغة أجداده، لا كعالِم أثري، بل كصاحب بيت يعود إليه؟ وما الذي يحتاجه هذا البناء - ومن يملك حق البناء؟

الفصل الثاني: الفردوسية المصرية التي لم تُكتب بعد - أحمد كمال والدَّين الذي لم يُسدَّد

سؤال يحرق الضمير

مرّت مائتا سنة.

مائتا سنة منذ أن وقف شامبليون أمام حجر رشيد وأعلن للعالم أن الهيروغليفية تتكلم مجدداً. مائتا سنة من الحفريات والاكتشافات والمتاحف والكتب والمؤتمرات وكراسي الأستاذية في الجامعات الغربية المخصصة لدراسة تاريخ مصر.

مائتا سنة من نشوء علم المصريات وفروعه المتعددة.

وفي نهاية هذه المائتي سنة، يجلس طالب مصري في كلية الآثار بجامعة القاهرة يدرس لغة أجداده من كتاب كتبه سير آلان جاردينر الإنجليزي عام ١٩٢٧. يقرأ قواعدها بالإنجليزية. يتلفظ أسماء آلهتها بالنطق اليوناني - "أوزيريس" بدلاً من "وزير"، و "إيزيس" بدلاً من "إيزة او عزة"، و"هوراس" بدلاً من "حور". ويكتب أبحاثه في مجلة تصدر عن هيئة الآثار المصرية - بالإنجليزية.

هذا ليس انتقاداً لجاردينر. كان عالماً نزيهاً أدّى خدمة حقيقية. ولا هو انتقاد للطالب الذي لا يجد أمامه بديلاً.

هو سؤال موجّه لمن يستطيع الإجابة عنه:

لماذا؟

الرجل الذي كان يمكن أن يغيّر كل شيء

في عام ١٨٩٤ — قبل أن يُولد جاردينر وينشر قواعده الشهيرة - كان في القاهرة رجل مصري يجلس أمام طاولة مكتظة بالأوراق والقواميس والنقوش المنسوخة.

اسمه أحمد كمال باشا. وُلد عام ١٨٥١، وكان يعمل في دائرة الآثار المصرية في وقت كان فيه الأوروبيون يحتلون مقاعد القيادة ويُديرون الحفريات ويكتبون التقارير بلغاتهم.

لكن أحمد كمال قرر أن يفعل شيئاً لم يفكر فيه أحد قبله بهذه الطريقة.

قرر أن يبني الجسر.

ليس الجسر الذي بناه شامبليون - من الهيروغليفية إلى الفرنسية. بل الجسر الآخر: من الهيروغليفية إلى القبطية إلى العربية إلى اللهجة المصرية الحية. جسر يمشي عليه المصري العادي، لا العالم الأوروبي.

كتب قواميسه بلغات خمس ويهمنا منها العربية. نطق أسماء الآلهة بنطقها المصري لا اليوناني او الغربي. وأثبت - قبل أن يجمع العلم الأدلة الكافية - أن بين المصرية القديمة والعربية قرابة أعمق مما اعترف به الاستشراق.

ثم مات عام ١٩٢٣.

وبقيت معظم قواميسه مخطوطات.

ما الذي كان في تلك القواميس؟

حين تفتح ما نُشر من عمل أحمد كمال وتبدأ في المقارنة، وتتبع الجذر "أغاث/أغان" بين جاردينر والمعاجم العربية - تجد نفسك أمام ظاهرة تتكرر بإصرار مدهش:

جذر مصري قديم له مقابل عربي لا يمكن أن يكون مصادفة.

ꜣgs - أغاث/أعان: بمعنى المساعدة والإعانة في المصرية القديمة. وفي العربية جذر "غ-و-ث" - الغوث - وجذر "ع-و-ن" - المعونة. الدلالة واحدة، والصوت قريب، والأصل مشترك.

ḥsb - حسب: يحسب وينسب في المصرية القديمة. في العربية "حَسَب" بمعنى العدد والنسب معاً. كلمة واحدة تحمل المعنيين في اللغتين.

ḥr - حر: إله الصقر في المصرية القديمة. في العربية "الحِرّ" -الصقر الذكر النبيل الوارد في معاجم الجوهري وابن منظور.

mri - مري: يحب في المصرية القديمة. في العربية "مَرِيء" بمعنى الهنيء المحبوب. و"مراتي" التي ناقشناها - من "مريت" بمعنى المحبوبة.

wꜣḥ - وأح/واح: يضع ويستقر في المصرية القديمة. في العربية "وَأَحَ" - يستقر ويثبت. وفي الاسم الجغرافي "الواحة" - المكان المستقر الثابت في الصحراء.

nfr - نفر: الجمال والكمال في المصرية القديمة. في العربية "نَفَر" بمعنى الخروج والانطلاق، و "نَضَر" بمعنى الحُسن والبهجة. الجذر الأفروآسيوي المشترك يظهر في كليهما.

šms - شمس: يتبع ويصحب في المصرية القديمة. في العربية "شَمَسَ" بمعنى الصعوبة والمتابعة. وكلمة "الشمس" نفسها - النجمة التي يتبعها كل شيء - موجودة في العربية والمصرية بصوت متقارب جداً.

في مجلداته المخطوطة نجد أن كمال سجّل جذر «ḥtp» (حتب) المصري القديم بمعنى الرضا والسلام، وربطه مباشرة بـ «حَتْب» في بعض اللهجات العربية القديمة بمعنى الرضا والطمأنينة. كما ربط «pr» (بيت) المصري بـ «بَر» في اللهجة المصرية بمعنى الخروج أو المكان المفتوح. و«nḥm» (نحم) بمعنى الإنقاذ في المصرية القديمة، والتي تظهر في العربية كـ «نَحْمَة» أو «نَجْمَة» في سياق الخلاص. هذه الأمثلة ليست مجرد تشابه صوتي؛ إنها تُظهر كيف كان كمال يرى اللغتين كفرعين من شجرة واحدة.

هذه ليست قائمة مكتملة. هي نافذة صغيرة على ما يمكن أن يُكشف.

وكلما فتحت نافذة، رأيت خلفها أفقاً أوسع.

لماذا لا نعرف؟ - ثلاثة أسباب

السؤال الأكثر مرارة ليس "ما الذي في القواميس؟" بل "لماذا لا نعرفه بعد مائة سنة؟"

السبب الأول - الاستعمار المعرفي لم ينتهِ برحيل الاستعمار السياسي.

حين غادر الإنجليز مصر عام ١٩٥٢، تركوا خلفهم شيئاً أصعب مغادرةً من الجيوش: تركوا معايير المعرفة. المجلات العلمية المحكّمة في لندن وباريس وبرلين. مناهج الدراسة المكتوبة بالإنجليزية والفرنسية والألمانية. وتعريفاً ضمنياً للبحث الجاد - أنه ما يُكتب بتلك اللغات وينشر في تلك المجلات.

عالِم مصري يكتب بالعربية عن أحمد كمال لا يحظى بنفس الصدى الأكاديمي الذي يحظى به عالِم غربي يكتب بالإنجليزية عن جاردينر. هذا التفاوت في السلطة المعرفية - لا الكسل ولا الجهل - هو ما أبقى قواميس كمال في الظل.

هذا لا يعني أن علم المصريات الحديث لم يُنجز شيئًا. على العكس، فقد أنتج علماء مثل جاردينر وألين وأسمان أعمالاً أساسية ساهمت في فك رموز كثيرة. لكن المشكلة ليست في الإنجاز العلمي، بل في احتكار «الصوت» الذي يتحدث به هذا العلم. المصريات أصبحت علمًا «عن» مصر، لا علمًا «من» مصر. وهذا الفرق – بين أن تُدرس حضارتك كموضوع أجنبي أو كجزء من ذاتك – هو ما كان أحمد كمال يحاول تغييره.

السبب الثاني - الانقطاع الداخلي.

وكما أشرنا في رحلة الموت ورحلة البحث عن الجذور، فان المصري نفسه، بدرجات متفاوتة، كان قد أعاد تعريف علاقته بماضيه المصري القديم. المسلم بدأ تاريخه الروحي من الفتح الإسلامي، والمسيحي بدأه من مرقس الرسول، ورغم احتفاظ الكنيسة باللغة القبطية كلغة طقسية، إلا أن الوعي الجمعي لكلا الطرفين أصبح يرى في الحضارة المصرية القديمة "ماضياً عظيماً" أكثر منه "هوية حية".

في هذا المناخ النفسي، كان من الصعب أن تجد مؤسسة مصرية تُؤمن بأن نشر قواميس كمال يمسّ هويتها مباشرة. المصرية القديمة كانت للمتاحف والسياحة - لا للمعجم الحي.

السبب الثالث - غياب الفردوسي المصري.

الفردوسي الفارسي حين كتب الشاهنامة، كتب لشعب لا يزال يتكلم لغة أجداده ويحمل ذاكرتهم الشفهية الحية. كان يُدوّن ما هو موجود في الأرواح.

أحمد كمال كان يبني شيئاً لا يشعر به أحد بعد. كان يقنع المصريين بأن لديهم ماضياً يستحق الجسر - في وقت كان فيه كثيرون يرون ذلك الماضي غريباً أو محرجاً أو وثنياً.

الفردوسي وجد جمهوره. أحمد كمال كان يحاول أن يخلق جمهوره أولاً.

ما خفي كان أعظم - وهذا ليس مجازاً

كلما أبحرنا بين جاردينر والمعاجم العربية نكتشف المزيد، فنحن لا تصف انطباعاً شخصياً. نحن نصف ظاهرة يُلاحظها كل باحث يقترب من هذا الميدان بعيون مفتوحة.

الدراسات الأفروآسيوية الحديثة - التي تتطور بشكل متسارع منذ ثمانينيات القرن العشرين - تُشير إلى أن الجذور المشتركة بين المصرية القديمة واللغات السامية أكثر بكثير مما رصده الاستشراق الكلاسيكي. وأن سبب "عدم الرؤية" لم يكن غياب الأدلة، بل غياب الرغبة في الرؤية من جهة، وغياب الأدوات المنهجية الكافية من جهة أخرى.

أحمد كمال أحصى ١٢،٠٠٠ كلمة بالجهد الفردي، في زمن لم تكن فيه قواعد بيانات رقمية ولا حوسبة لغوية.

لكن هذا الرقم - مهما كان مثيراً - يحتاج إلى قراءة نقدية. ليس كل ما رآه كمال قرابة هو قرابة حقيقية بالمعايير اللغوية الصارمة. وهو نفسه كان يعرف ذلك. لكن قيمة عمله ليست في دقة كل إدخال، بل في إثبات أن الخيط موجود، وأن الجهد يمكن البناء عليه وتصحيحه.

اليوم، مع الأدوات الحاسوبية لتحليل اللغات المقارنة، ومع انفتاح المخطوطات رقمياً، يرى بعض الباحثين أن الرقم الحقيقي - حين تُعتمد معايير المقارنة الصارمة - قد يكون أكبر بكثير.

لكن لن نعرف ذلك بيقين ما لم يحدث شيء واحد.

الدَّين الذي لم يُسدَّد

في عام ١٩٢٣، مات أحمد كمال وعمره اثنان وسبعون عاماً. وتركت وراءه معجماً في ٢٢ مجلداً وفي بعض المصادر تم الإشارة إلى أنه أكثر من ٢٠ جزءاً، وتحديداً ٢٣ مجلداً في بعض نسخ الطباعة. يربط الهيروغليفية بالقبطية والعربية والفرنسية والإنجليزية.

تضمن القاموس إشارات لغوية أخرى لتعزيز منهجه في المقارنة، وأهمها:

اللغة اليونانية: استخدمها كحلقة وصل إضافية لفهم معاني بعض الكلمات وتطورها.

اللغة العبرية: وردت في كثير من المواضع للمقارنة بين الجذور "الشرق اوسطية" واللغة المصرية القديمة، حيث كان يسعى لإثبات الأصل الواحد لهذه اللغات.

نُشر المجلد المعنون بحرف السين (وهو المجلد الحادي عشر من القاموس) ضمن المجموعة الكاملة التي طبعها المجلس الأعلى للآثار في مصر عام ٢٠٠٢. لكن هذا النشر الجزئي - رغم قيمته - كان أشبه بإلقاء حجر في بحر. لم يتبعه خطة لنشر المجلدات الأخرى، ولا قرار بتشكيل لجنة علمية لتحقيقها. بقي الأثر الأكبر لكمال حبيس الأدراج، كما كان.

الباقي - تسعة عشر مجلداً بكل ما تحمله من اكتشافات وروابط وأدلة - بقي في مستودع دار الكتب المصرية.

مرّت سنة. ومرّت عشر سنوات. ومرّ قرن كامل.

لما لم تُنشر تلك المجلدات.

في هذا القرن، نُشرت آلاف الكتب عن الهيروغليفية. وأنجزت عشرات المعاجم والقواميس والدراسات اللغوية. وتُرجمت مئات النصوص المصرية القديمة إلى الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية.

لكن المعجم الذي كتبه المصري الوحيد بلغته لقومه - لا يزال ينتظر.

هذا ليس إهمالاً عادياً. هذا دَين حضاري. دَين تراكمت فوائده قرناً من الزمن، وكل يوم يمر فيه المصري دون أن يعرف ما في تلك المجلدات هو يوم يُضاف إلى الفائدة.

ماذا سيحدث حين يُنشر؟

هذا السؤال لا يستطيع أحد الإجابة عنه بيقين. لكن يمكن تخيّل خطوطه العريضة:

أولاً: سيمتلك الباحث المصري مرجعاً يكتبه بلسانه ويخاطبه بمنطقه - لا مرجعاً يُترجمه من لسان آخر. وهذا الفارق - بين أن تفهم تاريخك بلغتك أو بلغة غيرك - ليس ترفاً أكاديمياً. هو الفارق بين أن تقرأ يومياتك وأن تقرأ ترجمتها. ستعلم ان النترو ليسوا الهة وربما تكون صفات او قوى طبيعة او أي شيء غير ذلك.

ثانياً: ستُفتح أمام علم اللغات المقارن أبواب لم تُفتح. لأن كمال بنى معجمه على مقارنة مباشرة بين المصرية القديمة والعربية من منطق الداخل - من منطق من يعرف اللغتين من الداخل ولا ينظر إلى إحداهما كغريبة. هذه الزاوية وحدها ستُعطي نتائج لا يستطيع إنتاجها عالِم غربي مهما بلغت موضوعيته.

ثالثاً: سيتغير شيء في وجدان المصري العادي. حين يرى معجماً يقول له "هذه الكلمة التي تقولها كل يوم كانت تُقال بنفس الشكل في معبد الكرنك" - سيتغير موقفه من تلك الحجارة. لن تكون أعجوبة أجانب بعد اليوم. ستكون كلامه هو، مكتوباً على الجدران.

الطريق الثالث - لا تعليم اللغة بل الاعتراف بها

حين يُنشر معجم كمال كاملاً ومفتوحاً - مرقّماً ومُفهرساً ومتاحاً رقمياً للجميع - فالسؤال الذي سيتبعه ليس "كيف ندرّس الهيروغليفية في المدارس؟"

السؤال سيكون أبسط وأعمق من ذلك:

كيف يتعرف المصري على ما هو موجود بالفعل في لسانه؟

لا يحتاج المصري أن يتعلم الهيروغليفية كلغة أجنبية. يحتاج أن يعرف أن "تاتة" و "إمبو" و"مراتي" ليست كلمات عامية متردية بل هي رانكيمة حية يتكلم بها كل يوم. وأن اللهجة التي يعتذر عنها أمام الفصحى هي في الحقيقة الوثيقة الأمينة لثلاثة آلاف سنة من الاستمرار.

هذا الاعتراف - لا المنهج الدراسي - هو الخطوة الأولى.

والخطوة الثانية: أن يُدرّس تاريخ مصر بمنهج الاستمرارية لا بمنهج الغرابة. أن يبدأ الطالب من "تاتة" وينتهي بالنقش - لا أن يبدأ من النقش الغريب وينتهي بالملل.

والخطوة الثالثة: أن تُقرأ الهيروغليفية في مصر بالحروف العربية وبالأصوات العربية، كما فعل أحمد كمال - لا أن تُقرأ بالنطق اليوناني والغربي الذي يجعلها لغة أجانب.

ختام: الفردوسية التي تنتظر كاتبها

في رحلة الموت قلنا إن مصر لم يُولد فيها فردوسي.

لم يجلس رجل مصري أربعين سنة ليكتب الشاهنامة المصرية - الملحمة التي تُعيد للمصري صلته بأجداده البعيدين.

لكن الفردوسية المصرية لا تحتاج أن تكون ملحمة شعرية. يمكن أن تكون معجماً. معجم رجل قضى حياته يثبت أن الكلمة الحية في أفواه الناس هي نفس الكلمة المنقوشة على الجدران.

أحمد كمال كتب تلك الفردوسية. لكنها بقيت في الظل.

ومهمة هذا الجيل - إن أراد أن يكون أميناً لهذا التاريخ - ليست أن يكتب فردوسية جديدة.

مهمته أن يُخرج الفردوسية الموجودة من الظل.

واليوم، مع التكنولوجيا الرقمية، لم تعد المهمة مستحيلة. يمكن مسح المخطوطات ضوئياً، وفهرستها رقمياً، وإتاحتها على الإنترنت مجاناً للباحثين في العالم كله. التكلفة الحقيقية ليست مادية. التكلفة الحقيقية هي الإرادة.

اليوم، مع التقنية الرقمية، أصبحت المهمة أسهل مما كانت عليه في ١٩٢٣. يمكن مسح المخطوطات ضوئيًا، وفهرستها بذكاء اصطناعي، وإتاحتها مجانًا على منصة مفتوحة تابعة للمجلس الأعلى للآثار أو مكتبة الإسكندرية. ليس مطلوباً طباعة ورقية فاخرة، بل نسخة رقمية تفاعلية يستطيع أي طالب مصري الدخول إليها من هاتفه. الإرادة الوحيدة المطلوبة هي قرار سياسي-ثقافي يقول: «هذا الميراث ملكنا، وسنعيده إلى أصحابه».

أن يُنشر معجم أحمد كمال. أن يُرقَّم ويُفهرس ويُتاح رقمياً مجاناً لكل باحث في العالم. أن تدرسه الجامعات المصرية قبل أن تدرس جاردينر. وأن يُعلَّم الطالب المصري كيف يقرأ تاريخه بلسانه لا بلسان غيره.

حين يحدث ذلك، لن يحتاج المصري أن يقف أمام معبد طيبة ويشعر بالغربة.

سيقف ويقرأ. ببساطة.

لأن الكلمات التي على الجدار هي نفس الكلمات التي على لسانه.

كانت دائماً كذلك.

لم يكن ينقصه إلا أن يُخبره أحد.

وهكذا تكتمل الرحلة. بدأت بموت خطٍّ على جدار معبد، وانتهت باكتشاف أن الصوت لم يغادر أفواه الناس. وبين البداية والنهاية، كان هناك دَينٌ عمره مائة عام، ينتظر من يسدده.

إن بعث هذا المعجم ليس مجرد مشروع أكاديمي، بل هو فعل مصالحة وطنية. إنه الاعتراف بأن تاريخنا لا يبدأ من الفتح الإسلامي أو من مرقس الرسول فحسب، بل يمتد عميقاً إلى ذلك الجد الأول الذي نقش أول رمز على صخرة في هذا الوادي. إنه الإقرار بأننا لسنا ورثة حضارة ماتت، بل نحن الحضارة ذاتها، مستمرة في جسد واحد، وروح واحدة، ووادٍ واحد لم يتوقف عن الكلام.

بهذا الاعتراف تنتهي رحلتنا. بدأنا بموت خط على جدار معبد، وانتهينا باكتشاف أن الصوت لم يغادر أفواه الناس. وبين البداية والنهاية كان هناك دَين حضاري مائة عام. نشر معجم أحمد كمال ليس مجرد مشروع أكاديمي. إنه فعل مصالحة وطنية مع الذات. إنه الإقرار بأننا لسنا ورثة حضارة ماتت، بل نحن الحضارة ذاتها، مستمرة في جسد واحد، ولسان واحد، ووادٍ واحد لم يتوقف عن الكلام.

وذلك الاعتراف - ليس الاكتشاف - هو البعث الحقيقي، وهو الإيمان بالاستمرار.

خاتمة: اليد التي لم تُرفع

في مكان ما في الجلف الكبير، على جدار كهف لا يعرفه إلا من قصده، بصمة يد.

لا اسم تحتها. لا تاريخ. لا تفسير.

فقط يد إنسان وقف في هذا المكان قبل آلاف السنين، وضع كفه على الحجر، ونفخ الصبغة حولها، وتركها.

لم يكن يكتب. لم يكن يرسم. كان يقول شيئاً واحداً بسيطاً وعميقاً في آن:

أنا هنا.

هذه البصمة هي أول صفحة في الكتاب الذي بين يديك. وهذه الخاتمة هي آخر صفحاته. وبين الصفحتين، رحلة كاملة عبرنا فيها معاً أربعة آلاف سنة من الميلاد والموت والبعث والاستمرار.

لكن الحقيقة التي أردنا أن نقولها منذ البداية، والتي تأخرنا في قولها حتى نثبتها بالدليل لا بالادعاء، هي هذه:

تلك اليد لم تُرفع.

ما الذي رأيناه في هذه الرحلة؟

رأينا إنساناً وقف أمام الفناء ورفض الاستسلام له. فاخترع الكتابة لا لأنه أراد أن يُسجّل الضرائب والمحاصيل، بل لأنه أراد أن يقول للعدم: لن تأكلني.

رأينا لغة ولدت مقدسة، كانت في وعي أصحابها كلام الإله نفسه. رأيناها ترتدي أثواباً أربعة دون أن تغير جوهرها. رأيناها تُحفظ في بيوت الحياة التي كانت ذاكرة أمة كاملة في مواجهة كل من أراد محوها.

رأينا كيف مات الحرف حين مات آخر من يقرأه. رأينا ألفي سنة من الصمت والتخمين والأسطورة تتراكم فوق النقش الأصلي حتى كاد يختفي تحتها.

رأينا شامبليون يقف أمام حجر رشيد ويفك ما ظن الجميع أنه لغز لا حل له. لكننا رأينا أيضاً ما لم يروه كثيرون: أن فك الشفرة لم يكن بداية الحرية، بل بداية معركة أخرى على من يملك الحق في رواية هذا التاريخ.

ورأينا رجلاً اسمه أحمد كمال باشا يموت وفي يده ثلاثة وعشرون مجلداً لم يُطبع منها شيء. رجل قال إن اللغة التي تظنها غريبة عنك ليست غريبة. قال إن الخيط لم ينقطع. قال إن ما تنطقه كل يوم يحمل في داخله ذاكرة أعمق مما تتخيل.

لم يصدقه أحد في حياته. لكن التاريخ صدّقه بعد مماته.

رأينا كيف أن الموت لم يكن للغة بل للخط. ورأينا أن الجسد المصري ظل يتكلم بلغة أجداده، ولو بلهجة جديدة. وتتبعنا الخيط الحي في اللهجة العامية، في الأسماء الجغرافية، في تقويم الفلاحين.

ما الذي لم نقله صراحة طوال هذه الرحلة؟

قلنا إن المصريين لم يختفوا. قلنا إن الجسد باقٍ وإن الثوب تغيّر. قلنا إن كلمة "ماء" سافرت ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد وما زالت حية في حناجرنا. قلنا إن الجيم الصعيدية ليست لهجة عامية بل أثر من زمن لا اسم له.

لكن الذي لم نقله صراحة هو هذا:

أنت لست قارئاً لتاريخ غريب عنك.

أنت جزء من هذه الرحلة.

حين تنطق كلمة "واحة" فأنت تنطق ما نطقه الكاهن في معبد فيلة. حين يقول طفل مصري "مم" لأمه وهو يطلب الطعام، فهو يستدعي جذراً عمره أربعة آلاف سنة. حين يختلف صوت الصعيد عن صوت الدلتا، فهذا الاختلاف أقدم من الإسلام، أقدم من المسيحية، أقدم من الإغريق أنفسهم.

الاستعمار الثقافي نجح في شيء واحد فقط: أن يجعلك تشعر بأنك زائر في متحف لا صاحب بيت. أن يجعل لغة جدك تبدو غريبة عليك. أن يجعلك تحتاج إلى إذن من شامبليون أو غيره لتفهم تاريخك.

وتعاونه في ذلك - بقصد أو بغير قصد - نخبة مصرية تعلّمت أن تنظر إلى ماضيها بعيون الأجنبي، وأن تخجل من لهجتها الأم، وأن تظن أن الانتماء إلى الحداثة يعني قطع الحبل السري مع الجذور.

هذا الكتاب كله كان رداً على هذا الشعور.

من أين تبدأ الحرية؟

لا تبدأ من استعادة الهيروغليفية لغةً نتحدثها في يومنا. هذا ليس المطلوب ولا الممكن.

تبدأ من شيء أبسط وأعمق: أن تعرف أن الخيط لم ينقطع.

أن تعرف أن الإنسان الذي وقف في الجلف الكبير ووضع يده على الحجر ونفخ الصبغة حولها، هو أبوك الروحي البعيد. وأن بينك وبينه خيطاً يمر عبر الهيروغليفية والقبطية والعربية، عبر الصعيدية والبحيرية، عبر كل كلمة أساسية تنطقها دون أن تعرف أنها تحمل هذا الميراث كله.

أن تعرف أن اليد التي نفخت الصبغة على الحجر هي نفس اليد التي كتبت بطاقات أبيدوس. وهي نفس اليد التي نحتت اسم حتشبسوت فوق الجدران. وهي نفس اليد التي كتب بها أحمد كمال باشا قاموسه اليتيم في وحدته. وهي، في النهاية، يدك أنت... وأن بصمتك، مثل بصمته، فريدة ومختلفة، لكنها تنتمي إلى نفس السلسلة التي لم تنقطع.

لن يطلب منك هذا الكتاب أن تدرس الهيروغليفية. لن يطلب منك أن تنبش في المتاحف أو تهجر لغتك العربية. سيطلب منك شيئاً أهون وأثمن: أن تنظر إلى لهجتك العامية بعين الاحترام لا الازدراء. أن تقرأ الأسماء الجغرافية لأرضك كأنها سجلات ملكية لا مجرد تسميات. أن تعرف حين تقول 'تاتة' لطفلك أنك تُجري عملية جراحية في الزمن، توصل ما انقطع. هذه المعرفة وحدها كافية لتغيير علاقتك بهذا المكان الذي تسكنه.

كلمة أخيرة:

في عام ٣٩٤ ميلادية، نقش كاهن اسمه إسمت-آخوم آخر جملة هيروغليفية معروفة على جدار معبد فيلة.

كتب ما معناه: أتمنى أن يبقى هذا النقش إلى الأبد.

لم يكن يعلم أنه يكتب آخر كلمة. لم يكن يعلم أن بعده بألف وأربعمائة سنة سيأتي رجل فرنسي اسمه شامبليون ليفك ما لم يستطع أحد فكه. ولم يكن يعلم أن بعده بألف وستمائة سنة ستقرأ أنت هذه الكلمات في كتاب عربي يقول لك: اللغة التي كتب بها إسمت-آخوم آخر أمنياته ليست غريبة عنك.

هي جزء منك. كانت دائماً.

النقش باقٍ. وأنت باقٍ. واليد التي وضعتها على الحجر في الجلف الكبير، لم تُرفع قط.

هي لا تزال هنا.

قائمة المراجع

هذا الكتاب ليس خيالاً، بل هو ثمرة الاتكاء على أكتاف عمالقة. لمن يريد أن يرى الخيوط التي نسجت منها هذه الحكاية، إليكم هذه الخزانة من العلم.

المراجع باللغة العربية:

١) ابراهيم ابراهيم عناني – حجر رشيد وعلم المصريات (دراسة في اللغة المصرية القديمة ورموزها)
٢) إبراهيم الشرقاوي، تاريخ اللغة المصرية (أو فصول في تاريخ اللغة المصرية).١٩٩٠م (صدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب).
٣) احمد بدوي – تاريخ التربية والتعليم
٤) أحمد عاشور، صبحي السيد عاشور - الوطن الام دراسة في الثقافة المصرية
٥) أحمد كمال - العقد الثمين
٦) أحمد كمال (باشا)، الفرائد البهية في قواعد اللغة الهيروغليفية، ١٨٩٨م (المطبعة الأميرية ببولاق).
٧) احمد مختار عمر تاريخ اللغة العربية في مصر
٨) ادوارد جيبون - (اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها) – الجزء الثاني
٩) ارنست دوبلهوفر – رموز ومعجزات - ترجمة ودراسة / عماد حاتم – دار علاء الدين للطباعة والنشر – ط ٢٠٠٧
١٠) إسكندر الصيفي. التحفة السنية في تعليم اللغة القبطية. ١٨٩٢م (المطبعة والجريدة التجارية - القاهرة). هذا الكتاب لم يكن مجرد مرجع لغوي، بل كان جزءاً من "النهضة القبطية" في نهاية القرن التاسع عشر. ما يميز عمل إسكندر الصيفي هو محاولته تبسيط القواعد وربطها بالاستخدام الكنسي واليومي، وهو يمثل الحلقة الثانية في التأليف العربي عن القبطية بعد رائد هذا المجال إريان جرجس مفتاح.
١١) اسكندر صيفي - المنارة التاريخية في مصر الوثنية والمسيحية
١٢) افتكار البنداري السيد – نكبة توطين الهكسوس النكبة المصرية ج١
١٣) انا رويز - روح مصر القديمة
١٤) انطوان ذكري – مفتاح اللغة المصرية القديمة –الطبعة الاولي ١٩٩٧ مكتبة مدبولي
١٥) اودلف ارمان - ديانة مصر القديمة

١٦) اودولف ارمان وهرمان رانكن- مصر والحياة المصرية في العصور القديمة – تعريب عبد المنعم ابو بكر ومحرم كمال الوحدة والتنوع في اللهجات العروبية القديمة - مجموعة باحثين -تقديم د. علي فهمي خشيم

١٧) برنارد لويس-ٌقصة تدمير العرب لمكتبة الاسكندرية: تشريح الاسطورة - ترجمة: عمر جاسم عن كتاب:

١٨) بيتر فرانس - اغتصاب مصر

١٩) جاك تاجر - "اقباط ومسلمون"

٢٠) جان لاكتوير – شامبليون حياة من نور

٢١) جمال الدين الشرقاوي – لغز اللغة القبطية – دراسة تأصليه تاريخية

٢٢) جمال حمدان. شخصية مصر: دراسة في عبقرية المكان. (الطبعة الموسعة الأربعة مجلدات) ١٩٨١م - ١٩٨٤م (عن عالم الكتب). المضمون: يطرح حمدان نظرية أن "مصر هبة الجفاف" بقدر ما هي "هبة النيل". يوضح أن جفاف الصحراء الكبرى حوّل وادي النيل من "مستنقع" غير صالح للسكن إلى "ملاذ" وحيد ومجبر للسكان النازحين من الصحراء، مما فرض عليهم "الضبط والربط" الاجتماعي لإدارة مياه النهر، ومن هنا وُلدت الدولة المركزية الأولى.

٢٣) جوستاف لوبون – حضارة العرب

٢٤) جيمس هنري بريستد - فجر الضمير

٢٥) حسام الكتاني. الفترة الرطبة الأفريقية والهجرات السكانية (أو "الصحراء الكبرى: من الخضرة إلى الجفاف"). ٢٠١٦م (صدرت له أبحاث موسعة حول هذا الموضوع في دوريات متخصصة ونشرت في كتب مجمعة). ملاحظة سياقية: يتناول الكتاب كيف كانت الصحراء الكبرى "خضراء" ومأهولة، وكيف أدى جفافها المفاجئ (نهاية الفترة الرطبة) إلى هجرة المجموعات البشرية نحو وادي النيل، وهي المجموعات التي شكلت لاحقاً النواة اللغوية لـ الأسرة الأفروآسيوية في مصر.

٢٦) حسين فهمي حماد – موسوعة الاثار التاريخية

٢٧) حسين فوزي – سندباد مصري

٢٨) حسين مؤنس تاريخ مصر من الفتح الاسلامي الى ان دخلها الفاطميون ضمن موسوعة تاريخ الحضارة المصرية المجلد الثاني العصر اليوناني والروماني والعصر الإسلامي

٢٩) حمدي عبد الرازق - العقيدة والبرهان في التاريخ

٣٠) الدكتور باسم سمير الشرقاوي - تاريخ مصر القديم من الإسكندر الأكبر إلى عمرو بن العاص

٣١) رأفت عبد الحميد – الدولة والكنيسة – الجزء الاول

٣٢) سامح مقار. أصل الألفاظ العامية: من اللغة المصرية القديمة. صدر المجلد الأول منها عام ٢٠٠٤م، وتوالت المجلدات عن الهيئة المصرية العامة للكتاب. لماذا يُعد "سامح مقار" عبقرياً في طرحه؟
٣٣) سليم حسن – موسعة مصر القديمة – الجزء ١ – ٢ - ١٥
٣٤) سليم سليمان - مختصر تاريخ الأمة القبطية في عصر الوثنية والمسيحية –المطبعة المصرية الاهلية بالقاهرة طبعة ١٩١٤
٣٥) سليمان عبد الرحمن محمد الذييب - الكتابة في الشرق الأدنى القديم من الرمز إلى الأبجدية
٣٦) سمير فوزي جرجس - موسوعة تراث القبط الجزء الاول - طباعة دار القديس يوحنا الحبيب للطباعة والنشر
٣٧) سير ارنست الفرد – والس بيدج – حجر رشيد وكشف اسرار اللغة المصرية القديمة
٣٨) سير ألان جاردنر – مصر الفراعنة
٣٩) شحاتة اسماعيل - قراءات في حجر رشيد
٤٠) عاطف هلال - التاريخ السياسي والديني للغة القبطية
٤١) عبد الحليم نور الدين. اللغة المصرية القديمة. ١٩٩٨م (طبعة جامعة القاهرة). عن التحول: يُعد هذا الكتاب المرجع الأكاديمي الأبرز؛ حيث يشرح كيف بدأت المحاولات الأولى لكتابة اللغة المصرية بحروف يونانية (ما يعرف بـ "القبطية المبكرة") لأغراض سحرية ودينية لضمان نطق التعاويذ بدقة، وصولاً إلى استقرار الأبجدية القبطية بـ ٣٢ حرفاً.
٤٢) عبد العزيز صالح – التربية والتعليم في مصر القديمة
٤٣) عبد العزيز صالح - حضارة مصر القديمة - الجزء الاول
٤٤) عبد المحسن بكير - قواعد اللغة المصرية في عصرها الذهبي
٤٥) عبده صموئيل فارس "إسهامات الأقباط في الحضارة الإنسانية - القاهرة:
٤٦) على هامش التاريخ المصري القديم – عبد القادر حمزة – اصدارات كتاب الشعب رقم ١١ – طبعة ١٩٥٧
٤٧) علي فهمي خشيم - العرب والهيروغليفية
٤٨) فاطمة خليل، اللغة والهوية في مصر (دراسة سوسيولغوية).٢٠١٤م.
٤٩) فرانسوا دوماس – الهة مصر
٥٠) لويجي لوقا كافيللي – الجينات والشعوب واللغات
٥١) مجدي عياد يوسف - مدخل الى اللغة القبطية واليونانية
٥٢) محمد الحسيني، الاستمرارية اللغوية من المصرية القديمة إلى القبطية. ٢٠١٤، (ضمن سلسلة أبحاث لغوية ومؤتمرات متخصصة في القبطيات).

٥٣) محمد السيد محمد عبد الغني - لمحات من تاريخ مصر تحت الحكم الروماني
٥٤) محمد حسين الشيخ - التاريخ ليس أنيقاً كالأساطير: فهل حقّاً دمّر صلاح الدين أكثر من مليون كتاب للفاطميين؟
٥٥) محمد سليمان، المصريون القدماء والجنس البشري (أو أصل المصريين القدماء والجنس البشري).١٩٢٤م (صدر عن مطبعة الاعتماد بمصر). يُعد هذا الكتاب من المؤلفات المبكرة التي حاولت الرد على النظريات الغربية التي كانت تحاول فصل المصريين القدماء عن محيطهم الطبيعي، حيث استعرض المؤلف الأدلة الأنثروبولوجية التي تربط المصريين بسلالات شمال وشرق أفريقيا (التي تُصنف لغوياً ضمن الأسرة الأفروآسيوية).
٥٦) محمد عبد الفتاح السيد - المصريون والمسيحية حتى الفتح العربي
٥٧) محمد عزة دروزة - تمهيدات في سكان مصر الأقدمين والموجات العربية الجنس التي انساحت إليه
٥٨) محمود أحمد درويش - موسوعة رشيد "الجزء الأول": التاريخ والاستحكامات الحربية
٥٩) محمود إسماعيل، الملاذ النيلي (دراسة في الحركات السكانية). ٢٠٠٤م (صدر عن دار سينا للنشر / القاهرة).
٦٠) محمود درويش – صور من حضارة مصر القديمة – طبعة ١٩٥٤
٦١) مراد كامل - القبط في ركب الحضارة العالمية
٦٢) مراد كامل - من دقلديانوس الى دخول العرب - تاريخ الحضارة المصرية – المجلد الثاني
٦٣) مراد كامل حضارة مصر في العصر القبطي – دار العالم العربي القاهرة
٦٤) الموسوعة الشاملة للحضارة المصرية – جى راشيه
٦٥) ناصر الأنصاري. تاريخ نظم الدولة المصرية.١٩٩٥م. المضمون: يربط في فصوله الأولى بين التغيرات المناخية في العصر الحجري الحديث وبين اضطرار الجماعات البشرية لابتكار "نظام سياسي وقانوني" لتوزيع المياه في الوادي بعد جفاف الهضاب.
٦٦) نديم اليسار – ليسوا الهة
٦٧) نعيم فرج - موجز تاريخ الشرق الأدنى القديم – دار الفكر
٦٨) والس بيدج – الهة المصريين
٦٩) ياسر شحاتة، إعادة كتابة التاريخ

المراجع باللغات الاجنبية:

(أ) دراسات مقارنة بين المصرية واللغات الأفروآسيوية:

1) Benfey, Theodor. Über das Verhältnis der ägyptischen Sprache zum semitischen Sprachstamm. 1844.
2) Brugsch, Heinrich Karl. Hieroglyphisch-demotisches Wörterbuch. 7 vols. Leipzig, 1867–1882.
3) Erman, Adolf. "Das Verhältnis des Ägyptischen zu den semitischen Sprachen." Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft 46 (1892): 93–129.
4) Ember, Aaron. Egypto-Semitic Studies. Leipzig, 1930.
5) Calice, Fritz. Grundlagen der ägyptisch-semitischen Wortvergleichung. Vienna, 1936.
6) Vergote, Jean. Phonétique historique de l'égyptien. Paris, 1945.
7) Cohen, Marcel. Essai comparatif sur le vocabulaire et la phonétique du chamito-sémitique. Paris, 1947.
8) Thacker, Thomas W. The Relationship of the Semitic and Egyptian Verbal System. Oxford, 1954.
9) Loprieno, Antonio. Das Verbalsystem im Ägyptischen und im Semitischen. Wiesbaden, 1986.
10) Bakir, A. M. Notes on Late Egyptian Grammar: A Semitic Approach. Warminster, 1983.
11) Hoch, James E. Semitic Words in Egyptian Texts of the New Kingdom and Third Intermediate Period. Princeton, 1994.
12) Takács, Gábor. Etymological Dictionary of Egyptian. Leiden, 1999–

(ب) دراسات نقدية أو اتجاهات خاصة:

13) Rössler, Otto. "Das Ägyptische als semitische Sprache." In Altheim, F. & Stiehl, R., Berlin, 1971.

(ج) طرح جدلي يعتبر المصرية لغة شرق اوسطية مباشرة:

14) Schneider, Thomas. "Beiträge zur sogenannten 'Neuen Komparatistik.'" Lingua Aegyptia 5 (1997): 189ff.

(د) مراجع لغوية/إفريقية مساندة:

15) Reinisch, Leo. Wörterbuch der Bilin-Sprache. Vienna, 1887.

(هـ) مراجع نصية/دينية مصرية:

16) Budge, E. A. Wallis. The Egyptian Book of the Dead. London.
17) Renouf, Peter Le Page. Mythologie égyptienne. Paris.

(و) مراجع في تاريخ بني إسرائيل (للمقارنة الفكرية):

18) Thompson, Thomas L. Early History of the Israelite People. London, 1994.
19) Garbini, Giovanni. History and Ideology in Ancient Israel. London, 1988.

(ز) مراجع تراثية وأرشيفية:

20) Hincks, Edward. Catalogue of the Egyptian Manuscripts in the Library of Trinity College. Dublin.
21) Young, Thomas. Miscellaneous Works. Vol. 3.
22) The Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 2.

لم تمت لغة مصر القديمة "الكيمة".

مات الخط فقط "مدو نتر" "كلام الإله" أو ما يطلق عليه الغرب "الهيروغليفية".

قبل سبعة آلاف سنة، حين كانت مصر خضراء ومليئة بالأنهار، رسم أجدادنا كلماتهم على جدران كهوف المستكاوي والسباحين وهم يصرخون: "لقد كنا هنا".

ثم جاء يوم صمت فيه الحجر الأخير على معبد فيلة، وأغلقت أبواب "مدو نتر" إلى الأبد... أو هكذا ظن العالم.

لكن اللغة لم تمت.

اختبأت في أفواهنا.

شامبليون نال الشهرة... ثم كتم جزءًا من الحقيقة.

ابن وحشية لم تنشر كتابه في أوروبا قبل ستة عشر عامًا منه.

وأحمد كمال باشا بنى المعجم وحده، بماله وعمره، ثم مات قبل أن يسأله أحد أو ينشر معجمه.

هذا الكتاب ليس تاريخًا جافًا.

إنه رحلة جريئة تكشف سرقة المعرفة، وترجمات خاطئة غيرت روح وعقيدة الحضارة المصرية، ومعجمًا ظل مخفيًا مائة عام... وتنتهي بسؤال يطلب الضمير:

لماذا يقف المصري اليوم أمام كلام أجداده ويشعر أنه يقرأ لغة أجنبية؟

افتح الكتاب.

ستكتشف أنك كنت تتكلم الكيمة طوال حياتك... دون أن تعرف.